

جامعة أمدرمان الإسلامية
كلية الدراسات العليا
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات الأدبية والنقدية

عماد الدين الأصبهاني شاعرا

دراسة تحليلية نقدية

بمبحث مقدم لنيل درجة الدكتوراة

إعداد الطالب : حيدر خليفة أحمد الفضل

إشراف الدكتور: بشير عباس بشير

١٤٣٠ هـ — ٢٠٠٩ م



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ {١٩}

سورة النمل ، آية (١٩)

الإهداء

إلى والديّ

أطال الله عمرهما

إلى اخواني واخواتي

إلى كل الأصدقاء والزملاء

أهدي هذا البحث

الباحث

الشكر والتقدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وبعد
الشكر أولاً لله رب العالمين ، الذي يسر لي أمر هذا البحث ، وأعانني
على اخراجه في هذه الصورة .
اتقدم بوافر شكري وعظيم امتناني لأستاذي الدكتور بشير عباس بشير الذي
رعى هذا البحث وتعهده ووجهه ، فلم يبخل بنصح أو مشورة أو توجيه ،
وكان لي خير معين بعد المولى عز وجل .
كما أسجل شكري وامتناني للأستاذين الكريمين ركني لجنة المناقشة
فضيلة أستاذي الدكتور محمد الحسن الأمين
وفضيلة أستاذي الدكتور محبوب محمد آدم
لتفضلهما بقبول فحص هذا البحث ومناقشته واثرائه بملاحظتهما المفيدة
وتهذيبه ، وتوجيهاتهما السديدة داعياً الله أن يجزيهما عني وعن الإسلام
خير الجزاء .
والشكر والتقدير إلى جامعة أم درمان الإسلامية ، وإلى كلية اللغة العربية
عميدا وأساتذة .
والشكر موصول إلى كل من مد يد العون ، وإلى كل من شارك في اخراج
هذا البحث .

والحمد لله رب العالمين ، ، ،

الباحث

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه الغر الميامين .

فما يزال الأدب العربي إلى اليوم بكرا ، وموردا لا ينضب معينه ، ولا يروى ظمئه أبدا على إختلاف عصوره ، برغم ما قدمت فيه من دراسات ما زال يزخر بروائع الفكر الإنساني ويكن في دواخله نفائس الدرر من مختلف ألوان الإبداع ، فهو تراث ثر ينبغي أن تكون دراسته دراسة متأنية تتوفر فيها عناصر الدقة والتمحيص .

لقد ظل الأدب العربي يجود بفرسان الكلمة ، وتعتبر فترة الدولة العباسية أخصب الفترات الأدبية ، حيث ترعرع فيها الأدب ، وبلغ قمة مجده وأوج عظمته ، ودخلته فنون وأغراض جديدة أضفت عليه مزيدا من الحيوية عبر العصور الأدبية المختلفة .

دوافع الاختيار :

لقد كان بحثي لنيل درجة الماجستير تحت عنوان (الصورة الفنية في شعر المديح عند الصرصري) ، والصرصري أحد الشعراء المجاهدين الذين قاوموا الغزو المغولي ، فوقفت في أثناء دراستي تلك على البطولة العربية وشعر البطولة فأعجبت بها وقررت في نفسي أن تكون أطروحتي لنيل درجة الدكتوراة بعنوان (شعر الجهاد في مواجهة الحروب الصليبية) إلا أنني وجدت رسالة بهذا العنوان ، مما دفعني إلى التعمق أكثر في شعر البطولة ، فوجدت كثيرا من الكتب والدراسات تشير إلى العماد الكاتب — وسط الكم الهائل من شعراء الحروب الصليبية — إشارات طفيفة ، فوقفت على ديوانه ، وآثرت أن القي قليلا من الضوء على شعره ، خاصة وأنه قد عرف كاتبا ، وذاع اسمه بذلك (العماد الكاتب) ، وقد قال الصفدي عن شعره (وشعره ألطف من نثره) ووصف أبو شامة صاحب كتاب الروضتين العماد بأنه : (فارس الشعراء الفحول في وصف المعارك ونعت القواد الشجعان) ، فرأيت أن أتناول شعره بالدراسة والتحليل فاخترت له عنوان (العماد الأصبهاني شاعرا) .

منهج البحث :

اتبعت في دراسة هذا الموضوع المنهج التاريخي في دراسة عصر الشاعر وحياته ، والمنهج الوصفي التحليلي ، في تحليل شعره وبيان ما فيه من قيم جمالية وفنية ، والمنهج الاستقرائي في إحصاء البحور والقوافي .

مصادر البحث :

تنوعت مصادر الدراسة بين كتب الأدب، والنقد ، والتاريخ والتراجم ، والطبقات ، والبلاغة ، والمعاجم . ومن أهم مصادر الدراسة ديوان العماد ، أما في مجال النقد فقد رجعت إلى كتب مختلفة منها نقد الشعر لقدماء بن جعفر ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وعيار الشعر لابن طباطبا العلوي ، وغيرها من الكتب .

أما في جانب الدراسات البلاغية فقد أقدمت على كتب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، والإيضاح للقزويني .

أما من الناحية التاريخية فقد اعتمدت على كتاب الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية والنورية لأبي شامة المقدسي ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي .

أما كتب التراجم فقد اعتمدت على كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وكتاب الوافي بالوفيات للصفدي والأعلام للزركلي ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة .

هذا بالإضافة إلى كتب الأدب في عصر الزنكيين والأيوبيين .

هيكل البحث :

انتهجت في هذه الدراسة تقسيما حوى مقدمة وثلاثة أبواب وثمانية فصول ، وخاتمة ، وفهارس .

— شملت المقدمة أهمية البحث ودوافعه وأهدافه ومنهجه ومصادره .

— ثم جاءت أبواب البحث وفصوله على النحو التالي :

الباب الأول : عصر الشاعر وحياته وقسمته إلى فصلين

• الفصل الأول : عصر الشاعر

تناولت فيه الحياة السياسية والحياة الاقتصادية والاجتماعية ،
والحياة الفكرية .

• الفصل الثاني : حياة الشاعر

وتناولت فيه اسمه ولقبه وكنيته وميلاده ونسبه وأسرته وتعليمه
وشيوخه وتلاميذه ووفاته وصفته وثقافته وكتبه وآثاره .

الباب الثاني : الموضوعات الشعرية في ديوان العماد

• الفصل الأول : الموضوعات التقليدية

وتناولت فيه المديح والرثاء والفخر والهجاء والغزل والوصف
والحكمة والاستعطاف .

• الفصل الثاني : الموضوعات المستحدثة

وتناولت فيه شعر الحماسة ، وشعر الاخوانيات ، وشعر الغربة
والحنين .

الباب الثالث : الدراسة الفنية لشعر العماد

ويشتمل على أربعة فصول على النحو التالي :

• الفصل الأول : موسيقى الشعر

تناولت فيه الموسيقى الخارجية (الوزن والقافية) ، والموسيقى
الداخلية .

● الفصل الثاني : التصوير البياني

تناولت فيه الصورة البيانية ووظائفها ومصادرها ، وعناصر تشكيل الصورة البيانية وهي التشبيه والاستعارة والكناية .

● الفصل الثالث : اللغة والاسلوب

● الفصل الرابع : بناء القصيدة

تناولت فيه : * مطلع القصيدة ، حيث تنوعت مقدمات العمد بين المقدمة الطللية ، والغزلية ، ووصف الظعن والرحيل ، ووصف الطبيعة ، ومقدمة الشوق والحنين .
* التخلص والخروج .
* خاتمة القصيدة .

وفي نهاية البحث جاءت الخاتمة التي اشتملت على النتائج التي توصلت إليها الدراسة ، وأخيرا الفهارس والتي جاءت على الترتيب التالي :
فهرس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، فهرس الأشعار ، فهرس للأعلام المترجم لها ، فهرس المصادر والمراجع ، وأخيرا فهرس الموضوعات .

الباب الأول

عصر الشاعر وحياته

الفصل الأول : عصر الشاعر

الفصل الثاني : حياة الشاعر

الفصل الأول

عصر الشاعر

المبحث الأول : الحياة السياسية

المبحث الثاني: الحياة الاقتصادية والاجتماعية

المبحث الثالث : الحياة العلمية والفكرية

المبحث الأول

الحياة السياسية

الحركة الصليبية : التاريخ والأحداث

تعرض الشرق الإسلامي لحركة استعمارية من الغرب الأوربي خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثاني عشر الميلاديين) تحت شعار حماية المقدسات المسيحية ، وقد اتخذت هذه الحركة الصليب شعارا لها ، فاطلق عليها اسم الحملات الصليبية أو الحروب الصليبية .

فالحروب الصليبية يقصد بها تلك الحروب التي شنتها أوربا المسيحية باسم الصليب وتحت رايته لحماية المقدسات الصليبية في الشام ، واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين بقصد امتلاكه ، وقد انبعثت هذه الحملات الصليبية عن الأوضاع الدينية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية التي سادت غرب أوربا في القرن الخامس الهجري ، واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستارا دينيا للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق (١) .

وكان للصليبيين أسباب ودوافع متعددة لغزو الشرق الإسلامي منها :

١/ الأسباب والدوافع الدينية :

فقد شكل العامل الديني دافعا قويا ومهما في هذه الحروب وقد عرفها المؤرخ الفرنسي ريان بأنها : (حروب دينية استهدفت بطريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام) (٢). وكان للكنيسة الغربية ممثلة في شخص البابا أوربان الثاني إثارة فكرة الحروب الصليبية في غرب أوربا بعد الخطاب الذي ألقاه في مجمع كليرمونت في فرنسا وذلك عقب استغاثة الكنيسة الشرقية (بيزنطة) بالكنيسة الغربية في حروبها ضد الأتراك المسلمين الذين انتصروا عليها في موقعة ملازكرت .

١/ الحركة الصليبية : سعيد عبدالفتاح عاشور ، مكتبة الأنجلو القاهرة — الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨م ، الجزء الأول ، صفحة ٢٥ ، ووثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي : محمد طاهر حمادة ، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٢م صفحة ١٧ .
٢/ الحركة الصليبية : عاشور ، ج ١ ، ص ٢٨ .

وذكر بعض المؤرخين أن السبب الأول في قيام هذه الحروب هو الاضطهاد الذي تعرض له الحجاج المسيحيون في بلاد الشرق ، كما اعتبر بعضهم أن السبب هو هدم كنيسة القيامة بأمر من الحاكم بأمر الله الفاطمي* .

وهذه الادعاءات كلها باطلة لأن الدين الإسلامي عرف بالتسامح في العقائد وأوصي برعاية أهل الذمة واحترام عقائدهم ومعابدهم وحقوقهم . (١)

٢/ الأسباب والدوافع الاقتصادية : -

فقد كان للمكاسب الاقتصادية والأطماع والأمل في إصلاح أحوال المعيشة وإيجاد حلول للأزمات الاقتصادية دافع مهم ، حرك سكان غرب أوروبا لغزو الشرق .

فقد سيطرت على غرب أوروبا في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي حالة من الفقر والأزمات الاقتصادية ، وكثرت فيها المجاعات ، مما اضطر السكان إلى أكل حشائش الأرض ، فجاءت هذه الحروب لتفتح أمام أولئك الجوعى - في غرب أوروبا - بابا للهجرة وطريقا للخلاص من أوضاعهم الاقتصادية الصعبة .

وكانت المطامع التجارية والأمل في جعل الشرق الأوسط سوقا تجارية رائجا للمدن الإيطالية (جنوة ، وبيزة ، والبندقية) الحافز الأساسي الذي جعلها تنفق في سعة لتشجيع هذه الحروب وتقديم مراكبها وسفنها لحمل القوات الصليبية المتجهة الى الشرق . (٢)

٣/ الأسباب والدوافع الاجتماعية : -

فقد كان التفاوت بين طبقات المجتمع الأوربي الثلاث : طبقة رجال

* هو أبو علي منصور الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله نزار بن المعز بالله ، من خلفاء مصر من بني عبيد السادس منهم ، ولد سنة ٣٧٥هـ ، وبويع بالخلافة سنة ٣٨٦هـ ، وتوفي سنة ٤١١هـ . (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٥٣هـ - ١٩٣٥م ، ١٧٧/٤)

١/ الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين : محمود عبدالله أحمد أبو الخير ، دار الإسراء للنشر والتوزيع - عمان ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م ، الجزء الأول ، ص ٩٥
٢/ الحركة الصليبية : عاشور ، ١/ ٣٤

الدين وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان وطبقة الفلاحين من الرقيق دافعا لهذه الحروب ، حيث وجد البؤساء والمحرومون من الرقيق في هذه الحروب فرصتهم للتخلص من أوضاعهم المعيشية القاسية ، وفك رقابهم من أغلال الأسياد والأشراف .

أما طبقة الأشراف والإقطاعيون فقد كانت تطمع من هذه الحروب في زيادة أملاكها واقطاعها ، وطمع أبناء العائلات العريقة الذين حرموا من الميراث بسبب النظام الإقطاعي في الاغتناء وكسب أراضي جديدة لهم .

ومن ناحية أخرى فقد تعرضت غرب أوروبا — آنذاك — لزيادة كبرى في عدد السكان ، فضاقت بسكانها أو كادت ، وظهرت الحاجة الماسة الى البحث عن مواطن جديدة تستوعب الزيادة الكبيرة في عدد السكان ، فكانت الدعوة لغزو الشرق بمثابة حل لتلك المشكلة (١) .

فهذه هي أهم الأسباب والدوافع التي حفزت غرب أوروبا بغزوه الاستعماري الصليبي للشرق الإسلامي في نهاية القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي .

الدعوة إلى الحروب الصليبية : —

انطلقت الدعوة الى الحروب الصليبية من فرنسا ، وأول من دعا لها البابا أوربان الثاني في خطاب ألقاه في مجمع كليرمونت سنة ٤٨٨ هـ وقد شهد هذا الخطاب نحو ثلاثمائة من رجال الدين (٢) ، فمما قاله محرضا السامعين على قتال المسلمين : (أنتم هنا فقراء تعساء ، وهناك ستكونون سعداء يهبط عليكم الرخاء . . . لا تأخير بعد اليوم . . .) (٣) . ثم أخذ بزمam الدعوة بعده بطرس الملقب بالناسك .

لقد حشد الغرب بنيه من كل جنس لغزو الشرق ، وخرجت كل تلك الجموع من كل فج من أوروبا فيها الشيوخ والشباب والأطفال والرجال والنساء ،

١/ الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين ، ١ / ١١٠

٢/ تاريخ الحروب الصليبية : ستيفن رينسمان ، ترجمة السيد الباز العريني ، نشر وتوزيع دار الثقافة — بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٧م ص ١٦٠ ، وتاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي : حسن إبراهيم

حسن ، طبعة مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الاولى ١٩٦٧م ٤ / ٢٤٤

٣/ نور الدين محمود : حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر — القاهرة الطبعة الأولى ، ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٩م ، ص ٦٥

ووصلوا بلاد المسلمين عام ٤٩٠ هـ في عدد لا يحصى ، فقلق الناس وانزعجوا ، وكانت نيقية أول بلد فتحه الصليبيون ، ثم شرعوا بعد ذلك في أخذ بلاد المسلمين الواحدة تلو الأخرى . (١)

حالة الشرق الإسلامي عشية الحروب الصليبية :

فقد كان المسلمون — آنذاك — في المنطقة العربية موزعين في ولائهم السياسي بين الخلافة العباسية السنية في بغداد ، والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة ، وكانت أحوالهما الداخلية مرتبكة ، فكانت الشام موزعة بين عدة إمارات مستقلة يحكمها حكام عرب أو من السلاجقة . وعندما وصل الصليبيون الى المنطقة العربية كانت هناك إمارة في حلب يحكمها رضوان الموالي للفاطميين ، وإمارة في دمشق يحكمها دقاق الموالي للعباسيين في بغداد ، وإمارة شيزر التي كانت تحت حكم بني منقذ ، وإمارة طرابلس وكانت تحت حكم بني عمار ، وكان بيت المقدس بأيدي السلاجقة . وكل هذه الإمارات كانت داخلية في حروب فيما بينها مما ساعد على نجاح الحملة الصليبية ، وجعل البلاد فريسة سهلة لهم (٢) .

اجتياح الصليبيين للشرق الإسلامي :

بعد أن استولى الصليبيون على نيقية عام ٤٩٠ هـ واصلوا زحفهم في آسيا الوسطى فاستولوا على جنوب الأناضول وعلى منطقة طرسوس ثم استولوا على مدينة الرها وأنطاكية ثم على معرة النعمان وطرابلس ، وشيزر وحلب وحماة ، واجتازوا صور وقيسارية ، واكتملت المأساة هذه بسقوط القدس في أيديهم سنة ٤٩٢ هـ وكان يحكم بيت المقدس آنذاك افتخار الدولة من قبل الفاطميين ، وارتكب هؤلاء الصليبيون في المنطقة العربية أبشع الجرائم ضد المسلمين ، فذبحوا كل من لقوه من المسلمين نساء وأطفالا وشيوخا في وحشية لم يسجل لها التاريخ مثيلا ، وقد

١/ الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، دار صادر بيروت ١٩٦٦م ، ٢٧٢ / ١ ، والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة : ابن تقي الدين ، ١٤٦/٥

٢/ موسوعة تاريخ الحروب الصليبية : مفيد الزبيدي ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، الأردن — عمان ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م ، ص ٥٣ ، وماهية الحروب الصليبية : قاسم عبده قاسم ، عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية ، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، مايو ١٩٩٠م — ١٤١٠هـ ، ص ٩٤ .

أحصى القتلى بالمساجد فقط من الأئمة والعلماء والزهاد والمجاورين فكانوا سبعين ألفاً أو يزيدون (١). وقال شاهد عيان : (وشاهدنا أشياء عجيبة ، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين . . وترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام ، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل) ، وقال شاهد عيان آخر : (إن النساء كن يُقتلن طعنا بالسيوف والحراب . .) (٢) ، وبهذه الوحشية حقق الصليبيون ما أرادوا وأسسوا إماراتهم الأربع في قلب العالم الإسلامي ، وهي إمارة الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس (٣). وبقي العالم الإسلامي في دهشة مما حدث .

نهضة المسلمين ودرهم للصليبيين : -

لقد كانت هذه الهزائم المتلاحقة التي نزلت بالمسلمين وتلك المجازر الدامية التي راح ضحيتها الألوف من المسلمين ، الدافع القوي إلى الاتحاد ونبذ الفرقة والانقسام ، فقامت دعوات الجهاد في العواصم الإسلامية وكان عمادها الفقهاء والعلماء الذين لعبوا دوراً كبيراً في جمع كلمة المسلمين واتحادهم وكان العالم الإسلامي آنذاك في حاجة إلى زعامة رشيدة واعية ، فهدى الله للمسلمين جماعة وهبوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله ولنصرة الإسلام ومجاهدة العدو ، وكان أبرزهم البطل القائد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه .

بدأ ظهور عماد الدين زنكي سنة ٥٢١ هـ ، فعمل على تثبيت دعائم ملكه في الموصل - وكان بطلاً شجاعاً آل على نفسه محاربة الصليبيين - ودعى المسلمين للجهاد فالتفوا حوله ، ثم بدأ في التوسع فضم إمارة حلب إلى ملكه فكانت الخطوة الهامة في سبيل توحيد بلاد الشام (٤) . وبعد ذلك قرر زنكي الهجوم على الصليبيين فقام بحصار حصن بارين واستولى عليه كما استولى أيضاً على المعرة وكفر طاب (٥) . واستطاع بعد ذلك أن يستولي على حماة وعلى إمارة الرها أولى الإمارات الصليبية فكان

١/ الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، ٢٨٣/١٠

٢/ قصة الحضارة : ول ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، مطبعة دار الجيل - بيروت ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، المجلد الرابع ، الجزء الرابع ، صفحة ٢٥ .

٣/ الغزو الصليبي والعالم الإسلامي : علي عبد الحليم ، مطبعة شركة مكتبات عكاظ ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ص ١٢٧ .

٤/ الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي : مسفر سالم بن عريج الغامدي ، دار المطبوعات الحديثة ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م ، ص ١٨٩ .

٥/ الروضتين في أخبار الدولتين : المقدسي ، نشر دار الجيل - بيروت ، ٩٤ / ١

ذلك نصرا عظيما للمسلمين وحافزا مشجعا لهم على طرد الصليبيين من أراضيهم ، وضربة عنيفة للصليبيين . واستطاع زنكي بهذه الانتصارات أن يكسر شوكة الصليبيين ويعيد للمسلمين ثقتهم بأنفسهم ، ولكن القدر لم يمهله طويلا واختصه بالشهادة ، فقتله أحد غلمانه وهو يحاصر قلعة جعبر (١).

وحمل راية الجهاد من بعده ابنه نور الدين محمود الذي كسب ثقة الناس وجمع كلمتهم ووحد صفوفهم ، وقام بمهاجمة الصليبيين فاستولى على حصن حارم وبانياس كما هاجم إمارة أنطاكية الصليبية ، واستولى على دلك ورondan وعزاز وبزاعة وارتاح ومصرة النعمان واقامية وإنب وكفر طاب والبارة وتل باشر وحمص وغيرها من بلاد المسلمين الواقعة تحت حكم الصليبيين عدا بيت المقدس والمدن الساحلية ، وبذلك اتصلت أملاكه من دجلة الى نهر العاص في الشام (٢) . وبعد أن تحقق لنور الدين الوحدة في بلاد الشام اتجه ببصره إلى مصر ليضمها إلى أملاكه ويحقق بذلك الوحدة الإسلامية الكبرى ، وتمكن قائده شيركوه بمساعدة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي من الاستيلاء عليها سنة ٥٦٤هـ وكان لانضمامها للدولة الإسلامية صدى واسعا لا في مملكة بيت المقدس وحدها بل في الغرب الأوربي كله (٣) . ثم اتجه ببصره نحو الهدف الأسمى وهو تحرير بيت المقدس ولكن الموت حال دون ذلك ، وتوفي سنة ٥٦٩هـ بداء الخوانيق (٤) .

وحمل راية الجهاد من بعده صلاح الدين الأيوبي ، فكانت أولى خطواته تأمين حدود مملكته (مصر) فضم إليها النوبة والسودان واليمن والحجاز وطرابلس وتونس ، ثم اتجه إلى جهاد الصليبيين فعمل على كسب الشام إلى جانبه وتوحيدها مع مصر ، فخرج إلى دمشق واستولى عليها ثم استولى على حمص وحماة وحلب وبذلك تم له ما أراد من تحقيق الوحدة الإسلامية الكبرى (٥) . ثم قام صلاح الدين بتهيئة

الروضتين ، ١٠٧/١ ،
٢ / الروضتين ، ٢٣٥ / ١ ، ونور الدين محمود ، ص ٢٨٠
٣ / نور الدين محمود ، ص ٣١٩ .
٤ / الروضتين ، ٥٨٢ / ١ ، والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالوصل : ابن الأثير الجزري ، تحقيق عبدالقادر أحمد طليمات ، طبع دار الكتب بالقاهرة ومكتبة المتن ببغداد ، د . ت . ، ص ١٩١
٥ / البداية والنهاية : ابن كثير ، مطبعة السعادة مصر د . ت . ٢٨٨ / ١٢ ، والحركة الصليبية : عاشور ، ٢ / ٥٧٦

شاملة لجمع قوى المسلمين ومواردهم البشرية والمادية ، استعدادا لخوض معركة جهاد كبرى ضد الصليبيين فكانت معركة حطين ، وهي من أعظم المعارك التي انتصر فيها المسلمون على الصليبيين ، وكانت بشرى خير بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية في العصور الوسطى (١) . وواصل صلاح الدين انتصاراته هذه على الصليبيين فاستولى على عكا ونابلس ويافا وصيدا وجبيل وبيروت وعسقلان ، ثم اتجه إلى بيت المقدس وحاصره من الجهة الشمالية ، ولما شعر الفرنج بأنهم أشرفوا على الهلاك طلبوا من صلاح الدين الأمان وتسليم المدينة له . فوافق صلاح الدين وتسلم المدينة سنة ٥٨٣ هـ . (٢) . وتولى الحكم بعد صلاح الدين ابناؤه الثلاثة ، ثم أخوه الملك العادل ، وقد اتسم عهدهم بالتنازع والتناوب فيما بينهم .

ثم حمل راية الجهاد من بعدهم المماليك ، وعمل الظاهر بيبرس على جمع المسلمين وتوحيدهم ، فوحد بين مصر والشام والحجاز ثم واصل جهاده ضد الصليبيين فاستولى على قيسارية ويافا وصفد والرملة والشقيف وأرنون (٣) . وتولى الحكم بعده قلاوون الذي استطاع أن يستولي على حصن المرقب وعلى إمارة طرابلس ، فلم يبق للصليبيين في بلاد الشام سوى عكا وصيدا وعتليت (٤) . وحمل راية الجهاد من بعده الأشرف خليل الذي استولى على صيدا وحيفا وأنطرسوس وعتليت (٥) . ثم استولى على عكا ، وبذلك تمكن من تطهير جميع الأراضي العربية الإسلامية من الغزاة الصليبيين بعد جهاد طويل وكفاح مرير .

١/ الحركة الصليبية : عاشور ، ٨٠٦ / ٢

٢/ الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، ١١ / ٥٣٩ - ٥٤٩ .

٣/ النجوم الزاهرة : ابن تقري بردي ، ٧ / ١٤٢

٤/ الشعر الشامي ، ١ / ١٧٨

٥/ المرجع نفسه ، ص ١٧٩ .

المبحث الثاني

الحياة الاقتصادية

لا شك أن البلاد الإسلامية قد تأثرت بشكل واضح بفعل الحروب الصليبية ، وما أحدثته من دمار في الأرواح والأموال والممتلكات ، وعانت الأمة الإسلامية نتيجة لتلك الحروب المتصلة من تخريب لبعض المدن ودمارها ، وتضييع لكثير من المحصولات الزراعية ، واختلال للأمن وإشاعة للنهب والسلب .

فقد كانت المنطقة العربية تزخر بمواردها الاقتصادية ، غنية بمنتجاتها الزراعية ، من الحبوب والخضر والفاكهة ، وغنية بمنتجاتها الصناعية ، مثل صناعة الحديد والنحاس والأصباغ والأنسجة ، وصناعة السكر ، وأنواع البخور والزيت والطيب التي كانت منتشرة في كثير من مدن الشام ومصر .

وقد كان لموقع الشام أثرهم في ازدهار التجارة بها ، فهي تقع في قلب العالم الإسلامي حيث تتلاقى تجارة أوربا ومصنوعاتها القادمة من البندقية وبيزة بتجارة الهند والصين وأواسط آسيا (١) . وعلى الرغم مما ساد الشام من اضطراب في عصر الحروب الصليبية فقد كانت تجارتها الداخلية والخارجية مزدهرة ، وذلك بفضل ازدياد نشاط التبادل التجاري بين مصر والشام وبين البلاد العربية والبلاد الأوربية ، وخاصة المدن الإيطالية ، وكان للتجارة أثر كبير في حياة الناس وفي أحوال معيشتهم وفي ميزانيات الحكومات ومشاريعها ، وقد اشتغل كثير من الناس بالتجارة وأثروا من العمل بها ، ولكن الذين جنوا ثمار ذلك الازدهار الاقتصادي هم الحكام وحدهم ، ومن في حكمهم من عامة الشعب ، أما بقية الشعب فقد ازدادت حالتهم سوءا كلما ازداد حكامهم غنى .

وما زاد حالة الشعب سوءا كثرة الحروب المتصلة ، مما استدعى كثرة النفقات وزيادة الضرائب وإرهاق طبقة الفلاحين وصغار التجار . وكانت حالة السكان تزداد سوءا عند وقوع النكبات الطبيعية مثل الزلازل والقحط والأوبئة المهلكة التي يعقبها الغلاء الشديد ، ومن ذلك ما حدث سنة ٥٧ هـ حيث يقول ابن الأثير في حوادث تلك السنة :

١/ الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين ، ٦٧/١ ، والأدب في العصر الأيوبي : محمد زغول سلام ، دار المعارف بمصر - القاهرة ، ١٩٦٨ م ، ص ٥٧ .

(انقطعت الأمطار بالكلية في سائر البلاد واشتد الغلاء وعم أكثر بلاد العراق ومصر وديار بكر وديار الجزيرة والموصل والشام وغيرها من البلاد ودامت الى أن انقضت السنة ، وانتشر الوباء في كل بلد، فمات فيه أمم لا يحصون كثرة) (١) . وكانت أشد المجاعات فتكا في مصر ، في عهد الملك العادل ابن أيوب ، سنة ٥٩٧ هـ وكان سببها إنخفاض النيل (فانتشر القحط واشتد الغلاء والوباء بمصر فهرب الناس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام ، وأكل الناس لحوم البشر ، وكان الرجل يذبح ابنه الصغير وتساعد أمه على طبخه وشيه ، وكثر الوباء وامتلات طرقات المغرب والمشرق والحجاز برمم الناس وصلى إمام مسجد الإسكندرية في يوم على سبعمائة جنازة) (٢) .

وقد كثرت الزلازل في البلاد العربية ففي سنة ٥٩٧ هـ حدثت زلزلة هائلة في صعيد مصر وامتدت الى الشام والساحل فهدمت مدينة بابلس وعكا وصور وجميع قلاع الساحل وامتدت إلى دمشق ولم يبق منها إلا القليل، ومات تحت الهدم خلق كثير (٣)

فقد أدت هذه الحروب المتصلة وكثرة الكوارث الطبيعية إلى هبوط الحالة الاقتصادية فكانت الأموال تؤخذ من عامة الشعب لأصرفها على المقاتلين والمجهود الحربي ، فكثر الجوع والفقر وانتشرت السرقات والمجاعات حتى عجز الفقراء عن تحصيل لقمة العيش ، ومما يؤكد على صعوبة الحياة الاقتصادية إن السلطان صلاح الدين الأيوبي عندما عرضت عليه الهدنة مع الصليبيين استشار قواده فاجمعوا على قبولها ، وقالوا معللين سبب قبولهم : (فانظر إلى أحوال البلاد فإنها خربت وتشعثت ، والراعايا فإنها تعكست وتعلثت ، والأجناد نصبت ووضبت ...) (٤) . وقد أصاب الفقر جميع طبقات المجتمع ، حتى الشعراء ، فجعلوا من الشعر حرفة ووسيلة من وسائل الحصول على الرزق وأصيبوا بحالة من التزلق وطلب العطاء .

١/ لكامل في التاريخ ، ٤٥١ / ١١ ، والتاريخ الباهر ، ص ١٧٨ .

٢/ النجوم الزاهرة ، ١٧٣ / ٦ .

٣/ المرجع نفسه ، ١٧٤ / ٦ .

٤/ الحروب الصليبية وأثرها في الأدب : محمد سيد كيلاني ، دار الكتاب العربي ، مصر ، ١٩٦١ م ، ص ٣٨

الحياة الاجتماعية

كان المجتمع في عصر الحروب الصليبية يتكون من عناصر وجنسيات متعددة ، ومتباينة في طباعها وأخلاقها ، فقد كان المجتمع خليطاً من العرب والترك والفرس والروم والأرمن والأكراد وعناصر من السريان واليونان ، إضافة إلى العناصر التي استقرت في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية من فرنسيين وألمان وإيطاليين وغيرهم ، فانصهروا جميعاً في المجتمع الإسلامي العربي واستوعبت العناصر الجديدة بعض عادات وتقاليده البلاد العربية ، وأقاموا علاقات حسنة مع جيرانهم من المسلمين ، وكان ثمرة هذا الاختلاط ظهور كثير من العادات والتقاليد في الأدب والفكر والدين في نظم المجتمع الإسلامي .

وكان أول تغيير في حياة المسلمين الاجتماعية أن ترك المسلمون العرب العصبية القومية التي كانت تسيطر على عواطفهم وسياساتهم منذ عهد الأمويين وتبدلوا بها الشعور الإسلامي ، وكذلك فقد كان العرب دائماً هم الطبقة الحاكمة ، فجنى عليهم الترف وقام الأتراك والأكراد بالعبء الأكبر في القتال أثناء الحروب الصليبية (١) .

لم تكن العلاقات بين المسلمين والفرنج دائماً هي علاقات حرب وعداء ، فقد كانت تقوم بينهم الزيارات في أيام الهدنة وتجري المناظرات بين رجال الدين من الصليبيين والمسلمين ، كل يفضل دينه ويقيم البرهان على حجته ، فقد كان صاحب حصن أرنون - يعرف العربية - يتردد على صلاح الدين الأيوبي ويناظر المسلمين في صحة دينه ويناظرونه في بطلانه (٢) .

وعند الفرنج في بلاد الإسلام إلى تشجيع الرذيلة ودور اللهو ، كأحد الأساليب التي تهدف إلى تحطيم الإنسان المسلم أخلاقياً ، مما سهل عليهم تحقيق أهدافهم في القضاء على الإسلام ، ومن أساليبهم في هذا المجال تشجيع فتياتهم على الخروج إلى أرض المعركة للترفيه عن المقاتلين حتى أنه في إحدى المعارك قدمت ثلاثمائة فتاة للمشاركة في الترفيه عن

١/ تاريخ الأدب العربي : عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٧٩م ، ٣/ ٣٥٢ ، والأدب في العصر الأيوبي ، ص ٥٠ ، والحروب الصليبية : من خلال كتابات جاك دي فيتري : خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي : عبد اللطيف عبد الهادي السيد ، المكتب الجامعي الحديث ، ٢٠٠٦م ، ص ١٠٩ .

٢/ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام : أحمد أحمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ومطبعها ، الطبعة الأولى ، د. ت. ص ٢١ .

المقاتلين وادخال السرور على نفوسهم (١)

وفي المقابل على عكس هذا الجانب اشتداد حركة التصوف في المجتمع الإسلامي كردة فعل على السقوط الاخلاقي فانتشرت الطرق الصوفية في مصر والشام ، وجاور كثير من الناس مكة والمدينة وبيت المقدس هربا من ملاهي الحياة وفي نفس الوقت للابتعاد عن تكاليف الجهاد وبذل النفس والمال في سبيل الله (٢) ، فقد كان ظنهم أن العبادة تغنيهم عن الجهاد في سبيل الله وقتال الأعداء .

وقد كان لانتشار الرقيق ودور اللهو في بلاد الإسلام إبان الحروب الصليبية أثر كبير على الشعر ، فكثر الموضوعات المأجنة ، وافحش الشعراء في التغزل بالنساء وذكر أوصافهن ، وقد شاع في المجتمع الإسلامي غزل المذكر والمؤنث نتيجة العكوف على لذة النساء واللذات الجسدية لقلة ما كان يشغل مثل هذا المجتمع من مشاغل سياسية ، فلم يجد الناس شغلا يملأون به هذا الفراغ سوى الخلوة بالنساء والغلمان (٣) وهذا ما يفسر ظاهرة التغزل بالغلمان التي انتشرت في هذه الفترة .

وليس معنى هذا أن المجتمع الإسلامي كان يموج في بحر من الرذيلة والفساد ، بل الأصح من هذا التفسير أن المجتمع الإسلامي قد تأثر ببعض المؤثرات الصليبية في العادات والأخلاق ، ولم يقف علماء الإسلام مكتوفي الأيدي أمام هذه المحنة فهذا ابن القيم رحمه الله يضع كتابه (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) يعالج فيه ظاهرة التحلل الأخلاقي في عصره (٤) . وفي الوقت نفسه قام حكام المسلمين بدورهم كاملا بمحاربة هذا الاتجاه الشاذ ، وكان لنور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ووزرائهم الدور الأكبر في هذا المجال ، فأمرُوا بإغلاق الحانات وفرضوا عقابا صارما على أصحابها وعلى شاربي الخمر ومرتكبي الرذيلة إن وجود هذه الظاهرة الاجتماعية الفاسدة في المجتمع الاسلامي يعكس

١/ الفتح القدسي في الفتح المقدسي : العماد الكاتب ، ص ١٧١

٢/ الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي : محمد سيد كيلاني ، ص ٣٥

٣/ الأدب في العصر الأيوبي : محمد زغلول سلام ، طبع ونشر دار المعارف ، مصر ١٩٦١م ، ص ٢٣٩

٤/ الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ، ص ٤٠ .

بصورة واضحة الأثر المترتبة على السياسة الاستعمارية الصليبية وهدفها في تدمير الأمة الإسلامية سياسيا وعسكريا ، ولكن الإسلام بما يحمله من قوة دفع حضارية وأخلاقية قادر على كسر هذه السياسة وأهدافها.

هذه لمحة سريعة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في القرن السادس الهجري ، وجدنا أنه من الفائدة للقارئ أن يلم ببعض الخطوط العامة التي تساعده في فهم أدب تلك الفترة وما دخله من مؤثرات انعكست على بعض الشعراء الذين انخرطوا في هذا التيار الذي لا يحمل تأصيلا لحالة الأدب بشكل عام ، بل نستطيع أن نؤكد أن هذا التيار حالة استثنائية فرضتها الظروف الموضوعية المحيطة بالحياة الأدبية .

المبحث الثالث الحياة العلمية والفكرية

أولاً : الحياة العلمية

شهد الشرق الإسلامي في فترة الحروب الصليبية ازدهارا واسعا في العلم والأدب بحيث كان ذلك العصر بحق عصر إحياء للفكر والثقافة العربية ، و ثراء المكتبة العربية في ذلك العصر دليل قاطع على وجود حركة علمية ناشطة وثقافة ممتازة تنوعت فروعها ، وحمل لواءها أعلام نابغون في مختلف العلوم . (١)

وقد اعتمدت حركة البعث العلمي في ذلك العصر على التراث الإسلامي الزاخر ، وكان الدافع القوي لها حماس الزنكيين والأيوبيين والمماليك لإحياء شعائر أهل السنة ، فزاد اهتمامهم بالقرآن الكريم والحديث الشريف وعلومهما . (٢)

وساعد على انتشار هذه الحركة العلمية ، انتشار دور العلم ، فأنشئت المدارس والمساجد في مختلف أرجاء البلاد الإسلامية وتسابق السلاطين والملوك والأمراء والوزراء في تأسيسها ، فأنشأ الوزير نظام الملك السلجوقي كثيرا من المدارس في بغداد والبصرة والموصل ونيسابور وفي غيرها ، وسميت كثير من هذه المدارس بالنظامية نسبة إليه . وكذلك أنشأ كثيرا من المساجد لتعليم أبناء المسلمين القرآن الكريم وعلومه والحديث النبوي والعلوم العربية . وأنشأ سيف الدين غازي المدرسة الأتابكية بالموصل كما أنشأ نور الدين محمود المدرسة النورية في جامعته بالموصل ، وبنى مدرسة في دمشق لأصحاب أبي حنيفة ، وتوسع صلاح الدين الأيوبي في إنشاء المدارس فبنى المدرسة الناصرية للشافعية والمدرسة القمحية للمالكية والمدرسة السيوفية للحنفية ، وبنى السلطان الصالح نجم الدين بن أيوب المدرسة الصالحية التي كانت تجمع بين مذاهب السنة الأربعة (٣)

. وأسس الملك العادل أبو بكر بن أيوب كثيرا من المدارس أهمها المدرسة

١/ الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام : أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر - القاهرة ، د. ت . ، ص ٤ .

٢/ الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين ، ١/ ٧١ .

العادلية الكبرى والعادلية الصغرى . (١)

لم يقتصر دور السلاطين والأمراء والوزراء على بناء المدارس والمساجد ، وجلب العلماء والأساتذة لها وتشجيع العلم والعلماء ، بل كان بعضهم علماء بأنفسهم ، وبعضهم الآخر شغوفاً بالعلم والدرس ، يحب الإستماع للعلماء والجلوس في حلقات الدرس ، فقد كان الخلفاء العباسيون ووزرائهم يقربون العلماء ويشجعونهم وكان الوزير ابن هبيرة (٢) عالماً فاضلاً مكرماً لأهل العلم ، له عدة مؤلفات منها : الإيضاح في شرح الأحاديث الصحاح . وقد عرف نور الدين محمود بشغفه بالعلم وحبّه للعلماء والفقهاء وأهل الحديث ، وكان مجلسه يضم عدداً كبيراً منهم ، وعند ما وفد عليه الفقيه قطب الدين النيسابوري (٣) سُرب به وبني له مدرسة لتدريس المذهب الشافعي ، واستدعى من سنجار شرف الدين بن عصرون (٤) وبني له المدارس بحلب وحمص وحماة وبلبك ، واقتدى صلاح الدين الأيوبي بنور الدين في تشجيع العلم والعلماء ، وكان يحسن السماع والمشاركة (٥) وكان يحفظ القرآن الكريم ويروي الحديث ويسمعه ، وسمعه من الحافظ السلفي (٦) عالم الإسكندرية .

وجمع بلاط صلاح الدين الأيوبي مجموعة من العلماء والفقهاء والأدباء ،

١/ الشعر الشامي ، ص ٧٤

٢/ هو المظفر يحيى محمد بن هبيرة ، تفقه على مذهب ابن حنبل ، وسمع الحديث ، وقرأ القرآن برواياته المختلفة ، وله كتب في الحديث والنحو واللغة والمنطق والعبادات ، وزر للمقتفي حتى وفاته سنة ٥٥٥ هـ ، ثم للمستجد حتى سنة ٥٦٠ هـ (الروضتين ، ١/ ٢٢٣ ، ووفيات الأعيان وأنباء الزمان : ابن خلكان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت - لبنان ، د.ت. ١٩١/٥)

٣/ هو مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري ، فقيه شافعي ، تعلم في نيسابور ، ومرو ، دخل دمشق سنة ٥٤٠ هـ واستقر بها ، واتصل بصلاح الدين الأيوبي ، ولد سنة ٥٠٥ هـ وتوفي سنة ٥٧٨ هـ . (شذرات الذهب في أخبار من ذهب : العماد الحنبلي ، منشورات دار الأفاق الجديدة - بيروت ، د.ت. ١٥٧/٦)

٤/ هو مفتي الشام والعراق ، شمس الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون ، ولد بالموصل سنة ٤٩٢ هـ ، وتولى القضاء بدمشق وجميع المملكة الناصرية بعد وفاة الشهرزوري ، (الشعر الشامي ، ١/ ٧١)

٥/ طبقات الشافعية الكبرى : ابن السبكي ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية ، د.ت. ٣٣٢/٤ .

٦/ هو أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة ، الحافظ الكبير المعمر ، أبو الطاهر السلفي الأصبهاني ، رحل في طلب الحديث وطاف الأفاف ، وتفقه ، وأتقن مذهب الإمام الشافعي ، توفي بالإسكندرية سنة ٥٧١ هـ . (البداية والنهاية : ابن كثير ، مكتبة المعارف بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٧ م ، ١٢/ ٣٠٧)

فكان من خلائه القاضي الفاضل (١) وكتب له عماد الدين الأصنهاني ، وابن شداد (٢) الذي جمع سيرته في كتاب النوادر السلطانية ، والشاعر أسامة بن منقذ (٣) .

وكانت هذه المدارس تستقبل الوافدين عليها من كافة الأنحاء ، وتمهد لهم سبل الحياة وتمدهم بأسباب العيش ، وتهيئ لهم وسائل الإقامة ، وبجانب هذه المدارس فقد كانت المساجد تمثل معلما ثقافيا مهما ، وانتشرت في مختلف البلاد الإسلامية وكانت تعقد فيها حلقات التعليم ، وبها تبنى الزوايا لتثقيف الطلاب ، ومن أشهر هذه المساجد مسجد عمرو بن العاص والأزهر في مصر ، وجامع حلب في الشام ، والمسجد الأقصى بفلسطين . وبجانب المدارس والمساجد انتشرت في العهد الأيوبي الكتاتيب لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن ، فقد أنشأ صلاح الدين الأيوبي عددا منها لتعليم أبناء الفقراء والأيتام خاصة (٤).

ومن المظاهر الثقافية أيضا في هذا العصر انتشار المكتبات العامة والخاصة ، فقد خصص نور الدين محمود لمدرسته في دمشق كتبا كثيرة ، وأسس الأيوبيون كثيرا من هذه المكتبات في المدارس والمساجد ، كما انتشرت المكتبات الخاصة .

فقد تنوعت ألوان الثقافة في دور العلم هذه ، ونبغ فيها أعلام أفذاذ ، ألفوا من الكتب ما تفخر به المكتبة العربية ، ولا تزال هذه الكتب تعد مراجع إلى وقتنا هذا .

وحسبنا أن نشير إشارة سريعة إلى مجالات العلوم المختلفة ، ونذكر الأعلام الذين نبغوا فيها : -

١/ هو أبو علي عبد الرحيم بن علي بن محمد اللخمي العسقلاني البيساني ، ولد في عسقلان سنة ٥٢٩ هـ ، وكان كاتباً لديوان الإنشاء في عهد الفاطميين ، وأصبح رئيساً لديوان الإنشاء في عهد صلاح الدين الأيوبي ، وكان شاعرا ، توفي سنة ٥٩٦ هـ (تاريخ الأدب العربي : عمر فروخ ، ٣/ ٤١١) .

٢/ هو بهاء الدين أبو العز يوسف بن رافع بن تميم (٥٣٩ - ٦٣٢ هـ) ولد بالموصل وبرع في قراءات القرآن الكريم وتفسيره ، وفي الحديث والفقه ، وكان ثقة فيها ، عمل مدرسا في المدرسة النظامية ببغداد ، ثم في مدرسة الموصل ، عينه صلاح الدين الأيوبي قاضيا في عسكره وقاضيا في بيت المقدس ، وله تصانيف عدة منها : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، وسيرة الملك الظاهر بيبس . (وفيات الأعيان ، ٣/ ٤٢٨) . وتاريخ الأدب العربي : جرجي زيدان ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان ، ١٩٩٢ م ، ٢/ ٦٧) .

٣/ هو أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، الكناني ، الكلبي ، الشيزري ، من أكابر بني منقذ ، ولد في شيزر ، وهو فارس ، وبطل ، وشاعر ، ومؤلف قدير ، إشتهر في الحروب ضد الصليبيين مع نور الدين وصلاح الدين ، ومن مؤلفاته كتاب الاعتبار ، والمنازل والديار ، واللباب . (وفيات الأعيان ، ١/ ٢٠٢ ، وتاريخ الأدب العربي : عمر فروخ ، ٣/ ٣٩٣) .

٤/ مصر في العصور الوسطى ، ص ٣٩٥ .

ففي علم القراءات : يطالعنا الشاطبي ، وعلم الدين السخاوي ، وفي علم الحديث برز ابن عساكر ، والنووي ، وابن الصلاح ، وأبو طاهر السلفي ، والمنذري (١) . وفي الفقه : نجد الشهرزوري ، وعزالدين عبد السلام ، والقرافي . وفي مجال اللغة : نبغ أبو البركات بن الأنباري ، والزمخشري ، وابن الشجري . وفي النحو برز ملك النحاة الحسن بن صافي ، والزواوي ، وابن الحاجب ، وابن مالك . وفي البلاغة : برز ضياء الدين بن الأثير . وفي التاريخ : نجد ابن الجوزي ، وابن عساكر ، وابن العديم وعبد الطيف البغدادي ، وابن خلكان ، وابن الأنباري ، وياقوت الحموي وعماد الدين الأصبهاني ، وشهاب الدين المقدسي . وفي الجغرافيا : برز ياقوت الحموي . وفي مجال الطب : برز ابن ميمون طبيب صلاح الدين الأيوبي (٢) والموفق بن المطران ، والجواني (٣) ، وغيرهم من العلماء في مختلف العلوم والمجالات .

ثانيا : الحياة الأدبية

لقد عرف الأدب في القرنين السادس والسابع الهجريين بأدب الحروب الصليبية لأنه ارتبط ببداية هذه الحروب على الشرق الإسلامي ، والأدب في هذا العصر ينتمي تاريخيا إلى أدب العصر العباسي الثاني ، وينتمي سياسيا واجتماعيا وثقافيا إلى أدب الدول المتتابعة . فقد بعثت الحروب الصليبية في الأدب الحياة وجددت فيه القوة فأذكت حواس الشعراء ، وألهبت مشاعرهم ، وأججت انفعالاتهم ، وأمدتهم بالمعين الصادق من المعاني والأفكار (٤) ، فكان جديرا أن تقوم بهذا العصر نهضة أدبية قوية ، يكثر فيها الانتاج الأدبي ويتنوع ، لأن الأحداث العنيفة الجارية فيه ، تثير العواطف وتدفع الى القول وإجادته (٥) . فقد نهض الأدب في هذا العصر نهضة كبيرة ، وكان للتشجيع الذي لقيه الأدباء من الملوك والأمراء أثر كبير في هذه النهضة ، كما كان لبعض الحكام ميل فطري للشعروقرضه، فكان الوزير ابن زريك شاعرا وله ديوان ، وأشتهر

١/ الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية : أحمد أحمد بدوي ، ص ٢٧ .

٢/ الأدب في العصر الأيوبي ، ص ٩٥ .

٣/ أيام صلاح الدين : عبد العزيز سيد الأهل ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، الكتاب العاشر ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٨٤ م ، ص ١٢٨ .

٤/ ابن سناء الملك : حياته وشعره ، ص ٣١ .

٥/ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، ص ٢٣ .

نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي بميلهما إلى الشعر وتقريبهما للشعراء . وكان الأفضل بن صلاح الدين شاعرا (١) . ومن أشهر شعراء بني أيوب الأجدد بهرام شاه (٢)

فقد إتخذ نور الدين وصلاح الدين من الشعراء دعاية يثبتون بها قواعد ملكهم — كما كان يفعل الفاطميون — فالشعري يبعث في نفوس رعيته حبهم ، والولاء لهم ، كما وجدوا في شعر الجهاد موقدا للحمية في نفوس المسلمين ، وباعثا لهم على الاستماتة في استرداد بلادهم المغتصبة (٣) .

العناية بدراسة الأدب :

لم تقتصر النهضة الأدبية في هذا العصر على إهتمام الملوك والأمراء والحكام ، بل شارك فيها الأدباء ، فاهتموا بدراسة الأدب وموضوعاته وأغراضه ، فعني بعضهم بجمع النصوص الأدبية التي ترمي إلى التهذيب الخلقي أو إلى تقويم اللسان وتهذيب البيان من التراث الشعري القديم ، كما عني بعضهم بجمع ما تفرق من شعر الشاعرين في ديوان . وعكف بعضهم على دراسة ونقد ما ورثوه من أدب ، فكثرت الشروح والحواشي وكان لديوان المتنبي القدر المعلى في هذه الدراسة ، ورأى بعضهم أن يذلل صعب ما انتهى اليهم من كتب الأقدمين فاختصروها ، وقد وجد كتاب الأغاني الحظ الأوفى من هذه الدراسة ، فمن مختصراته : تجريد الأغاني من ذكر المثالب والمثاني : لابن واصل الحموي ، ومختار الأغاني في الأخبار والتهاني : لجمال الدين بن مكرم . وقام محمد بن مكرم صاحب لسان العرب باختصار كتاب العقد الفريد لابن عبدربه ، وزهر الأديب للحصري ويتيمة الدهر للثعالبي ، كما اختصر ابن سناء الملك كتاب الحيوان للجاحظ وسمى مختصره روح الحيوان (٤) .

أما في مجال النقد فقد اتجه النقاد إلى نقد الآثار القديمة كما فعل مهذب الدين الخيمي في كتاب رد به على المعري في مواضع سها فيها ، والكمال بن العديم في كتابه (رفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري)

١ / الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، ص ٢٣ .

٢ / النجوم الزاهرة ، ٦ / ٢٧٦

٣ / المصدر نفسه ص ٣٩

٤ / الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، ص ٥١ .

كما إتجه بعضهم الى التأليف في النقد وأصوله ، فألف الأسعد بن مماتي كتاب (ميسور النقد) ، ومن أشهر النقاد أبو عبد الله محمد بن يوسف الكفرطابي (ت ٥٠٣ هـ) (١) .

فقد كان للحروب الصليبية أثرها الواضح في مجالات الأدب وموضوعاته ، ففي مجال الشعر نلاحظ أن الشعراء اتخذوا من هذه الحروب موضوعا لهم ونقلوا لنا صورة واضحة عن الوقائع والأحداث ، فتغنوا فرحين بالنصر ومهينين به ومشيدين بالبطولة والأبطال ، كما سجل شعرهم البكاء على المدن والحصون ورثاء القادة والأبطال ، وغلب على شعرهم الطابع الحماسي .

أما الفنون النثرية فقد تعددت وتنوعت ألوانها بين رسائل سلطانية تهتم بشئون الدولة ورسائل إخوانية . كما وجد الأدب الخلقي السياسي الذي يهدف الى الإصلاح الخلقي والتوجيه السياسي بجانب الأدب التاريخي والأدب التأليفي والأدب الشعبي .

وقد تقلد الشعراء في هذا العصر مذهب الشعراء العباسيين في أساليبهم وطرق تعبيرهم وبلغوا في ذلك حظا كبيرا حتى صاروا يضاهون بهم في بعض قصائدهم . وقد شاع في شعر هذا العصر الزخرف والزينة التي كانت تضعف شعر بعضهم في تكلف ممقوت ثقيل (٢) .

وقد برزت بعض الاتجاهات السلبية في الحياة الفكرية ، والتي كان من شأنها أن تقلل من بهاء تلك الصورة الأدبية ورونقها ، ومن تلك الاتجاهات شيوع التنجيم والشعبذة بأنواعها ، وادعاء بعض الناس بمعرفتهم بالغيب والتنبؤ بالمستقبل ، كما دفعت العاطفية الدينية الأيوبيين إلى محاربة الآراء الفلسفية فكان صلاح الدين الأيوبي مبغضا لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ، ولما بلغه عن السهروردي (٣) ما بلغه أمر ابنه الملك الظاهر بقتله (٤) . فترك المسلمون الاشتغال بالفلسفة واختفى التفكير الحر وأصيبت العقول

١/ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، ص ٥٠ .

٢/ المرجع نفسه ، ص ٥٦ .

٣/ هو شهاب الدين أبو الفتوح يحيى بنى حبش بن أميرك ، المعروف بالشيخ الحكيم المقتول ، ولد سنة ٥٥٠ هـ ، وكان أول أمره فقيها شافعيًا وأصوليًا ، وكان ملما بعلوم الأوائل خصوصا الفلسفة والكيمياء ، إتخذ مذهبيا صوفيا متطرفا ، فثار عليه العلماء وشكوه للملك الظاهر بن صلاح الدين فأمر صلاح الدين بقتله ، فقتل في قلعة حلب سنة ٥٧٨ هـ (وفيات الأعيان ٢٢٥/٥) .

٤/ النجوم الزاهرة ، ٩/٦ .

بالجمود (١) . ومن تلك الإتجاهات السلبية أيضا الخلافات المذهبية التي كانت تقوم بين أهل السنة والشيعة ، أو بين أهل السنة والأشعرية والمعتزلة أو بين الفقهاء على اختلاف مذاهبهم والفلاسفة (٢) .

١ / الحروب الصليبية وأثرها في الأدب ، ص ٤٧
٢ / الأدب في العصر الأيوبي : ص ٦٥ .

الفصل الثاني

حياة الشاعر

المبحث الأول : اسمه ولقبه وكنيته

ميلاده ونسبه

أسرته

تعليمه

المبحث الثاني : مقامه في كنف الخلافة العباسية

مقامه في الدولة النورية

مقامه في الدولة الصلاحية الأيوبية

شيوخه

تلاميذه

العماد بعد وفاة مؤسس الدولة الأيوبية

وفاته

المبحث الثالث : صفته

ثقافته

كتبه وآثاره

المبحث الأول

اسمه ولقبه وكنيته

هو أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله بن ألكه (١) ..

وتتفق معظم المصادر التي ذكرت شاعرنا أن ألكه هو أبو هبة الله ، إلا ابن خلكان (٢) فقد جعله لقبا للعماد نفسه فقال في تعريف العماد : (.. المعروف ب: أله الملقب بالعماد) وجعله السبكي لقبا لأبيه فقال : (.. المعروف بابن أله العماد الكاتب) (٣). وأله (بفتح الهمزة وضم اللام وسكون الهاء) أو إشماء الهمزة الضم وتشديد اللام المضمومة حيناً آخر) اسم أعجمي معناه بالعربية العقاب (٤) .

لقبه : عماد الدين ، المعروف بالعماد الكاتب ، والمشهور بالعماد الأصهباني (٥)، والمعروف أيضا بابن أخي العزيز (٦) .

١/ وفیات الأعيان : ١٤٧/٥ ، والتكملة لوفيات النقلة : المنذري ، تحقيق د. بشار عواد ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م ، ٣٩٢/١ ، ومراة الجنان وعبرة اليقظان : اليافعي ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م ، ص ٤٩٢ ، وسير أعلام النبلاء : الذهبي ، تحقيق د. بشار عواد ومحي الدين هلال ، مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، ص ٣٤٥ ، والوافي بالوفيات : الصفي ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م ، ١/١١٩ ، ومعجم الأدباء : ياقوت الحموي ، تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م ، ٦/ ٢٦٢٣ ، والعبر في خبر من غير : الذهبي ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، د.ت. ١١٧/٣ .

٢/ وفیات الأعيان ، ١٤٧/٥

٣/ طبقات الشافعية الكبرى ، ٩٧٤/٤

٤/ وفیات الأعيان ، ١٤٧/٥ ، والبداية والنهاية : ابن كثير ، مكتبة المعارف بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٧ م ، ٣٠/١٣ ن خريدة القصر وجريدة العصر : العماد الأصهباني : قسم العراق ، تحقيق محمد بهجت الأثري وجميل سعيد مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م ، ٩/١ .

٥/ نسبة الى أصبهان (بفتح الهمزة وكسر ها) وهي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ، وأصبهان اسم للإقليم بأسره كانت عاصمتها (جبا) ثم صارت اليهودية ، فتحها العرب في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب (معجم البلدان : ياقوت الحموي ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، ٢٠٦/١) .

٦/ أبو نصر أحمد بن حامد الملقب بعزيز الدولة المستوفي (٤٧٢ - ٥٢٦ هـ) ، وهو صاحب تكريت ، وكان مقدما في العهد السلجوقي وولي المناصب العليا في الدولة السلجوقية ، قبض عليه السلطان محمود بن ملكشاه وصادر أمواله وحبسه بقلعة تكريت وقتل بها . (وفیات الأعيان ، ١/١٨٨) .

كنيته:

أبو عبد الله (١) ، وكناه على بن ظافر في كتابه بدائع البداية بابي حامد مرة وأبي محمد في موضع وأبي جعفر في موضع آخر ، وكناه ابن كثير بابي حامد (٢).

ميلاده ونسبه :

ولد بأصبهان يوم الاثنين ثاني جمادي الآخرة سنة تسع عشرة وخمسائة للهجرة (٣) . وإضافته إلى أصبهان تدل على أنه فارسي الأصل ، وجميع من ترجموا لرجال بيته نصوا على أصبهانيته ، إلا أن ابن الفوطي شذ عن هؤلاء المترجمين جميعا ، فنص على تعيين أصله العربي القرشي فنسبه إلى قریش ثم إلى أصبهان ، وعلل ذلك إلى أن كثيرا من الأسر العربية قد هاجرت إلى بلاد فارس أيام الفتوحات الإسلامية واستوطنت بها ، وتبعه في هذا محمد بهجت الأثري (٤) .

أسرته :

إن المصادر القديمة لا تمدنا بمعلومات كثيرة عن أسرته وقبيلته وإنما تحدثت عن بيته ، فقد كان من بيوت الرئاسة والسؤدد ، وتقلد أصحابه المناصب العليا في الدولة السلجوقية ، ومن خصائص رجال هذا البيت التثقف بالثقافتين الفارسية والعربية ، والعناية بالأدب العربية ، وبرواية الشعر وقرضه فقد كان جد العماد أبي الرجاء حامد بن محمد شديد التوفر على حفظ الشعر العربي ، فقد حفظ شعر البحتري وبعض الدواوين المشهورة . وقد كان يقرض الشعر الجيد ومن ذلك قوله : (٥)

١/ شذرات الذهب ، ٣٣٢ / ٤ ، والنجوم الزاهرة ، ١٧٨ / ٦ .
٢/ الخريدة القسم العراقي ، ٩ / ١ .
٣/ شذرات الذهب ، ٣٣٢ / ٤ ، والنجوم الزاهرة ، ١٧٨ / ٦ .
٤/ الخريدة القسم العراقي ، ١٠ / ١ .
٥/ المصدر نفسه ، ١١ / ١ .

ولاح الشيبُ وافتضح الشبابُ
فكيف تخبني الخُود الكعابُ

تولى الجهلُ وانقطع العتابُ
لقد أبغضتُ نفسي في مشيبي

وكان عمه العزيز أحمد بن حامد المستوفي ، شاعرا فصيحاً ووزيراً خطيراً ، ومن شعره ما كتب به الى بعض أصدقائه منه : (١)

فأسأنا بحسن عهدك ظنا
فإذا أنت ذلك الممتنى
لا تقل للرسول : كان وكنا

يا أبا الفضل لما تأخرت عنا
كم تمنيت لي صديقاً صدوقاً
كن جوابي إذا قرأت كتابي

وكان العزيز ذو مكانة عالية ، ذائع الشهرة بحيث أضيف العماد إليه ، فدعي بإبن أخي العزيز وإن لم يكن أبوه مغموراً .
وعندما اضطربت الأحوال في الدولة السلجوقية ، تعرض رجال هذا البيت إلى الإعتقال والمصادرة والقتل ، فقد قبض السلطان محمود على العزيز عم العماد بهمذان مرة وصادره وأعتقله فيها ، ثم قبض عليه ثانية بالعراق فحبسه في قلعة تكريت وقتله في الحبس ، وقد كان الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي وأخوه أسد الدين شيركوه متوليي أمر القلعة فدافعا عنه ، فما أجدى دفاعهما عنه . وكذلك تعرض عمه ضياء الدين ووالده صفي الدين للمصادرة والاعتقال بأصبهان ، ووجد والده بعد إطلاقه من حبسه مضايقة من قبل رجال الدولة ، فخرج بأهله إلى العراق ، وقدم بغداد سنة ٥٣٤ هـ ، طلبا للأمن والسلامة في ظل الخليفة المقتفي .
وفي ظل الخلافة العباسية نبغ ابنه العماد ، وناب عن الوزير ابن هبيرة بواسط والبصرة ، وكبرت منزلة ابنه الآخر تاج الدين الذي أنتدب للسفارة عن قصر الخلافة إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد فتحه القدس .
أما أم العماد فهي بنت أمين الدولة علي المستوفي ، من رجال الدولة السلجوقية ، كتب في ريعان شبابه لشرف الملك أبي سعد محمد بن منصور الخوارزمي مستوفي المملكة ، ثم صار كاتباً لخزانة السلطان محمد ابن ملكشاه السلجوقي ، وقد أدركه العماد وهو شيخ كبير (٢) .

١ / الخريدة القسم العراقي ، ١٢ / ١

٢ / المصدر نفسه ١٣ / ١ .

أما أسرة العماد فلا نعرف عنها شيئاً ، وقد ذكر ابن شداد أن ولده عز الدين قد تولى التدريس بعده في مدرسته العمادية بدمشق ، كما ذكر أن له ابناً آخر عُد من أعيان الدمشقيين فأضافوه إلى أبيه وقالوا ابن العماد الكاتب ولم يزدوا ، ولم يعرف هل هو عز الدين هذا أم غيره ، غير أن بهجت الأثري يرجح على أن له ابناً آخر غير عز الدين هذا، وكان ابن العماد هذا معدوداً من خواص الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل (١) . واشتهر من ذريته في القرن الثامن الهجري الشيخ شرف الدين بن الحسين بن علي بن محمد بن العماد الكاتب ووصف بـ (الشيخ الإمام ، العالم الأصيل ، الأصبهاني الأصل الدمشقي ، ولد في المحرم سنة ٦٥٧ هـ ، ودرّس بالعمادية بدمشق ، وتوفي سنة ٧٣٩ هـ . (٢))

تعليمه:

نشأ العماد في مدينة أصفهان ، وتلقى تعليمه في بيئتين مختلفتين لكل منهما طابع خاص يميزها عن الأخرى .

بيئته الأولى :

حيث كان مولده ومنشأه بمدينة أصفهان ، وهي بيئة فارسية خالصة ، حيث خالط فيها الطوائف العجمية ، ونال ثقافته الأولى ، وأتقن اللغة الفارسية ، وتعلم اللغة العربية — من العلماء العرب الذين وفدوا عليها من بغداد للإقامة فيها أو للرحلة والطواف — على ابن الأخوة الشيباني البغدادي (٣) ، نزيل أصفهان وسمع الحديث من أبي عبد الله الفراوي النيسابوري (٤) ، ومن أبي القاسم بن الحصين (٥) وهو في السادسة من عمره أو دونها .

١/ الخريدة قسم العراق ، ٥٣/١ .

٢/ المصدر نفسه ، ٥٤/١ .

٣/ أبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد بن محمد الشيباني البغدادي ، أقام ببغداد أربعين سنة ، قال العماد : (حضرت للإستفادة منه بأصفهان ، وانتظمت في سلك المستفيدين من غرر أشعاره المتحليين بدرر بنات أفكاره) (الخريدة قسم العراق ، ١/ ٢٢) .

٤/ محمد بن الفضل بن أحمد الفراوي النيسابوري ، كان شافعيًا ، مفتيًا ، منظرًا ، سمع منه خلق كثير ، وأملى على أكثر من ألف مجلس وكان يقال : (الفراوي ألف راوي) (البداية والنهاية ١٢ / ٢١١) .

٥/ هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن حصين الشيباني البغدادي ، الكاتب الأزرق ، مسند العراق ، سمع على جماعة من عليّة المشايخ ، ورحل إليه الطلبة ، وازدحموا عليه ، وكان ديناً ثقة صحيح السماع . (البداية والنهاية ، ١٢ / ٢٠٣ ، وشذرات الذهب ، ٤ / ٧٧) .

بيئته الثانية :

وهي بيئة عربية ، كانت بين العراق والشام ومصر ، حيث انتقل به والده إلى بغداد سنة ٥٣٤ هـ أيام خلافة المقتفى لأمر الله ، وهو لا يزال في الخامسة عشرة من عمره . فانتظم في سلك المدرسة النظامية ببغداد ، وانتسب للمدرسة الثقنية ، وثقف النحو ، واللغة والأدب ، وسمع الحديث ، ووعى الفقه والخلاف والاصول ، ودرس العلم الرياضي واشتغل بحل اقليدس (١) .

وقد كان العماد شديد النشاط ، عظيم التوفر على التحصيل ، فقد كان يختلف إلى حلقات العلم والمناظرات ، ومجالس الوعظ ، فيتتبعها ليفيد منها العلم والرأي ومناهج الجدل بين العلماء ويقتبس منها أساليب الإلقاء والأداء (٢) .

وفي سنة ٥٤٣ هـ عاد إلى أصبهان مع والده فتفقه بها على محمد بن عبد اللطيف الخجندي (٣) . وأبي المعالي الوركاني (٤) ، وخرج منها حاجا سنة ٥٤٨ هـ ثم عاد إليها .

١/ الوافي بالوفيات ، ١/ ١١٩ ، ، والخريدة القسم العراقي ، ١/ ١٧

٢/ الخريدة القسم العراقي ، ١/ ١٧ .

٣/ أبو بكر محمد بن عبد اللطيف بن ثابت الخجندي المهلبى ، من أهل أصبهان ، وكان إماما فاضلا مناظرا ، شافعيًا ، ولي تدريس المدرسة النظامية ووعظ بجامع القصر . (البداية والنهاية ، ١٢/ ٢٣٧ ، وشذرات الذهب ، ٤/ ١٦٣) .

٤/ الحسن بن محمد بن الحسن ، الفقيه الشافعي ، مدرس المدرسة النظامية بأصبهان ، كان إماما فاضلا ، مناظرا ، اصوليا ، عارفا بالأدب ، وله طريقة في الخلاف . (شذرات الذهب ، ٤/ ١٧٨) .

المبحث الثاني

مقامه في كنف الخلافة العباسية

عاد العماد إلى بغداد ثانية مع أبيه سنة ٥٥١ هـ وأنصرف إلى الأدب إنصرافاً تاماً ، فبرع في الشعر والنثر معاً ، ثم بدأ يمارس الكتابة والنظم ففاق الأقران وحاز قصب السبق (١) . واشتغل بصناعة الكتابة ونبغ فيها (٢) ، وتقرّب إلى الخليفة المقتفي لأمر الله ومدحه بقصيدة سنة ٥٥٢ هـ حيث قال : (وكان وصولي إلى بغداد في الأيام المقتفية .. وأول من مدحته من الخلفاء المقتفي رضي الله عنه * .. بقصيدة أولها) : (٣)

أضحتْ تُغورُ النصرُ تبسمُ بالظفر
وَعُدْتُ خيولُ النصرِ واضحةً
الغُرُرُ

يا ابن السراة ذوي العُلَى من هاشمٍ
أنتَ ابنُ عمِ المصطفى وَسميهِ
والأكرمينَ أولي المناقب من مضرٍ
أبشُرْ، فإنَّك بعْدَه خيرُ البشرِ

ولفتت مواهب العماد الأدبية إنتباه الوزير عون الدين بن هبيرة ، فولاه النظر بواسط والبصرة ، ولم يمنعه كبر سنه وعلو مكانته عن مواصلة العلم والأدب فقد كان وهو نائب الوزير ابن هبيرة يقرأ شيئاً من كتاب المجل في اللغة لابن فارس على الأديب ابن الأحمر التميمي (٤) ، وسمع مقامات الحريري عن زين الإسلام بن الحريري، وقرأ على الحيص بيص (٥) ديوانه، وسمع جميع شعر القاضي أبي بكر الأرجاني (٦) عن ابنه ،

١/ شذرات الذهب ، ٤ / ٣٣٢

٢/ معجم الأدباء ، ١٩ / ١٢

* هو أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، ولد سنة ٤٨٩ هـ ببيع بالخلافة وعمره أربعون سنة ، قال الذهبي : كان المقتفي من سروات الخلفاء ، عالماً ، أدبياً ، شجاعاً ، حليماً . (تاريخ الخلفاء : للامام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م ، ص ٤٥٨)

٣/ ديوان عماد الدين الأصبهاني : جمعه وحققه د. ناظم رشيد ، مطبعة جامعة الموصل ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م ، ص ١٥١

٤/ أبو علي الحسين بن أبي منصور بن مقلد الأحمر التميمي ، وصفه العماد بأنه (غزير الأدب وقاد الفكر ، أديب ، أريب ، له رواية عالية بـ (مجمل اللغة) قرأت عليه بعضه .) (الخريدة ، ٣٠/١) .

٥/ أبو الفوارس سعد بن محمد الصيفي ، التميمي ، الشافعي ، شاعر ، ونثر ، ولغوي ، وفقه ، توفي ببغداد سنة ٥٧٤ هـ ، وله ديوان شعر مطبوع . (معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م ، ١ / ٧٥٧) .

٦/ أحمد بن محمد بن الحسين ، قاضي تستر وحامل لواء الشعر بالمشرق ، كان شاعراً وفقهياً وله ديوان شعر مشهور ، توفي سنة ٥٤٤ هـ . (شذرات الذهب ، ٤ / ٣٠٣)

وسمع شعر أبي المظفر الأبيوردي (١) على الأديب النطنزي . وأثبت أشعارهم جميعا في الخريدة .

وحينما توفي الوزير ابن هبيرة مسموما سنة ٥٦٠ هـ اعتقل العماد مع من أعتقل في الديوان ببغداد ، فأخذ يستعطف بشعره الخليفة المستنجد بالله ، وكتب إلى عماد الدين ابن رئيس الرؤساء أستاذ دار المستنجد بالله ليطلب الشفاعة له عند الخليفة ، يقول العماد : (٢)

قُلْ لِلْإِمَامِ عَلامَ حَبْسٍ وَلِيكُمْ
أُولُوا جَمِيلِكُمْ جَمِيلٌ وَلَإِنَّهُ
أُولَيْسَ إِذَا حَبَسَ الْغَمَامَ وَلِيهِ
خَلَى أَبْ وَكَ سَبِيلُهُ بُدْعَانَهُ

فأمر الخليفة باطلاقه .

مقامه في الدولة النورية :

لم تطب الإقامة للعماد بعد مقتل ابن هبيرة في بغداد ، فبقي فيها مدة في عيش منكذ وجفن مسهد (٣) ، فرحل منها إلى الشام في عهد الملك العادل نور الدين محمود ، فاستقبله بدمشق وزيره قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري (٤) ، وأنزله بالمدرسة النورية ، وعندما سمع نجم الدين الأيوبي والد صلاح الدين الأيوبي بوصوله بكر إلى منزله لتبجيله (وكان يعرفه من تكريت ، وعرف به ابنه صلاح الدين (٥)) ومدحه العماد بقصيدة طويلة منها : (٦)

١/ أبو المظفر محمد بن العباس أحمد بن محمد الأموي ، الشافعي ، كان إماما في اللغة والنحو والنسب ، مات مسموما بأصيبهان ، وله ديوان شعر مطبوع . (معجم المؤلفين ، ٤٧ / ٣)

٢/ وفيات الأعيان ، ١٥١ / ٥ ، والوافي بالوفيات ، ١٢٣ / ١

٣/ وفيات الأعيان ، ١٤٨ / ٥

٤/ محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، الفقيه الشافعي ، تولى قضاء الموصل أيام زنكي ، وقدم دمشق وتولى قضاءها سنة ٥٥٥ هـ وكان أدبيا وشاعرا ، توفي سنة ٥٧٢ هـ (وفيات الأعيان ٢٧٦ / ٤)

٥/ معجم الأدباء ، ١٩ / ١٤

٦/ الروضتين ، ٣٦٩ / ١

يَوْمَ النُّوَى لَيْسَ مِنْ عُمَرَى بِمَحْسُوبٍ
وَلَا الْفَرَّاقُ إِلَيَّ عِشْيَ بِمَنْسُوبٍ
مَا اخْتَرْتُ بُعْدَكَ لَكِنَ الزَّمَانَ أَتَى
كَرَهَا بِمَا لَيْسَ - يَا مَحْبُوبَ - بِمَحْبُوبِي

فشكره نجم الدين وأحسن إليه ، وقدمه على الأعيان وميزه .

وكان الشهرزوري يحضر مجالس العمد ، ويذاكره بمسائل الخلاف والفروع ، وكان كلاهما فقيها شافعيًا ، فقدمه للسلطان نور الدين ، وعرفه به ونوه بشأنه ، وعرض عليه قصيدة العمد التي مدحه بها : (١)

مُحَمَّدٌ يَحْمَدُ عِشَ بِلَدَةٍ مَالِكُهَا بَعْدَ لِهِ مَ حَمُودُهَا
مُؤَيِّدُ أُمُورِهِ بِعِزْمَةٍ مِنْ السَّمَوَاتِ الْعُلَى تَأْيِيدُهَا

فأكرمه السلطان نور الدين وعينه منشأ في ديوانه ، وكان يجيد الكتابة باللغتين الفارسية والعربية ، وعلت منزلته عند السلطان محمود حتى أصبح مستشاره وسفيره ، فبعثه إلى بغداد رسولاً في أيام المستجد بالله ، ثم فوض إليه التدريس بالمدرسة النورية التي نسبت إليه فيما بعد وسميت بالعمادية ، ثم عينه مشرفاً على ديوان الانشاء ، فجمع بذلك بين العمل الديواني والتعليمي .

لازم العمد نور الدين في سفره وحضره وشهد معاركه ضد الصليبيين فتغنى بانتصاراته وخلد جهاده وبطولاته نظماً ونثراً ، ولما توفي رثاه العمد أبلغ الرثاء وأحسن الوفاء له .

ولما تولى الحكم ابنه الملك الصالح إسماعيل - وكان صبياً - ضايق وزاؤه العمد وجرد من وظائفه ، وصار عرضة للاضطهاد ، فخرج من دمشق قاصداً بغداد ، ولكن المرض داهمه في الطريق فخرج على الموصل ومكث بها ثلاثة أشهر (٢) .

١/ الروضتين ١/ ٣٦٨ ، والديوان ، ص ١٤٤

٢/ الديوان ، ص ٧ .

مقامه في الدولة الصلاحية الأيوبية :

وما أن شفي العماد من مرضه بالموصل حتى بلغه نبأ خروج السلطان صلاح الدين الأيوبي من مصر قاصدا دمشق ، فُسّر العماد بذلك لسابق معرفته وقديم وده به ، فعاد راجعا إلى دمشق ، وحضر بين يدي السلطان صلاح الدين في حمص ومدحه بقصيدته : (١)

أجيرانَ جِـيرونَ مَالِي مُجِيرٌ سَوَى عَطْفُكُمْ ، فاعدلوا أو فجوروا
ومالي سَوَى طِيفُكُمْ زَائِرٌ فلا تمنعُوه إذا لم تَزُوروا

ولزم العماد بابه ينزل بنزوله ويرحل برحيله ، ويمدحه في كل وقت ، وتعرف على القاضي الفاضل كاتب ديوان الإنشاء ، فمدحه ، فأعجب من اقتدار العماد في الصناعتين (النظم والنثر) وحذقه للغة الفارسية ، فقرر تعيينه في ديوان الكتابة لينتفع من مواهبه ، فنوه بذكره عند السلطان صلاح الدين فقال له : (غدا يأتيك ملوك الأعاجم ، ولا تستغنى في الملك عن عقد الملطفات وحل التراجم ، والعماد يفي بذلك ولك اختاره وقد عرفت في الدولة النورية مقداره . .) (٢) . فاستكتبه صلاح الدين واعتمد عليه حتى صار من المشهورين ، فتقدم الأعيان ، وضاهى الوزراء (٣) وعاش العماد في خدمة صلاح الدين ملازما له في حله وترحاله وصحبه في جميع غزواته ضد الصليبيين ولم يتخلف سوى مرة واحدة اعتذر عنها (٤) . فتغنى بمناقبه وانتصارات جيوشه على الصليبيين ، وأنشد فيها أروع أناشيد الفخروالبطولة من وحي مشاهداته فكان لصلاح الدين ودولته الأيوبية كما كان لنور الدين ولدولته من قبل (٥) . وظل العماد وفيما لصلاح الدين ولدولته ، ولما توفي صلاح الدين رثاه العماد رثاء حارا .

١/ الروضتين ، ٦٢٧/١ ، والديوان ، ص ١٨٥ .

٢/ الخريدة قسم العراق ، ٤٢/١ .

٣/ وفيات الأعيان ، ١٤٩/٥ .

٤/ الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين ، ١٧٢/١ .

٥/ الخريدة القسم العراقي ، ٤٤/١ .

شيوخه :

علمنا مما سبق أن العماد ولد بأصبهان ، وتلقى تعليمه بها مبكرا ثم غادرها إلى العراق ، ودرس بالمدرسة النظامية ببغداد ، ثم غادر العراق إلى الشام ودرس بالمدرسة النورية بدمشق ، ثم غادرها إلى مصر ، وقد كان حريصا على لقاء العلماء والأدباء والشيوخ ، فالتقى بعدد كبير منهم وأخذ عنهم ومن هؤلاء الشيوخ : -

١/ ابن الرزاز البغدادي : (٤٦٢ - ٥٣٩ هـ) (١)

أبو منصور سعيد بن محمد بن عمر البغدادي ، من كبار أئمة بغداد فقهها واصولا ، وخلافا . تفقه على الغزالي وغيره ، ولي التدريس بالنظامية ، وانتهت إليه رئاسة الشافعية ببغداد ، أخذ العماد عنه فقه الإمام الشافعي في النظامية .

٢/ ابن الخشاب : (٤٩٢ - ٥٦٨ هـ) (٢)

أبو محمد عبد الله بن أحمد المشهور بابن الخشاب النحوي ، من علماء بغداد ، كان أعلم أهل زمانه بالنحو ، وكان بارعا في علوم كثيرة ، وله معرفة بالحديث والتفسير وبالفرائض واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة . صنف شرح المجلد للجرجاني ، والرد على التبريزي في تهذيب الإصلاح ، قال عنه العماد : (شيخنا في علم الأدب ، أعلم الناس بكلام العرب . . . ومعظم قرأتي عليه في بغداد في كتب الأدب والشعر ، وبعث تحسينه وتنقيحه وتصحيحه لكلماتي على تجويد النظم والنثر .) (٣)

٣/ أبو طاهر السلفي : (٤٧٨ - ٥٧١ هـ) (٤)

أحمد بن محمد بن أحمد الأصبهاني ، الحافظ المتقن ، الرحالة المعمر ،

١/ شذرات الذهب ، ١٢٢/٤ ، والخريدة القسم العراقي ، ٢٣/١ .

٢/ البداية والنهاية ، ٢٦٩ / ٤ ، وتاريخ الأدب العربي : عمر فروخ ، ٣٣٥/٣ .

٣/ الخريدة قسم العراق ، ٢٧ / ١ .

٤/ طبقات الشافعية الكبرى ، ٤٣/٤ ، والبداية والنهاية ، ٣٠٧ / ١٢ .

المشهور، خرج من أصبهان وطاف الآفاق ، تفقه على مذهب الإمام الشافعي ، وجود القرآن بالروايات ، وبرع في الأدب ، استوطن الإسكندرية ، ورحل إليه من الآفاق ، ومكث نيفا وثمانين سنة يسمع منه ، وكان ثقة ، ورعا ، سمع منه العماد الحديث .

تلاميذه :

كان لثقافة العماد الواسعة التي حظي بها ، ومنزلته ومكانته الرفيعة في الأوساط العلمية في الشام ومصر أثر كبير في إقبال طلاب العلم عليه والتلمذة له ، وقرأ عليه وروى عنه خلق كثير ، أشهرهم زكي الدين المنذري صاحب كتاب التكملة لوفيات النقلة ، قال عنه : (حدث ببغداد ودمشق ومصر ، ولنا فيه إجازة كتب بها إلينا سنة ٥٩٥ هـ) (١) .

وذكره عمر القرشي في مشايخه الذين روى عنهم (٢) ، (وروى عنه يوسف بن خليل والشهاب القوسي ، والخطير فتوح بن نوح ، والعزبن عبد العزيز بن عثمان الأربلي ، والشرف محمد بن إبراهيم الأنصاري ، والتاج القرطبي ، وآخرون) (٣) . وأجاز إلى ابن سبط الجوزي (٤) .

العماد بعد وفاة مؤسس الدولة الأيوبية حتى وفاته :-

بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي كثرت النزاعات بين أبنائه على السلطة فكثرت الأحداث والفتن ، وضاع مركز العماد في الدولة ، فهاجر إلى دمشق لينجو بنفسه من تلك الفتن والمخاوف ، ووصف محمد بهجت الأثري فترته هذه بقوله : (.. وأضطر إلى الإنزواء بدمشق حيناً وإلى مغادرتها والإضطراب في جوانب الأرض حيناً آخر ، لينجو بنفسه من مخاوف

١/ التكملة لوفيات النقلة ، ١/ ٣٩٣ .

٢/ الخريدة قسم العراق ، ١/ ٦٤ .

٣/ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام : الذهبي ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي - بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ، ص ٣١٨ .

٤/ الخريدة القسم العراقي ، ١/ ٢٠ .

الفتن والمهالك (١) .

واتفقت كل المصادر التي ترجمت للعماد بأنه بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي هاجر الى دمشق ولزم مدرسته (العمادية) أو بيته واشتغل بالكتابة والتصنيف ، فقال السبكي : (ولم يزل عند السلطان صلاح الدين في أعز جانب وأنعم نعمة والدنيا تخدمه والأرزاق ينصرف فيها لسانه وقلمه ، إلى أن توفي السلطان صلاح الدين وبارت سوق العلم والدين بوفاته ، استوطن دمشق ولزم مدرسته العمادية) (٢) . وقال ابن خلكان : (ولم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته إلى أن توفي السلطان صلاح الدين ، فاختلفت أحواله وتعطلت أوصاله ، ولم يجد في وجهه بابا مفتوحا ، فلزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصنيف) (٣) . وقال ياقوت الحموي : (ولما توفي صلاح الدين - رحمه الله - اختلفت أحوال العماد ، ولزم بيته ، وأقبل على التصنيف والافادة حتى توفي) (٤) .

لقد عاش العماد بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩ هـ) ثماني سنين وستة أشهر وبضعة أيام ، فلم ينقطع فيها إنقطاعا تاما عن العمل السياسي كما ذكرت هذه المصادر التي أغفلت حياته بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي فقد ذكر محمد بهجت الأثري (٥) ، أنه شارك في العمل السياسي بعد صلاح الدين الأيوبي فكتب للملك الأفضل نور الدين على ابن صلاح الدين الأيوبي حينما استقل بملك دمشق والساحل بعد وفاة والده . ثم رجع العماد إلى مصر وكان حاكمها الملك العزيز بن صلاح الدين الأيوبي حيث كان يجتذب أصحاب أبيه إليه ويكرمهم فاجتمعوا حوله .

وخرج العماد إلى دمشق مع الملك العزيز وعمه العادل حينما حاصراها ودخلها عتوة سنة ٥٩٢ هـ . وأقام العماد بدمشق مع الملك العادل الذي استنابه العزيز عليها ، وفي هذه الفترة لم يشارك العماد في أعمال الدولة ، ويرجح محمد بهجت الأثري (٦) إنه انصرف فيها الى التصنيف والتدريس والافادة إنصرافا تاما ، وفي سنة ٥٩٧ هـ صحبه الملك العادل معه إلى

١ / الخريدة القسم العراقي ، ٤٥ / ١ .

٢ / طبقات الشافعية الكبرى ، ٩٧ / ٤ .

٣ / وفيات الأعيان ، ١٥٢ / ٥ .

٤ / معجم الأدباء ، ١٩ / ١٩ .

٥ / الخريدة قسم العراق ، ٤٦ / ١ .

٦ // الخريدة قسم العراق ، ٤٨ / ١ .

مصر وأقام فيها أشهراً أقبلت أوائلها فسرتة ثم أدبرت فأسأته ، حيث هبط النيل في أو آخر ذلك العام ، فاشتد الغلاء وعمت المجاعة حتى أكل الناس الميتة وأكل بعضهم بعضاً ، وعقب ذلك وباء وموت كثير ، فهرب الناس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام ، فهرب العماد فيمن هرب إلى الشام (١) .

وما كاد العماد ينجو بنفسه من الموت في مصر بالجوع أو الوباء ويبلغ دمشق منهوكاً حتى روعته فيها الزلزلة العظيمة الهائلة التي امتدت من صعيد مصر إلى الشام ودمشق وجميع قلاع الساحل إلى أذربيجان حيث هدمت فيها مدناً كثيرة وماتت تحت الهدم خلق لا يحصون (٢) . (وكان العماد ينوء بالسنين الثماني والسبعين وبالمرض من هول ما شاهد من هذه الكوارث في مصر ودمشق) (٣) . ولم يعيش العماد طويلاً بعد هذه الزلزلة فادركته منيته ففارق الحياة جزعاً حزينا على فقدانه أهله ومعارفه الذين كان يألفهم ، فكان كلما دخل عليه شخص يعودده وهو في مرض الموت أنشده : (٤)

أنا ضيفٌ بربكم أين أين المضيفُ
أنكرتني معارفِي مات مَنْ كُنْتُ أعرُفُ

وفاته :

تتفق كل المصادر على أنه توفي بدمشق يوم الاثنين مستهل شهر رمضان سنة ٥٩٧ هـ ودفن بمقابر الصوفية عند المنبيع (٥) .

١ . النجوم الزاهرة ، ١٧٣/٦
٢ . / المصدر نفسه ، ١٧٤/٦
٣ . / الخريدة القسم العراقي ، ٥١ / ١
٤ . الوافي بالوفيات ، ١٢٤/١ ، وتاريخ ابن الوردي : زين العابدين عمر بن الوردي ، المطبعة الحيدرية - النجف ، د.ت. ، ١٦٨/٢
٥ . / النجوم الزاهرة ، ١٧٩/٦

المبحث الثالث

صفته :-

وصفته المصادر بعدة صفات : الإمام ، العلامة ، الوزير الكاتب ، المنشئ ، البليغ (١) ، الأديب ، الفقيه الشافعي ، الأجل البارع (٢) ، المفتي (٣) . ووصفه الصفدي : (بالبحر العجاج وفارس الكتابة) (٤) ، وقال الذهبي (٥) : أنبأني ابن البزوري قال العماد هو : (إمام البلغاء ، وشمس الشعراء ، وقطب رحا الفضلاء ، في الفصاحة قس دهره وفي البلاغة سبحان عصره ، فاق الأنام طراً نظماً ونثراً) وقال عنه ابن النجار : (كان من محاسن الزمان لم تر العيون مثله) (٦) . ووصفه أبو الفداء بقوله : (كان فاضلاً في الفقه والأدب والخلاف والتاريخ وله النظم البديع والنثر الفائق) (٧) . أما وصف شكل العماد ، قال عنه ابن الفوطي (٨) : (كان كوسجاً وفي عينيه عمش) (٩) . وكان بالعماد فترة ، إذا نظر إليه ، فإذا أخذ القلم وكتب جاء بالعجائب ، ونقل الصفدي عن شمس الدين محمود المروزي قال : كنت بحضرة القاضي الفاضل ، وكان العماد حاضراً عنده ، فلما انفصل ، قال القاضي للجماعة ، بما تشبهون العماد ؟ — وكان عنده فترة عظيمة ، وجمود في النظر والكلام ، فإذا أخذ القلم أتى بالنثر والنظم — فكلهم شبهه بشيء ، فقال ما أصبتم ، هو كالزناد ظاهره بارد وباطنه فيه نار (١٠) .

١/ شذرات الذهب ، ٤/ ٢٣٢.

٢/ مرآة الجنان : الياضي ، ٣/ ٤٩٢.

٣/ سير أعلام النبلاء ، ص ٣٤٥ .

٤/ الوافي بالوفيات ، ١/ ١٢٠.

٥/ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، ص ٣٢٢.

٦/ طبقات الشافعية الكبرى ، ٤/ ٩٨.

٧/ المختصر في أخبار البشر ، ٣/ ١٠٠.

٨/ الخريدة القسم العراقي ، ١/ ٥٤.

٩/ الكوسج هو الذي لا شعر على عارضيه ، وهو لفظ فارسي مفردة كوسه ، إشتق العرب منه فعلاً فقالوا (من طالت لحيته تكوسج عقله) أي نقص . والعمش : ضعف البصر مع سيلان الدمع في أكثر الأوقات . الخريدة القسم العراقي ، ١/ ٥٤.

١٠/ الوافي بالوفيات ، ١/ ١١٩.

ثقافته :

فقد ثقف العماد نفسه بالثقافتين العربية والفارسية منذ نعومة أظفاره ، وأكب على مطالعة الأدب وحفظ دواوين الشعراء العرب المشهورة ، وكان طالب علم ومعرفة طوال حياته يقرأ ويدرس ويؤلف ، لم تشغله وظائفه في الدولتين النورية والصلاحية عن نشاطه الأدبي ، فقد اتصل بعلماء عصره وأدبائه في مختلف البلدان ، فأخذ عنهم وسمع منهم - ودون أدب عصره ما بين فارس والأندلس ، فأصبح ما دونه من أشعار مرجع الباحثين في ثقافة القرن السادس الهجري حتى يومنا هذا .

وقد ثقف العماد نفسه كذلك بالعلوم الإسلامية والعلوم الدخيلة ومعرفة التواريخ وأيام الناس ، مما أعانه على التميز في الفن الكتابي الذي رفع منزلته عند أعلام عصره من ملوك ووزراء وعلماء وأدباء ، وقد عاش العماد في كنف الدولة العباسية ببغداد وتحت ظلال الدولتين النورية والصلاحية في الشام ومصروراي آخرسلاجقة العراق وكردستان ، ومصرع الدولة الفاطمية وخلافة الدولة الأيوبية لها في مصر والشام ، وشارك في الجهاد ضد الصليبيين فكتب عن كل ذلك الكتب الضخام ، فكتب عن تاريخ عصره السياسي وأحداثه الحربية والاجتماعية كتابة شاهد عيان ، فتميزت كتاباته فيها بالرواية الصادقة وطول النفس .

وقد أشاد مترجموه بمحصوله الثقافي الكبير ، فعدوه من العلماء المتقنين للغة والخلاف ، والاصول ، ورواية الحديث ، وعدوه من فصحاء العرب والعجم ، وأرباب الفضل والبلاغة والمعرفة ، ووصفوه بالأدب والشعرووصفا كثيرا ، وبالتميز باللغة والنحو والحفظ لدواوين العرب ، ومعرفة التواريخ وأيام الناس ، حتى قال بعضهم : (أنه كان من محاسن الزمان لم تر العيون مثله) (١) .

وخلف العماد آثارا بارعة تدل على ثقافته الواسعة وتشهد بتقدمه في الشعروالنثر والتاريخ ، وتؤيد ما أشاد به معاصروه ومؤرخوه من فضائله .

كتبه وآثاره :

العماد أديب متعدد المواهب ، فهو من شعراء الدولتين النورية والصلاحية ، والمعدودين من أبرز كتابهما ، فقد أولع بالتأليف وقرض الشعر وتحبير الرسائل الفنية منذ نشأته الأولى وهو يطلب العلم في بغداد . والعماد مؤرخ واسع الإطلاع موثق الرواية ، خلف عددا من المصنفات البالغة الأهمية ، والتي تعتبر من أهم المصادر التي يعتمد عليها المعنيون بتاريخ وأدب الحروب الصليبية ، وتنقسم كتبه وآثاره الى أربعة أقسام هي : ١/ الكتب المترجمة ، ٢/ كتب التاريخ الثقافي الأدبي ، ٣/ كتب التاريخ السياسي الاجتماعي ، ٤/ الشعر والنثر . وسنتناول كل هذا بالتفصيل .

أولا : الكتب المترجمة :

كان العماد يتقن اللغة الفارسية ويجيد الكتابة بها والنقل منها إجادته للعربية ، فقام بترجمة كتابي :

١/ فنون زمان الصدور، وصدور زمان الفتور : تأليف العزيز أنوشروان ابن خالد ، وهو في تاريخ الدولة السلجوقية ، من أواسط عهد الملك نظام الملك إلى آخر عهد طغرل بن محمد ملكشاه. (١)

٢/ كيمياء السعادة : لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) في مجلدين نقله من الفارسية إلى العربية سنة ٥٧٦هـ ، بإشارة القاضي الفاضل (٢) (وهو في الموعظة والأخلاق ، مرتب على أربعة عنوانات وأربعة أركان للعوام الملتزمين طريق المعرفة ، كما قال في خطبته وهي معرفة النفس ، ومعرفة الرب ، ومعرفة الدنيا ، ومعرفة العقبى) (٣) .

١/ الخريدة القسم العراقي ، ٧١/ ١

٢/ المصدر نفسه ، ٧١/ ١

٣/ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : حاجي خليفة ، منشورات مكتبة المثنى — بغداد ، د. ت. ،

٢٨٨ / ١

ثانيا : كتب التاريخ الثقافي الأدبي :

١ / خريدة القصر وجريدة العصر :

وهي في عشرة مجلدات ذكر فيها الشعراء الذين عاشوا بعد المائة الخامسة وحتى سنة ٥٧٢ هـ ، وجمع فيها شعراء العراق والعجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب ولم يترك أحدا إلا النادر الخامل . وقال محمد بهجت الأثري : (لولا هذا الكتاب - يعني الخريدة - وكتاب زينة الدهر للحظيري ، وكتاب وشاح الدمية للبيهقي ، لانبهم على الناس عصر كامل من تاريخ الشعر العربي . غير أن كتاب الحظيري قد فقد إلا نصوصا قليلة منه ، استشهد بها بعض المؤرخين ، كما فقد كتاب وشاح الدمية وقد عثر على جزء منه في بعض البلاد التركية ، فلم يبق لنا ما يعرفنا تعريفًا كاملاً بتواريخ الشعراء في هذه الحقبة غير هذا الكتاب الذي سلم من الضياع وتداولته الأيدي) (١) . وقد صدر من هذا الكتاب : (٢)

أ/ قسم شعراء الشام ، في دمشق ، عن المجمع العلمي العربي ، في أربعة أجزاء بتحقيق الدكتور شكري فيصل ، طبع المطبعة الهاشمية سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .

ب/ قسم شعراء مصر ، في القاهرة ، بتحقيق احمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥١ .

ج/ وقسم شعراء العراق ، في بغداد ، بتحقيق محمد بهجت الأثري وجميل سعيد ، طبع مطبعة المجمع العلمي العراقي ببغداد سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .

د/ وقسم شعراء المغرب ، بتحقيق محمد المرزوقي ومحمد العمروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٦ م .

هـ / قسم شعراء الأندلس ، بتحقيق عمر الدسوقي وعلى عبد العظيم ، القاهرة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٦٩ م .

٢ / السيل على الذيل : جعله ذيلًا على خريدة القصر (٣) ، وهو في ثلاثة مجلدات ، وقد ظن حاجي خليفة (٤) في كشف الظنون أنه ذيل على الذيل

١ / الخريدة القسم العراقي ، ٧١/١

٢ / تاريخ الأدب العربي : عمر فروخ ، ٤٢٠ / ٣ .

٣ / مفتاح السعادة ومصباح السيادة : طاش زادة كبرى ، تحقيق كامل بكري ، مطبعة الإستقلال الكبرى - القاهرة ، ٢٦٤ / ١ .

٤ / كشف الظنون ، ٨٨ / ١ .

لابن السمعاني الذي ذيل به تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وهو خطأ منه ، وقع فيه ابن خلكان (١) وياقوت الحموي (٢) أيضا .

ثالثا : كتب التاريخ السياسي الإجتماعي

١/ **نصرة الفترة وعصرة القطرة :** وهو في تاريخ السلاجقة ووزرائهم أخذ بعضه من كتاب (فتور زمان الصدور ، وصدور زمان الفتور) للوزير أنوشروان بن خالد ، الذي نقله العماد للعربية . ويقول جرجي زيدان : (منه نسخة خطية في إكسفورد وفي باريس) (٣) . ولهذا الكتاب مختصران :

أ/ **زبدة التواريخ :** لصدر الدين أبي الحسن علي بن السيد الشهيد أبي الفوارس ناصر بن علي ، كاتب الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) ، منه نسخة في المتحف البريطاني (٤) .

ب / **زبدة النصر ونخبة العصرة :** للفتح بن علي البنداري الأصبهاني ، اختصره للملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب . ظن حاجي خليفة (٥) واسماعيل باشا البغدادي (٦) أنه من عمل العماد نفسه فنسباه إليه . طبعه هوتسما في ليدن سنة ١٨٨٩ م ، وطبع أيضا بمطبعة الموسوعات مصر سنة ١٩٠٠ م موسوما (بتاريخ دولة آل سلجوق) (٧)

٢/ **الفتح القسي في الفتح المقدسي :** أرخ فيه فتوحات صلاح الدين الأيوبي ، بدأه بسنة فتحه البيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ، وختمه بوفاته سنة ٥٨٩ هـ . طبع في ليدن سنة ١٨٨٨ م ، ثم طبع بمصر بمطبعة الموسوعات مصر سنة ١٣٢١ هـ ، وبالمطبعة الخيرية مصر سنة ١٣٢٢ هـ تحقيق محمد محمود صبح - القاهرة .

١/ وفيات الأعيان ، ١٥٠/٥

٢/ معجم الأدباء ، ١٩/١٩ .

٣/ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان ، ١٩٩٢ م ، ٦٥/٣ .

٤/ المرجع نفسه ، ٦٦/٣ .

٥/ كشف الظنون ، ٢٨٨/١ .

٦/ هدية العارفين : اسماعيل باشا البغدادي ، طبعة استانبول سنة ١٩٥٥ م ، منشورات مكتبة المثنى بغداد ، ١٠٥/٢ .

٧/ الخريدة القسم العراقي ، ٧٥/١ .

٣/ البرق الشامي : وهو تاريخ بدأ فيه بذكر نفسه ونشأته ورحلته من العراق إلى الشام ، وأخباره مع الملك العادل نور الدين محمود والسلطان صلاح الدين الأيوبي وما جرى له في خدمتهما ، وذكر فيه بعض الفتوحات بالشام وأطرافها ، ويقع في سبعة مجلدات ، وسماه بالبرق الشامي ، لأنه شبه أوقاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة إنقضائها (١) ، ففقد هذا الكتاب ولم يبق منه إلا الجزء الثالث والخامس فقط ، يبدأ الجزء الثالث بحوادث ٥٧٣هـ وينتهي بنهاية حوادث سنة ٥٧٥هـ ، أما الجزء الخامس فيبدأ بعزم السلطان صلاح الدين الأيوبي على السير إلى حلب سنة ٥٧٨هـ وينتهي بنهاية حوادث سنة ٥٧٩هـ ، والجزءان مخطوطان في إكسفورد بمكتبة بودليان (٢) .

٤/ عتبي الزمان في عقبى الحدثان : ويسمى أيضا العتبي والعتبي (٣) ، ذكر فيه الحوادث التي تلت وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى سنة ٥٩٢هـ

٥/ نحلة الرحلة وحيلة العطلة : ذكر فيه إختلال الأحوال وتغزو الأمور بعد موت صلاح الدين الأيوبي ، وإختلاف أولاده ، وما وقع من الخلاف بين الأمراء والعمال .

٦/ خطفة البارق وعطفة الشارق : في التاريخ أيضا وهو آخر ما ألف العماد ، لأنه دون فيه الحوادث من سنة ٥٩٣ – ٥٩٧ هـ وهي سنة وفاته . ذكره إسماعيل البغدادي (٤) وبروكلمان في الملحق ولم يعين مكان وجوده ، وحفظ أبو شامة جزءا مهما منه (٥).

١/ وفيات الأعيان ، ١٥٠/٥

٢/ الخريدة القسم العراقي ، ٧٧/١

٣/ معجم الأدباء ، ١٩/١٩ ، وهدية العارفين ، ١٠٥/٢

٤/ هدية العارفين ، ١٠٥/٢

٥/ الخريدة قسم العراق ، ٧٩/١

رابعاً : الشعر والنثر

١/ **له ديوان شعر : جمعه بنفسه ورتبه قبل سنة ٥٧٢ هـ** واستنسخه في زمانه أحمد بن عبد الرحمن بن علي المعروف بنشؤ الدولة ، قال العماد في ترجمته (شاب ، مجد للفضل ، حريص على تحصيله بجماته وتفصيله ، وقد كتب ديوان شعري ورسائلي) (١) ، ويضاف إلى هذا الديوان الشعر الذي كتبه بعد سنة ٥٧٢ هـ حتى وفاته ، قد فقد مع هذا الديوان ، وإختلف الباحثون القدامى في حجم ديوانه فقد قيل في مجلدين (٢) ، وقيل في أربعة مجلدات (٣) وأخيراً قام الدكتور ناظم رشيد بجمع ديوان العماد وتحقيقه ، وطبع بمطبعة جامعة الموصل — العراق ، سنة ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٣ م .

٢/ **وله ديوان صغير جميعه دوبيت : نظمه لنورالدين محمود في معنى الجهاد (٤) وقد روى أبو شامة أمثلة منه في كتابه الروضتين .**

٣/ **وله ديوان رسائل في مجلدات (٥).**

١/ الديوان ، ص ٩ .
٢/ معجم الأدباء ، ١٩ / ١٩ .
٣/ وفيات الأعيان ، ١٥٢ / ٥ .
٤/ الديوان ، ص ١٠ .
٥/ معجم الأدباء ، ١٩ / ١٩ .

الباب الثاني

الموضوعات الشعرية في ديوان العماد

الفصل الأول : الموضوعات التقليدية

الفصل الثاني : الموضوعات المستحدثة

الفصل الأول

الموضوعات التقليدية

المبحث الأول : المديح

الرثاء

الفخر

الهجاء

المبحث الثاني : الغزل

الوصف

الحكمة والنصح والارشاد

الاستعطاف

الفصل الأول

الموضوعات التقليدية :

لقد تطرق شاعرنا العماد إلى شتى موضوعات الشعر من مدح وفخر وغزل وهجاء ورثاء ووصف وخمر وحكمة كما تطرق إلى أحداث عصره فتحدث عن الحروب الصليبية فمدح أبطالها ووصف أحداثها وخلد انتصاراتها. وسنتناول كل هذه الموضوعات بالتفصيل.

المبحث الأول: المدح

استحوذ المدح على معظم ديوانه وتلاه الوصف من حيث الكثرة ثم جاءت الموضوعات الأخرى بشكل أقل في ديوانه.

والمدح من الفنون القديمة في الشعر العربي ، يهدف فيه الشاعر إلى إبراز فضائل الممدوح وإظهار صفاته وفضائله، فيمدحه بمآثره من كرم وشجاعة. وأدب ومروءة وغيرها من الصفات الحميدة في حياته ويقابله الهجاء.

وقد حدد بعض النقاد اتجاهات المدح وحصرها في بعض الفضائل وهي : العقل ، الشجاعة ، العدل ، العفة^(١)

وقد ارتبط فن المدح بالقصيدة الجاهلية منذ نشأتها ، واحتل الشاعر مكانة رفيعة في المجتمع الجاهلي ، ذلك لحاجة القبيلة إليه لتخليد مآثرها ورفع مكانتها بين القبائل الأخرى ، ولم يكن غرض المدح في العصور التي تلت العصر الجاهلي بأقل أهمية وانتشاراً منه، خاصة في العصر الأموي

١ - نقد الشعر: قدامة بن جعفر تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة ، ص ٩٦ .

والعباسي بل كان أكثر جذباً للخلفاء والأمراء والحكام حتى بلغ الأمر ببعضهم أن يستأثر بشاعر معين يؤدي له هذه المهمة، فارتبطت أسماء بعض الشعراء بممدوحهم فلا يذكر المتنبي إلا وذكر سيف الدولة مثلاً. فقد هيأت فترة الحروب الصليبية المناخ لبروز هذا الغرض الشعري وتفوقه ، فاحتل مكانه الصدارة بين الأغراض الشعرية الأخرى . فقد إتجه الشعراء في هذه الفترة إلى تخليد وتمجيد أبطال الحروب الصليبية فاستثاروا حماسهم وهممهم ، وأعلوا من مكانتهم ، فأبانوا حميد خصالهم من عزة وكرامة ، ومجدوا انتصاراتهم على أعدائهم الصليبيين حتى يكون ذلك دافعاً لهممهم وتثبيتاً لنفوسهم وإحياء لروح الجهاد ، وقد لعبت الكلمة دوراً مهماً في الجهاد.

وشاعرنا العماد يعد أحد الشعراء الذين لعبوا دوراً مهماً في مسيرة الجهاد ضد الصليبيين منذ نشأتها ، فقد لازم العماد البطليين المجاهدين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وصحبهما في جميع غزواتهما ضد الصليبيين ، وكانت كلماته سيفاً في الحز على الجهاد وإلهاب حماس المجاهدين وتشجيعاً لهم في كفاحهم . فمجد بطولاتهم وخلد انتصاراتهم ، ومدح غيرهم من القادة والأبطال والوزراء الذين نافحوا الأعداء الصليبيين فمدح البطل القائد أسد الدين شيركوه ، ومدح القائد تقي الدين عمر ، وعز الدين فروخ شاه ومدح غيرهم من الأبطال الذين شاركوا في مسيرة الجهاد كما مدح القضاة والعلماء . ومدح كذلك الخلفاء العباسيين ، وكان الخليفة المقتفي لأمر الله أول الخلفاء العباسيين الذين أعجب بهم شاعرنا العماد وخصه بغرر مدائحه وصرح العماد بذلك قائلاً : (وكان وصولي إلى بغداد

في الأيام المقتفوية وفي ظلها المنشأ في فضلها المربى ... وأول من مدحته
من الخلفاء المقتفي لأمر الله...) (١) بقصيدة أولها (٢) :

أضحتْ تغورُ النصر تبسُّمُ بالظفرِ وغدتْ خيولُ النصرِ واضحةَ الغررِ
يا ابنَ السراةِ ذوي العُلَى من هاشمٍ والأكرمينَ أولي المناقبِ من مُضرِ
أنتَ ابنُ عمِ المصطفى وسميهُ أبشرْ فأنتَ كبعدهُ خيرُ البشرِ!؟

وقد رسم فيها صورة واضحة للخليفة المقتفي وهو يسوس العباد بالعدل
والإنصاف ويبعد عنهم الظلم والخطر فيقول:

من راحتِكَ المَزن في المَحَلِّ اجتدى والى سَنّاك البدرُ في الليلِ افتقرُ
أدنى وليٍ في رضاكَ مُعَظَم وأجلُ ذي مُلكٍ بسخطِكَ مُحْتَقَرُ
أضحى حِمَى الباغِي رضاكَ مَمْنَعاً بين الوري ، وغدا دُمُ الباغِي هَدَرُ
ويصرح في خاتمتها عن سبب هجره لموطنه ونأيه عن قومه وخلانه
وانتمائه إلى أطيب بيت وأندى منبت قائلاً :

لما رأيتُ منارَ بيتِ كَعْبَةِ وافيتُ فيمن حَجَّ بيتِكَ واعتمرُ
وهجرتُ أوطاني إليه، ومَن رأى شرفاً له في أن يفارقها هَجَرُ
ونأيتُ عن قومي ، ليرفعَ دونهم قدري اصطناعُ لي ، فجئتُ على قدرُ

١- خريدة القصر ، قسم العراق ١: ٣٦

٢- الديوان ، ص ١٥١ .

للعقاد قصيدة أخرى في مدح الخليفة المقتفي إنتهج فيها نهج أساليب الشعراء القدامى فاستهلها بمقدمة غزلية تحدث فيها عن الهجر والوصل والعتب الشديد للحبيبة التي لامته قائلاً : (١)

كُنْ عاذري في حُبهم، لا عادلي يا فارغاً من شُغلِ قلبي الشاغل
هَبْ أَنْ سَمَعِي لِلنصيحةِ قابلٌ ما ناعفي ، والقلبُ ليس بقابلٍ ؟

إلى أن يخلص إلى مدح الخليفة، فيكثر من وصف كرمه وجوده وعدله قائلاً :
(٢)

أَوْ هَلْ يَخَافُ الْعُدَمَ مِنْ وَجَدَ الْغِنَى مِنْ جُودِ مَوْلَانَا الْإِمَامِ الْعَادِلِ ؟
وَلَقَدْ وَرَدَتْ فَنَاءٌ بِحَرِّ لَلْنَدَى أَغْنَى بِهِ عَنْ أَنْهَرِ وَجَدَاوِلِ
فِي كَفِّهِ لِلجودِ خَمْسَةُ أَبْحَرِ فَيَاضَةٍ ، تُسَمَّى بِخَمْسِ أَنْامِلِ
مَمْدُوكِلِ الْعَدْلِ لَيْسَ بِزَائِلِ مَعْمُودُ رُكْنِ الْمُلْكِ لَيْسَ بِمَائِلِ

ومن الخلفاء العباسيين الذين مدحهم العماد الخليفة المستنجد بالله (٣) ،
فمدحه بأربع قصائد منها القصيدة الضادية التي استهلها بقوله : (٤)

لَقَدْ بَسَطَ الْإِحْسَانَ وَالْعَدْلَ فِي الْأَرْضِ إِمَامٌ بِحُكْمِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ يَقْضِي
مَهْيَبٌ يُغْضُ الطَّرْفُ دُونَ لِقَائِهِ يَغْضُ حَيَاءٌ وَهُوَ فِي الْحَقِّ لَا يُغْضِي (٥)

١ الديوان ، ص ٣٤٥

٢ المصدر نفسه ، ص ٣٤٧-٣٤٨

٣ / المستنجد بالله يوسف بن المقتفي محمد بن أحمد ، بويغ بالخلافة سنة ٥٥٥ هـ وتوفي سنة ٥٦٦ هـ (الخريدة قسم العراق ١: ٥٦)

٤ / الديوان ، ص ٢٦٤

٥ / الفض : نقصان الطرف ، والاعضاء : مقارنة الإنسان بين جفنيه حتى لا يبصر شيئاً

أفي يوسفَ المستنجدِ اللهَ قوله

(كذلك مكنّا ليوسفَ في الأرضِ) ^(١)

ثم يمدحه فيها بشرف النسب وطهارته وبسط ظل دولته وعدله قائلاً:

لَكَ النُّورُ مَوْصِلاً بنور محمد

أضاعتْ بهِ الأنسابُ عن شرفِ محضٍ ^(٢)

وظلك في شـ ررق البلادِ وغربها

مدّيعلى طول البسيطة والعرض

أنمت عبادة الله أمناً ، فلم تدع

عيون العدى رعباً تكحل بالغمض

وفي قصيدة أخرى يصفه في الذروة من المجد والسمو والكرم والبأس
والمهابة والبطولة قائلاً: ^(٣)

وبيوسف المستنجد بن المقتفي	دين الهدى سامي العماد رفيعه
ضافي رداء الفخر، صاف روحه	نامي ضياء البشر، زاك روعه ^(٤)
في الأمن إلا ماله وعَدوه	فكلاهما في الحالتين مروعه
لله أصل هاشمي طاهر	طابت وطالت في العلا فروع
لك نائل محي، وبأس مهلك	فلأنت ضرار الزمان نضوع

١ - الجملة القرآنية وردت في آيتين في سورة يوسف، آيه ٢١ و ٥٦

٢ - المحض : الخالص الذي لا يخالطه غيره

٣ - الديوان ، ص ٢٩٦

٤ - الروح بضم الراء : القلب والعقل

ويقول في ذات المعنى في قصيده أخرى : (١)

أوصافهُ بالوحي نعرفُها	فصفائهُ جلتُ عن الوهم
تسُمُو بلثمِ تُرابِ موكبهِ	فلقد سَمَتَ يُلُهُ عن اللثم!
النجمُ منزلهُ، ومنزلُهُ	للوحي منزلُ (سورة النجم)
مِنْ مَعِشَرِ أُسَاسِ مُلْكِهِمْ	صينتُ قواعلُها عن الهَدمِ
مِنْ كُلِّ ساميِ الأَصلِ سامِقِهِ	زَاكِ الخَلِيقَةِ طاهرِ الجِذَمِ (٢)
شَمُ المعاطسِ عَزُهُمْ أَبَدًا	قَمْنٌ بَذَلَ معاطسِ الشَمِ (٣)
المنهبونَ الوفَدَ وفرهِمْ	والمشترُونَ الشُّكْرَ بالثَمِ (٤)
قومٌ يَرونَ إِذا هُمُ اجتمعوا	تفريقَ ما غَنَمُوا مِنَ الغنمِ
إِرتُ النبوَّةُ بِلِ خِلافَتِها	في يوسفِ المُستَجدِ القَرَمِ
كالبدْرِ نوراً، والهَزْبِ سَطاً	يومَ الهِياجِ، وليلةِ التَمِ

وأبرز ممدوحى العماد من الخلفاء العباسيين الخليفة المستضي بأمر الله (٥) فقد خصه بقصائد كثيرة، وأشار العماد إلى ذلك بقوله : (..ولي فيه مدائح تناسب منائحه كثرة وغازاة وأيام دولته غضارة ونضارة ..) (٦) ، وقد ضاعت كل هذه القصائد ولم ترد إلينا في الديوان إلا ست قصائد ، وقد نظمها جميعها وهو بدمشق وبعث بها إلى الخليفة ببغداد ومن تلك القصائد

١/ الديوان ص ٣٩٨

٢/ الجذم (بالكسر) أصل الشيء

٣/ قمن : خليق وجدير ، المعاطس : الأنوف . الشم : جمع أشم وهو السيد الكريم ذو الأنفه

٤/ الوفير : المال الكثير . الشكم بضم الشين : الجزاء

٥/ المستضي: هو الحسن أبو محمد بن المستجد بالله ، ولد سنة ٥٣٦ هـ، ببيع بالخلافة بعد موت أبيه ، قال ابن

الجوزي : فنأدى برفع المكوس ورد المظالم وأظهر من العدل ما لم نره في أعمارنا . (تاريخ الخلفاء ، ٤٤٤)

٦/ خريدة القصر ، قسم العراق ١: ٦٣

قصيدته الصادية التي استهلها بالغزل قائلاً: (١)

أطاعَ دَمْعِي وصَبْرِي في الغرام عَصَا
القلبُ جَرَعَ من كأسِ الهوى غصصا
وإنَّ صَفْوَ حَيَاتِي ما يُكْدِرُهُ
إلا اشتياقي إلى أُنْبَاطِ الخُلصا

وبعد مقدمة غزلية طويلة جداً ، بلغت ٣٠ بيتاً يخلص إلى مدحه فيقول
مشيداً بكرمه وجوده وبأسه وعدله :

مَنْ أَلَزَمَ اللَّهُ كُلَّ الْخَلْقِ طَاعَتَهُ مَخُوفاً مِنْهُ عَصِياناً وَشَقَّ عَصَا (٢)
مَنْ لَا خَمَائِلَ لَوْلَا سَحْبُهُ هَطَلَتْ وَلَا مَخَائِلَ لَوْلَا بَرْقُهُ
وَبَصَا (٣)

قد عاشَ في العِزَّةِ القَعْسَاءِ حَامُهُ وَمَاتَ جَا حُهُ مِنْ ذِلَّةٍ قَعَصَا (٤)
مولي لراحةِ أهلِ الأرضِ راحتهُ وكم يُفَرِّجُ عِنا الحادثِ اللَّحَصَا (٥)
بِأَجُودٍ لِلْمَعْتَفِيِّ حُلُو الْجَنِيِّ سَلْساً بِالْبَاسِ لِلْمَعْتَدِي مُرَّالِابَا عَفَصَا (٦)
يا سَيِّدَ الْخُلَفَاءِ الْأَوْصِيَاءِ وَمَنْ نَبَتِ الْمَنَى مِنْهُ فِي رَوْضِ النِّجَاحِ وَصَى (٧)
أُنْمَتَ عِدلاً عِيُونَ الْعَالَمِينَ بِمَا أَذْهَبَتْ عَنْهَا الْقَدَى وَالرِّينَ وَالْغَمَصَا (٨)
عِدوكم واقِعٌ فِي الرُّعْبِ طَائِرُهُ حَتَّى لَقَدْ حَسَبَ الْفِيَا لَهُ قَفَصَا

١ - الديوان ص ٢٤٩

٢ / - العصا : جماعة الإسلام ، وشق العصا : مخالفة جماعة الإسلام

٣ / - الخمائل : جمع خميلة وهي الشجر المجتمع الكثيف . والمخايل : جمع مخيلة وهي السحابة التي تحسبها ماطرة . وبص : برق ولمع .

٤ / - القعساء : الثابتة ، القعصى : الموت المعجل

٥ / - اللحص : الضعير

٦ / - المعتقي : من يأتيك طالبا عفوك ومعروفك ، والعفص : الذي يثخن مصارعه

طاعة الممدوح واجبة على كل الخلق لأنه خليفة المسلمين وولي أمرهم وفي قوله (من ألزم الله كل الخلق طاعته) فالإلزام هنا إلزاماً واجباً وقد اقتبس شاعرنا هذا المعنى من قوله تعالى (يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) (١) ثم يمدحه بالجود والكرم وكيف يعيش حامده في عزة وهناء، ويموت جاحده من الذل والهوان موتاً سريعاً . فهو كريم لطالب معروفه وذا شدة وقوة للمعتدين.. ثم يبين سياسة حكمه فقد ملأ الدنيا أماناً وعدلاً ونامت رعيته قريرة العين مطمئنة، وبات عدوه قلقاً متوجساً من بطشه حتى ضاقت الدنيا في عينه وأيقن أنه لا يفلت من بطش الممدوح أينما ذهب .

وفي قصيدة أخرى يؤكد العماد أحقية الخليفة المستضي للخلافة الإسلامية ، فقد إصطفاه المولى عز وجل ليكون أميناً على الإسلام والمسلمين لما يتمتع به من صفات تؤهله لحمل هذه الأمانة ، فأول هذه الصفات أنه ينتمي إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الأولين والآخرين وهو بجانب ذلك يتحلى بكل صفات الإمامة التي كان يتحلى بها الخلفاء الأربع فاخذ تقوى سيدنا أبو بكر وعدل سيدنا عمر، وحياء سيدنا عثمان ، وعلم سيدنا علي ، فقال يمدحه بكل هذه الصفات (٢) :

وَرَأَى الْإِلَهَ الْمُسْتَضِيَّ لَشَرْعِهِ وَعِبَادِهِ، نِعَمَ الْأَمِينِ الْمُؤْتَمَنِ
سِرُّ النَّبُوَّةِ كَأَمْنٍ فِيهِ وَمِنْ فِطْرِ الْإِمَامَةِ مَشْرِقُ نَوْرِ الْفِطَنِ

١ / سورة النساء، آية (٥٩)

٢ / الديوان ص ٤٢٠

تقوى أبي بكرٍ ، ومن عمر الهدي وحياء عثمان وعلم أبي الحسن^(١)

وفي قصيدة أخرى يقول العماد مشيداً بجود ممدوحه وكرمه قائلاً : (٢)

بجود أمير المؤمنين وسببه	تفيض على أرض الأمان فيوضها
إمام البرايا خيرها مستضيئها	غزير الأيادي جمها مستفيضها
جزيل العطايا وافر الفضل وارفع	ظلال طويل المآثرات عريضها
تبدل بالأموال آمال وفده	فكم فاقة منا بوجد يعيضها ^(٣)
أنتنا وفود المكرمات بجوده	ووافي إلينا قضها وقضيضها ^(٤)
إذا ظمئت آمالنا وردت له	بحار لهي يروي العطاش فضيضها ^(٥)

وقد حظى الخليفة العباسي الناصر لدين الله^(٦) بقصيدة واحدة من مديح العماد ، على الرغم من أن الخليفة الناصر لدين الله قد حكم سبعا وأربعين عاماً ، ولا ندري سبب هذه الجفوة بينهما ولكن نحسب أن شاعرنا قد وجد في القائد البطل صلاح الدين الأيوبي ضالته ومبتغاه ، فلزمه وكرس كل حياته لخدمته ، فملاً حياته وشغله فخصه بكل أشعاره ، ولم يمدح شاعرنا

١/ ابو الحسن هو سيدنا علي بن ابي طالب كرم الله وجهه كني بأكبر أبنائه الحسن

٢/ - الديوان ص ٢٧٢

٣/ الوجد : الغنى والسعة

٤/ القرض : الحصى الكبار ، القضيض : الحصى الصغار : ويقال جاءوا قضهم وقضيضهم أي جاءوا بالكبير والصغير

٥/ القضيض : الماء العذب

٦/ - هو : أحمد أبو العباس بن المستضي بأمر الله ، ولد سنة ٥٥٣ هـ ، وبويع بالخلافة سنة ٥٧٥ هـ ، وقال الذهبي : ولم يل الخلافة أحد أطول مدة منه ، فإنه أقام فيها سبعة وأربعين سنة (تاريخ الخلفاء : ، ص ٤٥٨) .

العماد الناصر لدين الله إلامن خلال مدحه للقائد صلاح الدين الأيوبي حينما
فتح القدس فكان ذلك دافعاً لنظم هذه القصيدة ومجالاً رحباً لتقديم الطاعة
والولاء للخليفة الناصر لدين الله قائلاً: (١)

ورثت من سلفي رقي لطاعة — وذلك الرق للإسلاف أحساب
ما كان لولا الرضا والسؤل منه لنا خصب ومحل وإجداً وإجداً
قد قلت - لولا التقي - ما غير صارمه للعمر والرزق منع ووهاب

مدحه لأبطال وقادة الجهاد ضد الحركة الصليبية :

فحينما قامت الدولة الزنكية في دمشق مناهضة للصليبيين وداعية
للجهاد والوحدة ، لبي شاعرنا العماد نداء الجهاد وهاجر من بغداد إلى دمشق
، واتصل بقائدها الملك العادل نور الدين محمود زنكي ومدحه بأول قصيدة
له سنة ٥٦٢ هـ وقد استهلها بالغزل قائلاً : (٢)

لو حَفِظْتُ يومَ النوى عهدَها ما مَطَلْتُ بوصلكم وعودها
حتى يخلص إلى مدحه قائلاً :

محمدٌ يحمدُ عيشَ بلدةٍ — مآلُها بعدلٍ محمُوهُ —
مؤيدُ أموره بعزمِةٍ — من السمواتِ العلى تأييدها
جلا ظلامَ الظلم نورُ الدين عن أرضِ الشام، فله تحميتها

١ - الديوان ص ٤ ٧

٢ - الديوان ص ١٤٣

إِنَّ الرِّعَايَا مِنْهُ فِي رِعَايَةٍ
 لَّنُومِهَا يَسْهَرُ ، بَلْ لِأَمْنِ — هَا
 بِالْدِّينِ وَالْمَلِكِ لَهُ قِيَامُهُ
 وَدَأْبُهُ تَلُمُ ثَغُورِ الْكُفْرِ لَا
 قَدْ أَسْبَغَ اللَّهُ لَنَا بَعْدَ لِيهِ
 وَنِعْمَةٌ مُسْتَوْجِبٌ مَزِيَّتُهَا
 يَخَافُ ، بَلْ يَخْصِبُهَا بِجُودِهَا
 وَلِلْمُلُوكِ عَنْهَا قَعُورُهَا
 لَثُمُ ثَغُورٍ ، نَاقِعَ بَرُوءِهَا
 ظِلَالِ أَمْنٍ وَارْفِ مَدِيدِهَا

فهو قائم بأمور الدين والملك ، ناشر ظلال العدل في أرجاء دولته ، يسهر لحفظ الأمن والإستقرار الذي تخلقى عنه كثير من الملوك ، وهو في نشاط دؤوب وهمة عالية في إعداد الجيوش والدعوة للجهاد، لأن همه وهدفه طرد وإجلاء الصليبيين الكفار من الأراضي العربية الإسلامية .

ثم يتغنى بشجاعته وقوة بأسه مع أعدائه الصليبيين قائلاً :

غدا ملوك الروم في دولته
لما أبت هاماتهم سجودها
إن فارقت سيوفه غمودها
قد ودت الفرج لو فرت نجت
قهرتها حتى لودحي
فقيدها

أَمَاتَهَا رُغْبُكَ فِي حَصُونِهَا كَأَنَّمَا حَصُونُهَا لِحَوْنِهَا

فهو مذل لملوك الروم والفرنج ، مقطع هاماتهم التي تسجد كرهاً بحد السيف
بعد أن استكبرت أن تسجد لله طوعاً .

وقد كان العماد من أبرز الشعراء الذين رافقوا الملك العادل نور الدين محمود ومدحوه وسجلوا مآثره وخلصوا وقائعهم وانتصاراته ، تاركاً أهله وأحبته خلفه ببغداد مشغولاً عنهم بالجهاد وبخدمة الملك العادل نور الدين محمود قائلاً : (١)

أَتَمَنَى فِي الشَّامِ أَهْلِي بَبْغَدَا دَ وَأَيْنَ الشَّامِ مِنْ بَبْغَدَا
مَا إِعْتِيَاضِي عَنْ حُبِّهِمْ يَعْلَمُ اللَّهُ لَهُ تَعَالَى ، إِلَّا بِحُبِّ الْجِهَادِ
وَاشْتَغَالِي بِخِدْمَةِ الْمَلِكِ الْعَا دَلِ مُحَمَّدٍ الْكَرِيمِ الْجَوَادِ
هُوَ نَعَمَ الْمَلَاذُ مِنْ نَائِبِ الدَّهْرِ رَ وَنِعَمَ الْمَعَاذُ عِنْدَ الْمَعَادِ

فقد أقبل العماد ينهل من معين ممدوحه الوفير ، ملازماً إياه تاركاً غيره من الملوك الذين لا يضاهونه عزة وكرامة ، وهو يستجير به من نائبات الدهر وهو نعم الملاذ وهو نعم الملجأ في الميعاد . وممدوحه جزيل العطاء كثير العطايا ينفق في مصالح الدين كل ما لديه من مال موروث وحديث ، وهو واسع العلم شديد التقى شديد الرأي ، يقول العماد في ذلك : (٢)

قَدْ وَرَدَتْ الْبَحْرَ الْخَضَمَ وَخَلْفَ تُمِ لَوْكَ الدُّنْيَا بِهِ كَالثَّمَادِ (٣)
الْغَزِيرُ الْأَفْضَالِ وَالْفَضْلُ وَالنَّارِ نِلِ ، وَالْعِلْمُ وَالتَّقَى وَالسَّدَادِ
بِاذِلٍّ فِي مَصَالِحِ الدِّينِ طَوْعاً مَا حَوَاهُ مِنْ طَارِفٍ وَتِلَادِ

١/ الديوان ص ١٢٥

٢/ المصدر نفسه ، ص ١٢٥

٣/ الثماد : جمع ثمد وهو الماء القليل

وفي ظل الدولة النورية يعيش شاعرنا هائناً سعيداً فيقول مصرحاً بذلك : (١)

بالمَلِكِ العادلِ مَحمُودٍ	أنجَزَتِ الأيامُ موعُودي
أسكنني الإقبالَ في ظِلِّهِ	وعادَ حظي مُورِقَ العُودِ
مَنْ لَمْ يَكُنْ في ظِلِّهِ سَاكِناً	فإنَّهُ ليسَ بِمَسْنُوعُودِ
وكيفَ لا يَسَعُ دُعْدُلُهُ	أقامَ بَيْنَ العدلِ والجُودِ
سفائنُ الآمالِ مِنْ جُودِهِ	قد استوتَ مِنّا على الجُودي (٢)

فقد كان البطل نور الدين يطرب لسماع شعر العماد الحماسي ، خاصة ما ينظمه العماد بعد كل معركة ينتصر فيها المسلمون على الصليبيين ويعود الجنود بالنصر والظفر ، فعندما خرج الفرنجة لغزو حوران ثم رحلوا راجعين حينما سار إليهم نور الدين ، قال نور الدين للعماد أما تصف ما نحن فيه يقصيدة (٣) فقال العماد : فارتجلت : (٤)

عَدَّتْ بِنَصْرِ كِرَايَةِ الإيمَانِ بَوْتُ لَعْنِ رَأْيَةِ الإحسانِ

ثم يمدح نور الدين ، ويمجد بطولته ويشيد بجهاده ووقوفه في وجه الزحف الصليبي قائلاً :

١ / / الديوان ص ١٣٨

٢ / الجودي : موضع وقيل جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة سيدنا نوح عليه السلام . وفي القرآن (استوت على الجودي) سورة هود ، آية ٤٤

٣ / خريدة القصر ، قسم الشام ١: ٥٣

٤ / الديوان ، ص ٤١٠

يا غالبَ الغُلبِ الملوكِ، وصائدَ الـ صيدِ اللُيُوثِ، وفارسَ الفُرسانِ

يا سالبَ التيجانِ مِنْ أربابِها حُزَّتْ الفخارَ على ذوي التيجانِ
محمودُ المحمودِ ما بينَ الوري في كلِّ إقليمٍ بكلِّ لسانِ
يا واحداً في الفضلِ غيرَ مُشاركٍ أقسمُ : ت: مالفِي البسيطةِ ثانِ

فالعماد يصوره تواقاً إلى الجهاد ، بل أن الجهاد أحلى أمانيه ، فإذا كان غيره يرى في الجهاد مصدر خطر على حياته، فهو يراه مصدر أمن وأمان فيقدم عليه ويفتح المدن والحصون ويخوض المعارك التي يطبق ذكرها الآفاق فيقول : (١)

أحلى أمانيكُ الجهادُ وإنه لكُمُ وذنُ أبداً بكلِّ أمانِ
كم بكرٍ فتحٍ ولدته ظُبُ حربٍ لقمعِ المشركينَ عَوانِ
كم وقعةٍ لك في الفرنج حديثُها قد سارَ في الآفاقِ والبلدانِ

ثم يقول ناظماً أوصاف ممدوحه الجلييلة من شجاعة ، وبسالة ، وبلاغة ، وعدل وذكر سائر في الآفاق، قائلاً : إن الوحي لو كان ينزل لنزلت في هذه الصفات سور من القرآن :

في بأس عمروٍ ، في بسالة حيدرٍ في نطقِ قُيسٍ ، في تُقي سلمانِ (٢)

١/ الديوان ، ص ٤١١
٢/ عمرو : هو عمرو بن عبدود الذي اجتاز الخندق إلى المسلمين فقتله علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وسلمان : هو سلمان الفارسي الصحابي المشهور كان تقياً ورعاً توفي سنة ٣٦ هـ ، (تهذيب تاريخ دمشق الكبير : ابن عساكر) أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي ، هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران ، دار السيرة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ، ٦ : ١٩٠)

عُمرانُ عدلٍ لطلبِ كائِـمـا قد عاشَ في أيامِكَ العمرانُ ^(١)
خلدتَ في الأفـاقِ ذِكْراً باقياً أبـدَ الزمانِ ببذلِ مالٍ فانـ
سـيـرٌ، لو أن الوحيَ ينزلُ أنزلتُ في شأنِها سُورٌ من القرآنِ ِ

ومن الأبطال والقادة الذين مدحهم العماد البطل صلاح الدين الأيوبي الذي تنبأ له شاعرنا العماد بان يحكم مصر ، وقد كان صلاح الدين حينذاك لا يزال جندياً في جيش نور الدين محمود وقد أشار العماد إلى ذلك في قصيدته التي مدح بها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين والتي استهلها بالغزل قائلاً : ^(٢)

يومَ النوى ليسَ مِن عـريِّ بمحسوب ولا الفراقِ إلى عيشي بمَنسُوب
ما اخترتُ بُعْدَكَ لَكِنَّ الزمـانَ أتى كَرهاً بما ليسَ يا محبوبُ محبوبي

إلى أن يقول مخاطباً نجم الدين أيوب :

أخوكِ وابْنُكَ، صدقاً منهما اعتصما باللهِ والنصرُ وعدٌ غيرُ مَكذوبِ
ها هـامانِ في يومِي وغـيِّ وقرئ تعودا ضربَ هامٍ أو عـراقـيبِ ^(٣)
غداً يشبان في الكفارِ نارَ وغـيِّ بلفحِها يصبُحُ الشبانُ كالشـيبِ

١/ العمران : ابو بكر وعمر رضي الله عنهما وقيل عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز

٢/ الديوان ، ص ٨٣

٣/ عراقيب : جمع عرقوب وهو عصب غليظ فوق العقب

بمُلكِ مصرَ ونصرَ المؤمنينَ غداً	تَظلي النفوسُ بتأنيسٍ وتطيب
ويستقرُّ بمصرَ يوسفُ وبه	تَقرُّ بعدَ التناهي عينُ يعقوب
ويلتقي يوسفُ فيها بأخوته	واللهُ يَجْمَعهم من غيرِ تشريب ^(١)
فأرجو الإلهَ ، فعن قُربِ بذُ صرته	سيكشفُ اللهُ بلوي كلِّ مكروب

وصدقت نبوءة شاعرنا إذ كان إنشاده لهذه القصيدة في أواخر شوال سنة اثنين وستين وخمسمائة وبعد سنتين تمكن صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه من فتح مصر ، وفي نفس السنة توفي عمه أسد الدين شيركوه وتولى صلاح الدين من بعده الحكم في مصر .

وقد أعجب العماد بشخصية صلاح الدين الأيوبي فمدح محاسن صفاته ومجد بطولاته، ومن ذلك هذه القصيدة التي رأى فيها الشاعر الناس قد تيمنوا بدولته الغراء ، ورأوها مصدر الصلاح والنصر والخير وترقبوا أن تشرق شمس التحرير على جميع ربي الشام فقال : ^(٢)

وللناسِ بالملكِ الناصرِ الصـ	لاحِ صلاحٍ ونصرٍ وخيرٍ
هو الشمسُ أفلاكُه في البلادِ	ومَطْلَعُه سَرَجُه والسريـ
إذا ما سطا أو حبا، واحتبى	فما الليثُ؟ مَنْ حاتمٌ؟ ما ثبيرٌ ^(٣)
لك الله في كل ما تبغيه	بحقٍ ظهيرٌ، ونعم الظهيرُ

١/ إشارة إلى قوله تعالى في سورة يوسف ، آية ٩٢ (قال لا تثريب عليكم)

٢/ الديوان ، ص ١٩٠

٣/ ثبير : من أعظم جبال مكة (معجم البلدان ٢٢ / ٧٢)

وفي قصيدة أخرى يشيد بشجاعته وفضله ورأيه وجوده وكرمه قائلاً : (١)

أَنْتَ مَنْ لَمْ يَزَلْ يَدُنْ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَهْدِ سَرْجُهُ وَالسَّرِيرُ
فَضْلُهُ فِي يَدِ الزَّمَانِ سَوَارٌ مِثْلَمَا رَأَيْهِ عَلَى الْمُلْكِ سُورُ
كَرَمٌ سَابِغٌ وَجُودٌ عَمِيمٌ وَنَدَى سَائِغٌ ، وَفَضْلٌ غَزِيرُ
رَاحَةٌ أَمْ سَحَابَةٌ وَبَنَانٌ أَمْ غَمَامٌ وَأَنْحَلٌ أَمْ بِحُورٌ؟

وقد اختط صلاح الدين لنفسه منهجاً واضحاً لسحق الصليبيين وطردهم من البلاد الإسلامية، يتضح ذلك في القصيدة التي هناها بها العماد حينما انتصر على الصليبيين واستولى على قلعة منبج قائلاً : (٢)

نِزْوَةٌ كَفِي مَنبَجٍ عَلَى الظَّفَرِ الْمُبْهَجِ
وَنُجْحُكَ فِي الْمُرْتَجَى وَفَتْحُكَ لِلْمُرْتَجِ
دَلِيلٌ عَلَى كُلِّ مَا تَحَاوَلُ أَوْ تَرْتَجِي
إِمُّ سُرُورٌ كَفِي مَا تَرَوُ مُمْ وَاضِحَةٌ الْمُنْهَجِ

وحينما حقق صلاح الدين الأيوبي الحلم العربي وفتح القدس وطهر المسجد الأقصى من دنس الغزاة والمحتلين، سرت في الأمة العربية فرحة كبيرة تردد صداها في كل البلاد العربية وعبر عنها الشعراء ، وقد عبر العماد عن

١/ الديوان ، ص ١٨٠

٢/ المصدر نفسه ص ١٠٣

هذه الفرحة بقصيدة طويلة جداً ، دلت على مدى عاطفته الفياضة وفرحته بهذا النصر فاستهلها بقول : ^(١)

أَطِيبْ بِأَنْفَاسٍ تَطِيبُ لَكُمْ نَفْساً وَتَعْتَاضُ مِنْ ذِكْرَاكُمْ وَحْشَتِي أَنْسَا

إلى أن يقول في مدح صلاح الدين الأيوبي :

رَأَيْتُ صَلاَحَ الدِّينِ أَفْضَلَ مَنْ غَدَا وَأَشْرَفَ مَنْ أَضْحَى وَأَكْرَمَ مَنْ أَمْسَى
وَقِيلَ لَنَا فِي الْأَرْضِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ وَلَسْنَا نَرَى إِلَّا أَنْـأَمْلُهُ الْخَمْسَا
سَجِيَّةُ الْحُسْنَى وَشِيْمَةُ الرِّضَا وَبَطْشَةُ الْكُبْرَى وَعَزْمَةُ الْقَعْسَا ^(٢)
فَلَا عَدَمْتُ أَيَّامَنَا مِنْهُ مَشْرِقاً يَنْيرُ بِمَا يُولِي لِيَا لِيْنَا الْفَسَا ^(٣)

فيمدحه فيها بكرمه الفياض ، وبخلاله الحميدة ، وبشجاعته وهمته العالية .
ثم يصفه بأنه وحده من دون الناس استطاع أن يفتح القدس ويطهرها من
رجس الصليبيين وينزع عنها لباس الكفر والشرك ويلبسها لباس الإيمان
والأمان ويستبدل فيها ضرب الناقوس بالأذان على منابرها فيقول : ^(٤)

فَلَا يَسُدُّ تَحْقُ الْقُدْسَ غَيْرُ كَفِي الْوَرَى فَأَنْتَ الَّذِي مِنْ دُونِهِم فَتَحَ الْقُدْسَا
وَمِنْ قَبْلِ فَتَحِ الْقُدْسِ كُنْتَ مُقْدَساً فَلَا عَدَمْتُ أَخْلَاقُكَ الطَّهْرَ وَالْقُدْسَا

١/ الديوان ، ص ٢٣٠

٢/ القعسا : الثابتة العالية

٣/ ليالينا الدمسا : أي المظلمة

٤/ : الديوان ، ص ٢٣٢

وطهرته من رجسهم بدمائهم فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها وألبسها الدين الذي كشف اللبسا^(١)
وعادت ببيت الله أحكام دينه فلا بطركاً أبقيت فيها ولا قسا^(٢)
وقد شاع في الآفاق عنكشارة^(٣) بأن آذان القدس قد أبطل النقسا

وقد كان المسلمون في حالة يأس شديد من إرجاع القدس إلى حوزة
الإسلام فلما فتح صلاح الدين القدس صعب عليهم تصديق ذلك الفتح ،
وأعتبروه من المعجزات التي أجراها الله على يدي صلاح الدين ويصرح
العماد بذلك قائلاً : (٣)

جنوكم ملاك السماء وظنهم عداك كجن الأرض في الفتك لا الإنسا
جرى بالذي تهوى القضاء وظاهرت ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا

ويرى شاعرنا العماد، أن فتح القدس هذا يضاهي فتح مكة زمن الرسول
صلى الله عليه وسلم ، وقد أزال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم الأزام
والأنصاب كذلك فقد أزال صلاح الدين الأيوبي عن القدس صليب
الصلبوت وطهرها من دنس الصليبيين ورجسهم ، فيقول العماد : (٤)

١/ اللبس ، اختلاط الأمر والغموض

٢/ البطرك : رئيس رؤساء الأساقفة على أقطار معينة أو في طائفة من الطوائف المسيحية

٣ / الديوان ، ص ٢٣١

٤ / الديوان ، ص ٧٥

نَصْرُ أَعَادَ صَلاَحَ الدِّينِ رَوْنَقَهُ إِجَازُهُ بِبَلِيغِ الْقَوْلِ إِسْهَابُ
أَحْيَا الْهُدَى، وَأَمَاتَ الشِّرْكَ صَارُمَهُ لَقَدْ تَجَلَّى الْهُدَى، وَالشِّرْكَ مُنْجَابُ
بَفَتْحِهِ الْقُدْسَ لِلْإِسْلَامِ قَدْ فُتِحَتْ فِي قَمْعِ طَاغِيَةِ الْإِشْرَاكِ أَبْوَابُ
فَفِي مُوَافَقَةِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ لِلـ بَيْتِ الْحَرَامِ لَنَا تِيَةٌ وَإِعْجَابُ
وَالصَّخْرُ وَالْحَجَرُ الْمَلْتَوْمُ جَانِبُهُ كَلَاهَا لِاعْتِمَارِ الْخَلْقِ مِحْرَابُ
نَفَى مِنَ الْقُدْسِ صُلْبَانَا كَمَا نَفَيْتُ مِنْ بَيْتِ مَكَّةَ أَزْلَامٌ وَأَنْصَابُ
(١)

ومن الأبطال الذين مدحهم شاعرنا العماد القائد أسد الدين شيركوه ، وقد
كان قائداً وبطلاً في جيش نور الدين محمود . فعندما رجع شيركوه من
مصر إلى دمشق مدحه العماد بقصيدة استهلها بقوله : (٢)

بَلَّغْتَ بِالْجِدِّ مَا لَا يَبْلُغُ الْبَشَرُ وَنَلْتَ مَا عَجَزَتْ عَنْ نَيْلِهِ الْقَدَرُ
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

أُورِدْتَ خَيْلاً بِأَقْصَى النِّيلِ صَادِرَةً عَنِ الْفُرَاتِ يَقَاضِي وَرْدَهَا الصَّدْرُ
تَنَاقَلَتْ ذِكْرَكَ الدُّنْيَا، فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا حَدِيثُكُمَا بَيْنَ الْوَرَى سَمَرُ

١ / / روى ابن هشام : عن ابن عباس قال : دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح على راحلته فطاف
عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب في يده إلى الأصنام
ويقول : جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً ، فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه ولا
أشار لقفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقي منها صنم إلا وقع . (السيرة النبوية : ابن هشام ، تحقيق وضبط الاساندة :
مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ الشلبي ، منشورات دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ،
الجزء الرابع ، ص ٥٩ .)

٢ // الديوان ، ص ١٦٩

فَأَنْتَ مَنْ زَانَتْ الْأَيَّامُ سِيرَتَهُ	وزادَ فوقَ الَّذي جَاءَتْ بِهِ السَّيْرُ
لو في زمانِ رسولِ الله كنتَ، أَتَتْ	في هذه السيرةِ المحمودَةِ السُّورُ
أَصْبَحْتَ بِالْعَدْلِ وَالْإِقْدَامِ مُنْفَرِداً	فَقُلْ لَنَا :أَعْلَى أَنْتَ أَمْ عَمْرُ؟
إِسْكَندَرَ ذَكَرُوا أَخْبَارَ حِكْمَتِهِ	وَنَحْنُ فِيكَ رَأَيْنَا كُلَّ مَا ذَكَرُوا
وَرُسْتَمَ خَبَرُونَا عَنْ شَجَاعَتِهِ	وَصَارَ فِيكَ عَيْنَانَا ذَلِكَ الْخَبْرُ

فالشاعر في هذه القصيدة يمجّد بطولة أسد الدين شيركوه ، التي ملأت الأرض وصارت حديث الناس في سمرهم حتى أصبحت سيرته تفوق السير جميعا ، بل يزعم الشاعر أن شيركوه لو عاش في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لأنزلت في شأنه سور القرآن ، ويشبّهه بسيدنا علي في شجاعته وبسيدنا عمر في عدله ، ويفضّله على الاسكندر المقدوني وعلى رستم الفارسي .

وفي قصيدة أخرى يبين لنا الشاعر ما حل بالمسلمين من ضعف وذلة وهوان قبل الدولة الزنكية وقبل تولي أسد الدين شيركوه لقيادة جيش المسلمين ، ثم ما أحدثه هذا القائد في صفوف الصليبيين خاصة وأعداء المسلمين عامة فيقول : (١)

شَكَا إِلَيْكَ بَنُو الْإِسْلَامِ يُتَمِّهِمْ	فَقَمَّتْ فِيهِمْ مَقَامَ الْوَالِدِ الْحَدَبِ
فِي كُلِّ دَارٍ مِنَ الْإِفْرَنْجِ نَادِبَةٌ	بِمَا دَهَاهُمْ، فَقَدْ بَانُوا عَلَى نَدَبِ
وَحِينَ سَرَتْ إِلَى الْكُفَّارِ فَانْهَزَمُوا	نُصِرْتَ نَصَرَ رَسُولِ اللَّهِ بِالرُّعْبِ

يا محيي الأمة الهادي بدعوته للرشد كل غوي منهم وغبي
لما سعت لوجه الله مُرتقباً ثوابه ، نلت عفواً كل مُرتقب
أعدت نعمة مصر نعمةً ، فعدت تقول : كم نكت لله في النكب
رُد الخلافة عباسية ، ودع الد عي فيها يصادف شر مُنقلب ١

ومن القادة والأمراء الذين مدحهم العماد الملك المظفر تقي الدين عمر
فقد مدحه بقصيدة طويلة بلغت سبعة وتسعين بيتاً منها قوله : (١)

رحيبُ الصدرِ طلقَ الوجهَ ثبُتَ الد جَنانِ نديِ المَحيا واليمينِ
غزيرُ الفضلِ جَمُّ الجودِ مَنَّكَ عديمُ المَثَلِ مَفَقْدُ — ودِ القَرينِ
أخوا العزمِ المؤيدِ بالمساعي الد تي نَجَحَتْ وذو الرأيِ المَتينِ
فَعِنْدَ الجودِ كالجودِ انـدفاعاً وعِنْدَ الحلمِ كالطودِ الرصينِ (٢)

فمدحه فيها بطيب الخلق والكرم الفياض الذي لا يضاهي ومدحه كذلك
بالحلم وقوة العزم وسداد الرأي.

وفي قصيدة أخرى يؤكد العماد أن شجاعة تقي الدين عمر قد نشرت الذعر
في صفوف الصليبيين حتى خافت الأجنة في بطون الأمهات ، وأشاد بفتكه
للصليبيين يوم الرملة حين عم الذعر جيشهم وأوى منه المسلمون إلى ركن
حصين فقال : (٣)

١ / الديوان ، ص ٤٢٦

٢ / الجود الأولى : العطاء والسخاء ، والجود والثانية : المطر الغزير : الطود : الجبل

٣ / الديوان ، ص ٤٢٩

أَخَفَّتْ الشَّرَائِحِي الذَّعَرَ مِنْهُمْ يَرَى - قَبْلَ الْوَدَلَةِ - فِي الْجَنِينِ
 وَيَوْمَ الرَّمْلَةِ الْمَرْهُوبِ بِأَسَا تَرَكْتَ الشَّرَّ رُكْمُنْزَعِجَ الْقُطَيْنِ
 وَكُنْتَ لِعَسْكَرِ الْإِسْلَامِ كَهْفًا أَوَى مِنْهُ إِلَى حَصْنِ حَصِينِ
 وَقَدْ عَرَفَ الْفَرَنْجُ سُدَّ طَاكَ لَمَّا رَأَوْا آثَارَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ
 وَأَنْتَ تَبْتَذِنُ الدِّينَ تَحْمِي حَمَاهُ أَوَانَ وَلِي كُـ لُـ لُـ

ومجد العماد كذلك القضاة والعلماء من أعيان عصره فقال يمدح أستاذه
 ابن عسرون بعلو الهمة والمكانة العلمية السامية قائلاً : (١)

أَيَا مَنْ لَهُ هِمَّةٌ فِي الْعُلَى لَذَرَوْتَهَا أَبَدًا فَارَعًا
 وَمَنْ كَفَّهُ دِيمَةً مَا تَزَا لُ بِالْعَرَفِ هَامِيَةً هَامِعَةً
 وَلِلْفُضْلِ فِي سَوْقِ أَفْضَالِهِ بَضَائِعُ نَافِقَةٍ نَافِعَةٍ
 وَهَلْ كَابُنَ عَصْرُونَ فِي عَصْرِنَا إِمَامٌ أَدَلَّتُهُ قَاطِعَةٌ
 فَخَيْرُ فَوَائِدِهِ جَمَّةٌ وَبَحْرُ مَوَارِدِهِ وَاسِعَةٌ

ومدح كذلك من العلماء الشيخ تاج الدين أبو اليمن الكندي (٢) وفضله على
 أبوتام والبحتري قائلاً : (٣)

١ / الديوان ، ، ص ٢٩٣

٢ / تاج الدين هو أبو اليمن زيد بن الحسين الكندي ، البغدادي المولد والمنشأ ، الدمشقي الدار والوفاة ، المقرئ
 النحوي الأديب ، توفي سنة ٦١٣ (وفيات الأعيان ٢: ٣٣٩)
 ٣ / الديوان ، ص ٢١٦

يدين حبيب والوليد لنظمه ويحمه عبد الحميد لنثره^(١)
ولو عاش قس في زمان بيانه كان مشيداً في البيان بشكره^(٢)
فضائله كالشمس نوراً ولم تزل مناقبه في الدهر أعداد زهره

ومدح القاضي الفاضل بعدة قصائد منها تلك القصيدة التي مدحه فيها
بالبلاغة والفصاحة وبلوغ المدى في الكتابة قائلاً : ^(٣)

ولقيت سحبان البلاغة ساحباً ببيانه ثوب الفخار لوائه^(٤)
أبصرْتُ قساً في الفصاحة معجزاً فعرفتُني في فهاهة باقل^(٥)
دلف الفصاحة والحصافة والسماحة والحماسة والنقى والنائل

حتى يقول في كتابته :

١/ حبيب بن اوس ، أبو تمام الطائي المتوفى سنة ٢٣١ هـ ، الوليد بن عبيد بن يحيى ، أبو عبادة البحتري المتوفى سنة ٢٨٤ هـ ، عبد الحميد بن يحيى بن سعد الكاتب المشهور المتوفى سنة ١٣٢ هـ ،
٢ / قس بن ساعدة الإيادي ، أحد حكماء العرب ، ومن خطبائهم في الجاهلية ، كان أسقف نجران طالت حياته وأردركه النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ورآه في عكاظ (الأغاني : لأبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، د. ت. ٢٤٦/١٥)
٣ / الديوان ، ص ٣٤١
٤ / سحبان بن زفر بن إياس الوائلي : خطيب يضرب به المثل في البيان ، اشتهر في الجاهلية وعاش زمناً في الإسلام ، أسلم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأقام في دمشق أيام معاوية وتوفي سنة ٥٤ هـ (خزنة الأدب ٣٤٧ : ٤ ولب لباب لسان العرب : الشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي ، دار صادر بيروت ، د. ت. ٣٤٧/ ٤)
٥ - الفهاهة : العي ، باقل اسم رجل يضرب به المثل في العي ، وفي المثل (أعيان من باقل) (المثل السائر ، ٦٧٣/١)

في كفه قلمٌ يُعجلُ جريهُ ما كان من أجلٍ ورزقٍ آجلٍ
نابتُ كتابتهُ منابَ كتيبةٍ كُفِلَتْ بهزمِ كتائبٍ وجَّ حافلٍ
بیراعه أبدأ يُراعي عالمٌ في سربه ويُراعُ سربُ الجاهلِ

والعماد بمدائحه استطاع أن يكسب ود ممدوحيه وكرمهم وأن يحث القادة
والأبطال على الجهاد ومناهضة العدو الصليبي لاسترداد شرف الأمة
ومقدساتها وعزتها وكرامتها .

الرثاء :-

الرثاء لغة هو مدح الرجل بعد موته ، وبكاؤه وتعدد محاسنه ، ونظم الشعر فيه (١) ، ويقال النائحة ترثى الميت وتترحم عليه وتندبه (٢). والندب كالرثاء بكاء الميت وتعدد محاسنه (٣) . ومثل الرثاء التأبين وهو الثناء على الشخص بعد موته (٤) .

والرثاء في استعمال الأدباء والنقاد لا يبعد كثيرا عن دلالاته اللغوية ويرادف معنى التأبين عندهم فيقول ابن سلام الجمحي: (التأبين مدح الميت والثناء عليه) (٥) .

ولما كانت مضامين الرثاء تقوم على تعداد محاسن الميت ومزاياه ومناقبه فإن النقاد العرب لا يفرقون بين الرثاء والمدح رغم اختلاف المواقف بينهما، فالمدح هو خلع الصفات الحميدة والفضائل على الشخص الحي فهو يشبه إلى حد ما الثناء على الميت وبكاء فضائله ، فابن رشيق القيرواني لا يفرق بين الرثاء والمدح، ويصرح بذلك قائلا : (وليس بين الرثاء والمدح فرق ، إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل كان أو عد منا به كيت وكيت وما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت) (٦) وقدامة بن جعفر يجعل المدح والرثاء شيئا واحدا فيقول: (ليس بين المرثية والمدحة فضل إلا أن

١ / أنظر لسان العرب مادة "رثأ، رثا " والقاموس المحيط "رثا ، ورثى" ص ٣٣٤

٢ / أساس البلاغة : الزمخشري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان دت ص ٢٢٠

٣ / القاموس المحيط : الفيروز ابادي، دار الجيل ، بيروت دت . الجزء الرابع ص ٣٣٤

٤ / القاموس المحيط نفس الصفحة السابقة .

٥ / طبقات فحول الشعراء ، ١ : ٢٠٩ .

٦ / / العمدة ١١٧/٢

يذكر في اللفظ مايدل على أنه لهالك مثل كان وتولى وقضى نحبه وما أشبه ذلك (١).

ويتضح من عدم تفريق النقاد العرب بين المدح والثناء أنهم تجاهلوا الحالة النفسية والشعورية لكل من المادح والرائي ، فهم نظروا الى شكل الشعر دون جوهره والى ظواهره دون دوافعه ومثيراته ، والأحاسيس الكامنه وراءه فلا شك أن الدافع النفسي والشعوري للمادح يختلف عنه عند الرائي وإن التجربة الشعرية عند كل منهما مغايرة لها عند الآخر . لأن المدح إنما يصدر عن الإعجاب بالمدوح . والثناء لا يصدر إلا عن اللوعة والأسى والحزن والفجيرة والإحساس بالفقد.

ومن العناصر الأساسية التى تميز الثناء عن المدح هو بكاء الميت وإظهار اللوعة والأسى لفقدانه خاصة إذا كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا فيقول ابن رشيق: (وسبيل الثناء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا) (٢).

والثناء موضوع رئيس في القصيدة الجاهلية اهتم به جميع الشعراء ، واشتهرت الخنساء من خلال هذا الفن، ويدل على ذلك ما أورده ابن قتيبة من خبر الخنساء حين أنشدت رثائيتها الرائية على مسامع حكم الشعراء (النابعة الذبياني). والتى مطلعها: (٣)

١/ نقد الشعر: قدامة بن جعفر ، تحقيق محمد عبدالمنعم خلفا . الطبعة الاولى ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م ، الناشر

مكتبة الكليات الازهرية — الازهر القاهرة ، ص ١١٨

٢/ العمدة ١٤٧/٢

٣/ ديوان الخنساء : بيروت — دار صادر للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ م ، ص ٤٧.

قَدْزى بَعِينِكَ أُم بِالْعَيْنِ عَوَارُ أُمٌ ذُرْفَتْ أَنْ خَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَارُ

فقال لها : لولا أن أبا بصير— يريد الاعشى — أنشدنى (آفا) لقلت إنك أشعر
الجن والإنس(١).

فالرثاء غرض شعري قديم ارتبط بمشاعر النفس الإنسانية وأخذ صفة
الحزن والتأثر الشديد بفقد الأهل والأحباب .

والحزن على الميت نوعان : نوع مجرد من العاطفة والمشاعر
ويطلق عليه الحزن العقلى ونوع آخر مرتبط بعاطفة الإنسان ويسمى
بالحزن القلبى ، وأجود أنواع الرثاء هو ما جمع بين حزن العقل والقلب معا.
وكلما كان حزن القلب أكبر كلما كان الرثاء أجود وأعمق وأبلغ تأثيرا على
النفس. والرثاء في مجمله يشتمل على ثلاثة ألوان هي:-

الندب: وهو التوجع والتفجع والنواح والبكاء على الميت ، لذلك فهو
محصور في الأهل والأقارب والنفس، وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم
والدول والبلدان .

التأبين: هو ذكر فضائل الميت متعددين مآثره وذكر أوصافه ومحاسنه ،
وتأثير المجتمع بفقده ، فهو أقرب الى المدح لكنه مفعم بالوجد والأسى ،
وجعل التأبين للمواقف الرسمية ، فخص به الخلفاء والعلماء والوزراء .

العزاء: وأصله الصبر ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت
وهو مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين إذ ترى الشاعر ينفذ من حادثة الموت
الفردية التى بصدها الى التفكير في حقيقة الموت والحياة وحكمة الوجود

١/ الشعر والشعراء ، ص ٣٥١

والقضاء والقدر وقد ينتهى به هذا التفكير إلى معاني فلسفية عميقة ، وهو يدعو إلى السلو والتصبر(١).

وإذا نظرنا إلى مراثى العماد ، وهى قليلة جدا في ديوانه إستوقفنا فيها العاطفة الصادقة النابعة عن شعور حقيقى، فالشاعر قد درج على رثاء أناس جمعتهم بهم صلة حميمة بعضها شخصى وبعضها اجتماعي ، ولذلك نراه يبكيهم بكاء حارا، ويشغل بوصف حزنه على فراقهم وما خلفه موتهم من جروح لا تندمل ، وقد نهج في رثائه نهج الشعراء الأقدمين فهو يمزج في رثائه بين الندب والتأبين والعزاء.

ومن مراثى العماد في ندب الأهل والأحباب والأصدقاء وبكائه عليهم هذه المراثية التى نظمها حينما توفى صاحبه المعتمد إبراهيم ، فرثاه بألفاظ حرة ، وعاطفة حزينة ، وأحاسيس صادقة ، في أبيات تعبر عن شعور عميق بالحرز والأسى قائلا(٢).

أرى الحزن لايجدى على مَنْ فقدتْ ولو كان في حُزني مَزِيدُ لذتُهُ
تَغَيَّرَتِ الأحوالُ بعدَكَ كدُّ لُـها فليستْ أرى ألفيا على ما
عهدتُهُ

عَ قدْتُ بك الإيمانَ بالنُجْحِ واثقاً فدَ لْتُ يَلْاقدارِ ما قد عقدتُهُ
أردْتُ لك العُمَرَ الطويلَ فلم يكنْ سوى ما أَرَادَ اللهُ لا ما أردتُهُ
فيا وَحشةً مِنْ مُؤنسٍ قد عَدِمتهُ ويا وَحدةً مِنْ صَاحِبٍ قد فقدتُهُ

فالشاعر في هذه المراثية يظهر لهفه وحزنه وحرقته وتغيير أحواله بعد فقد

١ / فن الرثاء : شوقي ضيف ، الطبعة الثانية، دار المعارف القاهرة ١٩٩٥ م ، ص ٦ .

٢ / الديوان ص ٩٧

صديقه ويظل وفيًا له حتى بعد موته قائلاً لو كان هذا الحزن يجدى لزدته حزناً ، ثم يخاطب الفقيد ويثته حزنه ، ونلاحظ معاني الصداقة الحقة عنده حين يصف فقد صديقه فتتغير الأحوال كلها، فلا يرى حقائق الأشياء كما كان يراها في وجوده ، فقد أصبح حزينا كئيبا إسودت الدنيا في عينيه ، فهو لا يرى شيئاً جميلاً بعده، ورغم هذا الحزن فهو مؤمن قوى الإيمان بقضاء الله وقدره . وقد كان يتمنى لصديقه العمر الطويل ولكن إرادة الله غير ذلك فيقول العماد أنه راضٍ بهذا القضاء وليس لنا إلا ما أراد الله.

وحينما وصل إليه خبر وفاة أخيه عثمان وهو عائد من الحج سنة ٥٤٩ هـ رثاه بمقطوعه حزينة تطالعنا فيها معاني الفقد، رزينة، والعواطف حزينة، فيصف فقيده الذي دفنه بأنه ضوء عينه الذي يبصر به ويجعل قلبه قبراً له حتى لا ينساه ، ويؤكد هذا المعنى في البيت الثاني قائلاً إن مكانه بين أقرانه وأنداده وليس مكانه هذا القبر فيقول : (١)

سقى الله إنساناً لعيني دَفْنَتْهُ على رَغَم أنفي جاعلاً قبره قلبي
فلا تحسبوا أن الترابَ ضريحه فمنزلُهُ بين التَّوائب لا التُّرْبِ
وأحسب أن هذه المقطوعة هي خاتمه لمرثية طويلة مفقودة ، لأنها تبدأ بالدعاء للفقيد بالسقيا، والدعاء بالسقيا يكون دائماً في ختام المراثي العربية الجاهلية وقد انتهج العماد في مراثيه نهج الشعراء القدامى.

فالعماد لم يرث أحدا من أسرته خلا أخاه عثمان بهذين البيتين فقط ، وهذه الظاهرة تجعلنا نتساءل هل لم يرثهم العماد أصلا ، أم رثاهم وضاع شعره في رثائهم ؟ وأكبر ظننا أنه قد رثاهم وضاع شعره في رثائهم مع ما ضاع من شعره. وهذان البيتان في رثاء أخيه عثمان هما أكبر دليل على ضياع شعره لأنهما ختام للمرثية المفقودة.

ورثى العماد كذلك قادة وأبطال الجهاد الذين نافحوا الأعداء الصليبيين الذين اغتصبوا الأراضي العربية الإسلامية، وبكاهم بكاء مرا لأن موت بطل من هؤلاء الأبطال يعد خسارة كبيرة على الإسلام والمسلمين ، فقد رثى العماد القائد المجاهد نور الدين محمود زنكى بعدة مقطوعات وقصيدة واحدة ، فيقول في إحدى مقطوعاته يندبه ويتحسر على فقده ويذكر جوده وفضله قائلا (١):

يا مَلِكاً أَيامُهُ لَمْ تَزَلْ	بِفَضْلِهِ فَاضِلَةً َفَاخِرَةً
غَاضَتْ بِحَارُ الْوُجُودِ مَذْ غُيِبَتْ	أَنْمَدُ كَلَفَافَائِضَةَ الزَّاخِرَةِ
مَلَكْتَ فَيَاكَ وَخَلَفَتْهَا	وَسِرَّتْ حَتَّى تَمْلِكَ الْآخِرَةَ

وفي مرثية أخرى يتصور العماد أن العدل لم يكف عن البكاء منذ توارى نور الدين ، وأن الدنيا قد أظلمت لأنها فقدت كل نور وأن الشمس لم تشرق وأن الأرض قد فقدت الخصب وأصابها القحط والمحل ، ثم يصور ما حل بالمسلمين بعد رحيل نور الدين من شتات وتفرق وما دهمهم من

خطوب وغزو الصليبيين لهم ، حتى كادوا أن ينتصروا عليهم فيقول (١):

لِفَقْدِ الْمَلِكِ الْعَادِ	لِيبْكِي الْمُلُكُ وَالْعَدْلُ
فَأَيْنَ الْكِرْمُ الْعِـ	وَأَيْنَ النَّائِلُ الْجَزْلُ؟
وَقَدْ أَظْلَمَتِ الْآفَا	قُ ، لَا شَمْسٌ وَلَا ظِلُّ
وَلَمَّا غَابَ نُورُ الدِّيـ	نَ عَنَّا أَظْلَمَ الْحَفْلُ
وَزَالَ الْخِصْبُ وَالْخَيْرُ	وَزَادَ الشَّرُّ وَالْمَحْلُ
وَمَاتَ الْبَأْسُ وَالْجُـ	دُوعَاشَ الْيَأْسُ وَالْبُخْلُ
وَعَزَّ النِّقْصُ لَمَّا هَا	نَ أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْفَضْلُ
وَمَذْفَارِقَ أَهْلِ الْخِيـ	رٍ مَاضٍ لَهُ شَمْلُ
وَكَادَ الدِّينُ نَحْطُ	وَكَادَ الْكُفْرُ أَنْ يَعْثُو

ورثاه العماد بقصيدة أخرى طويلة أظهر فيها تحسره وتفجعه لما أصاب الإسلام والمسلمين من البلاء العظيم لموت نور الدين، وصور فيها كذلك أسفه العميق خاصة بعد أن طمع الفرنج في البلاد من جديد، لما دب الخلاف في عهد ولده الصالح إسماعيل ، واستهل العماد مرثيته هذه بتصوير الحزن الذي خيم على الأمة الإسلامية ، وأهاب بالمسلمين جميعا أن يبكوا حاميتهم وحصنهم المنيع قائلا : (٢)

١/ الديوان ، ص ٣٣٦

٢/ المصدر نفسه ، ص ٢١٢ .

الدينُ في ظُلمٍ لَغِيبةِ نُورِهِ والدهرُ في غمٍ لِفقدِ أميرِهِ
فدْ يُنبِ الإسلامُ حامى أهلهِ والشامُ حافظُ مُلكِهِ وثغورهِ
ما أعظمَ المقدارَ في أخطاره إذ كانَ هذا الخطبُ في مقدورهِ
ما أكثرَ المتأسفينَ لِفقدِ مَنْ قرّتْ نواظرهم بِفقدِ نظيرِهِ !
ما أعوصَ الإنسانَ في نسيانهِ أو ما كفاءُ الموتِ في تذكيرِهِ

فقد استهل الشاعر مرثيته هذه بذكر خسارة الإسلام والمسلمين لفقد نور الدين ، وبدأ يلطم ويندب معدداً خدمات الفقيد في سبيل نصره دين الله بجهاده للصليبيين ، ونشر العدل والأمن في ربوع البلاد ، وإعادة الطمأنينة الى قلوب المؤمنين ، فالدين الإسلامي أظلم بعد ضيائه ، و الدهر أصيب بالغم والحسرة لفقد أميره وحاكمه ، وليس على الإسلام إلا أن يندب حظه العاثر لموت نور الدين حامى أهله في الشام والمدن الأخرى وليشاركوا جميعهم في البكاء والتحسر لأن تغور البلاد الإسلامية أصبحت من بعده معرضة للإخطار الصليبية ومهددة بالضياع .

وبعد هذه المقدمة الحزينة يظهر العماد تفجعه على الإسلام بعد أن فقد حاميه وناصره ويستشعر الفراغ الكبير الذى تركه نور الدين في حياة المسلمين قائلاً:

مَنْ ينصرُ الإسلامَ في غزواتِهِ فلقد أُصيبَ بركنِهِ وظهيرِهِ
مَنْ للفرنجِ مَنْ لَأَسْرِ ملوكها مَنْ للهُدَى يبغي فكاكَ أسيرِهِ
مَنْ للخطوبِ مُذْلاً لجماحها مَنْ للزمانِ مُسهلاً لوعورِهِ

مَنْ لِلْبِلَادِ وَمَنْ لِنَصْرِ جِيُوشِهَا مَنْ لِلجِهَادِ، وَمَنْ لِحِفْظِ أُمُورِهِ
مَنْ لِلْفَتْوحِ مَحَاوِلًا أَبْكَارَهَا بِرَوَاحِهِ فِي غَزْوِهِ وَبِكُورِهِ
مَنْ لِلْعُلَى وَعُهُودَهَا مَنْ لِلنَّدَى وَوَفُودِهِ مَنْ لِلْحِجَا وَوَفُورِهِ
مَا كُنْتُ أَحْسَبُ نَوْرَ دِينَ مُحَمَّدٍ يَخْبُو لَيْلُ الشَّرْكِ فِي دِجُورِهِ

ففي هذه الأبيات يندبه العماد قائلًا : من لنصرة الإسلام والمسلمين
بعد وفاة نور الدين ، ومن لهزيمة الفرنج وأسر ملوكها ومن يتولى قيادة
المسلمين للجهاد والنصر؟ ليس لكل هذه الأمور إلا نور الدين .

ويظهر أسفه البالغ على الشريعة المحمدية التي فقدت مُحييها ، الذي
أقام معالمها الواضحة ، وعلى الحصون الإسلامية التي فقدت حاميتها الذي
كرس حياته للحفاظ عليها وأحاطها بالأسوار والخنادق وكان دأبه قتل قادة
الفرنج وأسرهم والإستيلاء على معقلهم وحصونهم قائلًا :

أَنْتَ الَّذِي أَحْيَيْتَ شَرْعَ مُحَمَّدٍ وَقَضَيْتَ بَعْدَ وَفَاتِهِ بِنُثُورِهِ
كَمْ قَدْ أَقَمْتَ مِنَ الشَّرِيعَةِ مَعْلَمًا هُوَ مِنْذُ غَبَتْ مُعْرَضٌ لِثُورِهِ
كَمْ قَدْ أَمَرْتَ بِحَفْرِ خَنْدَقٍ مَعْقِلٍ حَتَّى سَكَنْتَ اللَّحْدَ فِي مَحْفُورِهِ
كَمْ قَيَّصَرِ لِلرُّومِ رُمْتَ بِقَسْرِهِ إِرْوَاءَ بَيْضِ الْهِنْدِ مِنْ تَامُورِهِ
أُوتِيتَ فَتَحَ حَصُونِهِ ٤ وَمَلَكَتْ عُنْ رَ بِلَادِهِ وَسَبِيتَ أَهْلَ قُصُورِهِ

وفي نغمة حزينة يتحسر الشاعر على وفاة ذلك المجاهد البطل الذي لم
يمهله القدر طويلا حتى ينجز ما وعد به من فتح القدس وتطهيره من دنس
الأعداء الصليبيين قائلًا :

أَزْهَدْتُ فِي دَارِ الْفَنَاءِ وَأَهْلِهَا وَرَغَبْتُ فِي الْخُلْدِ الْمَقِيمِ وَحُورِهِ

أوما وَعَدْتَ الْقُدْسَ أَنْكَ مُنْجِرٌ مِيعَادُهُ فِي فَتْحِهِ وَظَهْرُهُ
فَمَتَى تَجِيرُ الْقُدْسَ مِنْ دَنَسِ الْعَدَا وَتُقَدِّسَ الرَّحْمَنَ فِي تَطْهِيرِهِ ۝

وفي آخر القصيدة يخاطب حملة نعشه طالبا إليهم أن يتمهلوا حتى يودعه
الوداع الأخير قائلا:

يَا حَامِلِينَ سَرِيرَهُ: مَهْلًا فَمَنْ عَجَبَ نَهْوَضَكُمْ بِحَمْلِ ثَبِيرِهِ
يَا عَابِرِينَ بِنَعْشِهِ: أَنْشَقْتُمْ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ نَشْرَ عَبِيرِهِ ۝

ثم يختم مرثيته كعادة الشعراء الجاهليين باستئصال الرحمة على
قبره والدعاء للفقيد بأن يسكنه الله فسيح جناته مع الصديقين والشهداء قائلا :

حَيَّاكَ مَعْتَلُ الصَّبَا بِنَسِيمِهِ وَسَقَاكَ مُنْهَلُ الْحَيَا بِوُورِهِ
وَسَكَنْتَ عَلَيْنَ فِي فَرْدَوْسِهِ حَلَفَ الْمَسْرَةِ ظَافِرًا بِأَجُورِهِ

وظل العماد وفيما لنور الدين حتى بعد وفاته فحينما مدح العماد
البطل صلاح الدين الأيوبي الذي تولى قيادة المسلمين بعد نور الدين لم ينس
العماد أن ينوه بما حاق بالدين من ضرر وما أحاطه من ظلام لفقد نور الدين
قائلا (١):

وَمُنْذُ ثَوَى نَوْرِ دِينَ الْإِلَهِ لَمْ يَبْقَ لِلشَّامِ وَالْدِينِ نُورٌ
وَإِنِّي لِأَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ يُقَدِّرَ بَعْدَ الْأُمُورِ الْأُمُورُ

رثاء صلاح الدين الأيوبي:-

حينما فجع العالم الإسلامي بموت صلاح الدين الأيوبي ، أحدث موته هزة عنيفة في قلوب المسلمين نظرا لمكانته السامية عندهم ، فقد كان موضع حبهم وقداستهم ورمز آمالهم وأمانيتهم ، فقد وحد المسلمين وكسر شوكة الصليبيين ، وفتح القدس وطهر المسجد الأقصى من دنس الكفار والصليبيين ، فبكاه الناس حين وفاته بكاء مرا ، وقال القاضي بن شداد حين وفاته : (كان يوما لم يُصب الإسلام والمسلمون بمثله ، منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى ..) (٢) ، فقد كانت وفاته كارثة عظيمة على الأمة الإسلامية كلها ، وخلف وراءه فراغا كبيرا يصعب ملؤه ، وقد أشار شاعرنا العماد إلى هذا الفراغ الذي خلفه صلاح الدين الأيوبي في مرثية حزينة قائلا (٣):

يحميه مَنْ للباسِ مَنْ للنائل؟	مَنْ للعلی مَنْ للذرى مَنْ للهدى
إذ لم يثق ببقاء مُلكِ العاجلِ	طلبَ البقاءَ لملكه في آجلِ
وبسيفه فُ تحتَ بلاطِ الساحلِ	بحرٌ أعادَ البرَ بحراً بـرَه
وبعزه يردونَ أهلَ الباطلِ	مَنْ كانَ أهلُ الحق في أيامه
أبقتْ له فضلاً بغيرِ مُساجلِ	وفتوحه والقدسُ من أبقارها
ورأيتُ جودَ كـمُجلاً للوابلِ	ماكنتُ استسقي بغيرِ كوابلِ
لا أرتضى سقيا الغمامِ الهاتلِ	فسقائكِ رضوانُ الإله لا نني

١/ الديوان ، ص ١٩٠

٢/ الحركة الصليبية : عاشور ، ٨٧٤/٢ .

٣/ الديوان ، ص ٣٤٠

فقد عبر العماد عن حزنه العميق لهذا الفقد الجلل، وما حل بالإسلام والمسلمين بعد صلاح الدين أصدق تعبير، فيتسأل في البيت الأول من بعد صلاح الدين يحمي دين الهدى ومن يسبق الى المعالى بسيفه وبأسه ، ويؤكد هذا المعنى في البيت الثانى فيبين أن صلاح الدين لم يكن بجهاده طالبا للدنيا وإنما كان يؤمل في الآخرة ولو أنه طلب الدنيا لعاش بعيدا عن المعارك والقتال ، ويضرب الشاعر أمثلة واقعية تبين قيمة جهاد صلاح الدين فقد فتح بلاد الساحل وفتح القدس وأعاد للمسلمين عزتهم وكرامتهم. ورثاه العماد بقصيدة أخرى بلغت أبياتها إثنتين وثلاثين ومئتين بيت ، وتعد من أطول قصائد الرثاء في عصرها (١) ، عبر فيها عن الذهول الذى أصاب المسلمين بموت صلاح الدين وندب فيها مآثره وسجاياه السمحة وبكى فيها كريم أخلاقه وحميد خصاله قائلا (٢):

شمل الهدى والمُلكَ عمَ شتاتُهُ والدهرُ ساءَ وأقلعتْ حسناتُهُ
 أينَ الذى كانتْ له طاعاتنا مذبذولةً، ولربِّه طاعاتُهُ؟
 باللهِ أينَ الناصرُ الملكُ الذى لله خالصةٌ َصَفَتْ
 نياتُهُ

أين الذى شَرُفَ الزمانُ بفضلِهِ وسمتْ على الفضلاءِ تشريفاتُهُ؟
 أغلالُ أعناقِ العدا أسيافه أطواقُ أجسادِ الورى مناتُهُ
 منْ في الجهادِ صفأه ما أغمدتْ بالنصر حتى أغمدتْ صفحاتُهُ
 لذ المتاعبِ في الجهادِ ولم تكنِ مذ عاشَ قط لذاته لذاتُهُ
 في نصرَةِ الإسلامِ يسهرُ دائماً ليطولَ في روض الجنانِ سنائُهُ

١/ الشعر الشامي، ص ٥٤٧

٢. / الديوان ، ص ٨٦

فقد استهل الشاعر مرثيته مبينا ماحل بالإسلام والمسلمين حين فقدهم
لصلاح الدين الأيوبي ، ثم أخذ يعدد بعض مآثر صلاح الدين الحميدة
وأهمها نيته الخالصة لله تعالى في جهاده التي أهلته لاحتلال المكانة السامية
في قلوب المسلمين وجعلته قائدا وسلطانا عليهم ، فقام بطرد الصليبيين من
البلاد الإسلامية بعد أن أذاقهم الذل وأضطرهم للخضوع لبأسه وجبروته ،
وكان جهاده ضدهم جهادا متصلا لم تغمد سيوفه حتى استطاع تحقيق
النصر للإسلام والمسلمين ، وقد كانت لذته الوحيدة في هذا الجهاد هو تحقيق
النصر والخير للمسلمين ولم يكن همه تحقيق اللذة لنفسه ، وكان يسهر دائما
يفكر في مصالح المسلمين ، وهو يعرف أن سهره في الدنيا سيحقق له
الخير والسعادة في الآخرة .

ثم يبدي الشاعر تحسره وألمه لوفاة صلاح الدين ولا يعد موت
صلاح الدين موتا فرديا أو حتى موت عدة أشخاص بل يرى أن موته موت
أمة بأكملها ، لأنه كان رمز وحدتها وقوتها وعزتها ، فقد حمل عبء الجهاد
وحقق الانتصارات لذا كانت الفجيعة بموته ليست عادية قائلا (١):

لاتحسبوه ماتَ شخصٌ واحدٌ فماتَ كلُّ العالمين مماتُهُ
ملكٌ عن الإسلامِ كان مُحاميا أبدا إذا ما أسلمتُهُ حُماتُهُ

وبغيابه أظلمت شمس الإسلام ، فخبأ ضوؤه ولفه الظلام ، وبفقدته
أقفرَت ساحات الدين عن حاميتها وبطلها المجاهد فقال :

قد أظلمتْ مُذْ غَابَ عَنَا نُورُهُ لَمَّا خَلَتْ مِنْ بَدْرِهِ دَارَاتُهُ
الدينُ بعدَ أبى المظفرِ يوسف أقوتْ قراه وأقفرَتْ ساحاتُهُ

ثم يخرج من هذا الجو الحزين ليتعظ ويعتبر بموت صلاح الدين قائلاً:

جَبَلٌ تَضَعُ مِ نْ تَضَعُ رِكنه أركاننا وتهنأ هدايته
ماكنتُ أعلمُ أَن طُوداً شامخاً يهوي ولا تهوي بنا مهواته
ماكنتُ أعلمُ أَن بحراً طامياً فينا يُطم، وتنتهي زخراته
بحرٌ خلا مِنْ وارديه، ولم تزل محفوفةً َبوفوده حافاتُهُ

ثم يسترسل العماد باكيا حزينا لفقده قائلاً:

وكعادة البيت المقدس يحزنُ الـ بيتُ الحرامِ عليه، بلْ عرفاته
مِ نْ لليتامى والأرامل راحم متعطِّفٌ مفضوذةً صدقاته
مُنْ للشغور، وقد عداها حفظه مِّنْ للجهادِ ولم تَعُدْ عاداته
بكتِ الصوارمُ والصواهلُ إذ خلت مِّنْ سَلْها وركوبها غزواته
وبسيفه صدأٌ لحزنٍ مُصابه إذ ليس يشفى بعده صدياته
ياوحشةً للبيضِ في أعمادها لا تنتضيها للوغي عزماته !
ياوحشةً للإسلامِ يومَ تمكنت في كلِّ قلبٍ مؤمنٍ روعاته!
ياحسرتا من بأسِ راحتِهِ الذي قضى الزمان وما انقضت حسراته!
ما كان أسرعَ عصره لما انقضى فكأنما سنواته ساعاته

فالشاعر يستشعر في هذه الأبيات عظم المصيبة التي حلت بالمسلمين ويحس بالإشفاق على ما ينتظر البيت المقدس والثغور الإسلامية مخافة أن يطمع الفرنجة فيها بعد فقد السلطان صلاح الدين ،ويبين الفراغ الكبير الذى تركه صلاح الدين ، فقد كان صلاح الدين كافلا لليتامى والأرامل يعطف ويتصدق عليهم ، وكان مجاهدا وحاميا للثغور الإسلامية ، ثم يصور حزن السيوف وبكاء الصواهل لأنها أهملت بعده إذ لم تجد من يجيد استعمالها في جهاد الفرنجة ، و يتحسر على فقدته وقصر عمره في هذه الحياة .

وفي رنة حزينة يبكى الشاعر فقدته الجلل قائلا :

لم أنسَ يوم السبت وهو لما بهِ	يُبدى السُّبات وقد بدَّتْ غشاؤه
وقفَ الملوكُ على انتظار ركوبه	لهم ففيم تأخرت ركبائه
كانوا وقوفاً أمس تحت ركابه	واليوم هم حول السرير مشائه
وممالئ الآفاق ساعة له	فمتى تجىء بفتحهن ساعاته
هذي مناشير الممالك تقتضي	توقيعه فيها ، فأين دوائه
قد كان وعكفى الربيع يجمعها	هذا الربيع ، وقد دنا ميقاته
والجندي الديوان جدّ عرضه	وإذا أمرت تجددت نفقاته
والقدس طامحة إليك عيونه	عجل ، فقد طمحت إليه عداته
والغرب منتظر طلو عكحوه	حتى تفىء الى هداك بغاته
والشرق يرجو غربَ زمك ماضياً	في ملكه حتى تطيع عصاته
هل للملوك مضاًؤه في موقف	شدت على أعدائه شداته
وإذا الملوك سعوا وقصر سعيهم	رجحت وقد نجحت به مسعاته

فالشاعر في هذه الأبيات يدون أحداث عصره فهو لم ينس أبدا اليوم الذي رحل فيه هذا البطل، ثم يصور ما صاحب هذا الفقد الجلل، فقد وقف الملوك كعادتهم في انتظار خروجه ولكنه لم يخرج اليهم، وكانوا بالأمس وقوفا تحت ركابه ولكنهم اليوم يحملون جثمانه ويمشون تحت سريره، فقد رحل عن الدنيا وانطوت آماله وطموحاته عن دار الفناء ولكن لم تنغض آمال وطموحات الأمة الإسلامية فيه، فهذه الأفاق الإسلامية تنتظره ليفتحها، وهذه المناشير ومكاتبات البلدان المختلفة تنتظر توقيعه عليها، والجند يرجون تجديد نفقاته لهم، والقدس يرجو حمايته والشرق ينتظر فتوحاته وفي آخر الأبيات يبكى قوة الفقيد ومضاءه التي تفوق قوة أقرانه من الملوك.

وفي خاتمة مرثيته يعزى أبناء صلاح الدين ويطلب منهم أن يتخذوا من سيرة والدهم قدوة وأسوة قائلا :

أبني صلاح الدين إنَّ أباكم مازالَ يَأبَى ما الكرامُ أباَتُهُ
لا تَقْتَدُوا إلا بسُنَّةِ فَضْلِهِ لتطيبَ في مَهْدِ النعيمِ سَنَاتُهُ
وَرُوا مَوَارِدَ عَدْلِهِ وَسَمَاحِهِ لتردَّ عن نهجِ الشَّماتِ شِمَاتُهُ
ولئنْ هَوَى جَبَلٌ لَقَدْ بُنِيََتْ لَنَا ببنيه من هَضْبَاتِهِ ذُرُواتُهُ

ومن القادة الذين رثاهم العماد القائد أسد الدين شيركوه — عم صلاح الدين الأيوبي — نافع الأعداء الصليبيين واسترد منهم كثيرا من القلاع والحصون الإسلامية وفتح مصر وتولى إمارتها إلا أن القدر لم يمهل طويلا فرثاه

العماد قائلًا (١):

ما بعدَ يومَ كَلِّمُعْنَى الْمُذْنَفِ (٢)

غَيْرُ الْعَوِيلِ وَخَسْرَةَ الْمَتَاسِفِ

ما أجراً الحدثان: كيف سطا على الـ

أسدِ المخوف، سَطَا ولم يتخوف (٣)

مَنْ ذَا رَأَى الْأَسَدَ الْهَظُورَ فَرِيصَةً

أَمْ أَبْصَرَ الصَّبْحَ الْمُنِيرَ وَقَدْ خَفَى؟

مَنْ ثَابِتٌ دُونَ الْكُمَاةِ سِوَاهُ إِنَّ

زَلْتُ بِهِمْ أَقْدَامُ هُمْ فِي الْمَوْقِفِ؟

ما كان أسنى البدر لو لم يستتر!

ما كان أبهى الشمس لو لم تكسف!

ما كنتُ أخشى أن تَلُمَ مَلَمَةً

يَوْمًا، وَأَنْتَ لِكَرْبِهَا لَمْ تَكْشِفِ

فالشاعر في هذه الأبيات يبكى هذا الفقد الجلل ويصور أن الأمة الإسلامية قد أصيبت لفقده بمرض ثقيل وملازم لها وليس لها سوى العويل والنواح والتحسر . ويتعجب كيف تجرأت الأيام على سطوع عليه ، فهو بطل

١/ الديوان، ص ٢٩٨

٢/ المذنف : المرض الثقيل الملازم . (المنجد في اللغة والأعلام، طبعة : ١١، دار المشرق بيروت - لبنان ، د.ت . ص ٢٢٦).

٣/ كيف عدا ... ولم يتوقف

شجاع وفارس مغوار ، ثم تهدأ ثورته قليلا فيتحسر على فقدته ويتعظ ويعتبر بموته فيشبهه بالأسد الهصور وبالصبح المنير ، ويعدد مآثره ويبيكى محاسنه ويذكر ما خلفه موته من فراغ .

ثم يندب تقواه وورعه وتمسكه بالشرعية الإسلامية قائلا :

أَيُّمُ عُرْكَ لَمْ تَزَلْ مَقْسُومَةً ۖ لِلَّهِ بَيْنَ تَعَبُدٍ وَتَعَرُّفٍ
مُتَهَجِّدًا لِعِبَادَةٍ ، أَوْ تَالِيًا مِنْ آيَةٍ أَوْ نَاطِرًا فِي مُصْحَفٍ
وَقَفُوتَ آثَارَ الشَّرِيعَةِ كُلِّهَا وَقَدْ اهْتَدَى مِنَ الشَّرِيعَةِ يَقْتَفِي

ويبين مدى الذهول الذي حل بالأمة الإسلامية لفقدته قائلا :

فُجِعَ النَّدَا وَالْبَاسُ مِنْكَ بِحَاتِمٍ

وبحيدرٍ، والحلمُ منك بأحنف^(١)

بالمُلكِ فُزْتَ، وَخُزْتُ عَنْ قُدْرَةٍ

وَمَضَيْتَ عَنْهُ بِسِيرَةِ الْمُتَعَفِّ

وَوُصِفْتَ، يَا أَسَدًا لِدِينِ مُحَمَّدٍ

مَدْحًا بِمَا مَلَكَ بِهِ لَمْ يُوصَفِ ۖ

أَنْفَتَ مِ نْ فَيَاكَ حِينَ عَرَفَتْهَا

فَلَوَيْتَ وَجْهَ الْعَارِفِ الْمُتَنَكِّفِ

١/ الأحنف بن قيس مشهور عند الخاصة والعامة وسيد بنى تميم أدرك النبي (ص) ولم يره وفد على عمر

رضى الله عنه وشهد الفتوح في خراسان وتوفى بالكوفة سنة ٧٣هـ (تهذيب تاريخ دمشق ١٣/٧)

ثم يعزى ابنه ناصر الدين وأخاه نجم الدين أيوب في هذا فقد الجلل
ويدعوهما إلى التصبر بعظيم أنجاراته قائلاً :

يَانَاَصِرَ الدِّينِ اسْتَعِذْ بِتَصَبُّرٍ

مُذْنٍ إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّ مَزْلَفٍ

وَقَزَّ نَجْمَ الدِّينِ عَنْهُ مُهْنًا

أَبَدَ الزَّمَانِ بِمُ لُكْمَصَرٍ وَيُوسُفَ

◌ ثم يختم مرثيته هذه بالحكمة قائلاً : إذا وقع
القدر المحتوم فليس في وسع الانسان الحي إلا التصبر والدعاء للمتوفي
قائلاً:

لَا تَسْتَطِيعُ سِوَى الدَّعَاءِ فَكُنَّا

إِلَّا بِمَا فِي الْوُسْعِ غَيْرُ مُكْلَفٍ

◌ ويرثيه العماد بقصيدة أخرى قائلاً (١):

تَضَعُّعٌ فِي هَذَا الْمَصَابِ الْمَبَاغَتِ

مِنَ الدِّينِ ، لَوْلَا نُورُهُ ، كُلُّ ثَابِتٍ

فَمَا بَالُنَا نُبْدِي التَّصَامُمَ غَفْلَةً

وَدَاعِي الْمَنَايَا نَاطِقٌ غَيْرَ صَامِتٍ

نُؤمِّلُ في دارِ الفَناءِ بقاءنا
ونرجو من الدنيا صداقةَ ماقتِ
وما الناسُ إلا كالغصونِ، يُدالردى
تُقربُ منها كلَّ عودٍ لناحتِ
لقد أبلغتُ رُسُلُ المنايا وأسمعتُ
ولكنها لم تحظَ منا بناصتِ
فلهفي على تلك الشمائلِ، إنها
لقد كُرِّمتُ في الحسنِ عن نعتِ ناعتِ

فيبيدي الشاعر في هذه المراثية أسفه وتحسره لفقده، ويصور هول المصيبة التي لحقت بالإسلام والمسلمين بعده ويعزى أهله، ويذكرهم بأن الحياة ظل زائل وأنهم خارجون منها ذائقون الموت مهما طال بهم العمر، ثم يختم قصيدته بالتحسر على هذا الفقد الجلل.

نلاحظ أن شاعرنا العماد في مراثيه لأبطال وقادة الحروب الصليبية قد إلتزم فيها بالمضمون الحقيقي لحياة هؤلاء الأبطال وعبر فيها عن حزنه العميق ، لا لأن سلطانا قد مات بل لأن مجاهدا بسيفه مدافعا عن الدين قد سقط في ساحة الجهاد، ومن هنا كانت الفجيعة وكان الرثاء، ويضرب الشاعر أمثلة واقعية من تاريخ الحروب الصليبية تبين قيمة جهاد هؤلاء الأبطال من فتح بلاد الساحل ووحدّة الصف العربي وفتح مصر وفتح القدس ، وإعادة العزة لأهل الحق وهم المسلمون، ضد أهل الباطل وهم

الصليبيون . (١)

فقد كان رثاء العماد لهؤلاء الأبطال موضوعيا وواقعيا وليس مجرد رثاء تقليدي فذكر فيه من صفات هؤلاء الأبطال ماله علاقة مباشرة بجهادهم في سبيل الله ، ونلاحظ الروح الإسلامية في مراثيه لهم ، ولم يكتف فيها بالبكاء والندب وإنما صور فيها كفاح هؤلاء الأبطال الطويل ونضالهم المجيد ضد الأعداء الصليبيين .

الهجاء

الهجاء من الفنون القديمة التي وجدت في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، ووجوده أمر طبيعي مع وجود المديح فحينما وجد أناس يستحقون المديح وجد آخرون يستحقون الهجاء . (١) ويعد الهجاء من الظواهر الاجتماعية التي لا يخلو منها عصر من عصور الأدب ، وهو فن له قيمته وله خطره ، وهو فن واقعي منبعث من غضب الشاعر أو من افتعاله الغضب.

درج كثير من الشعراء منذ العصور الأولى على هجاء أعدائهم وخصومهم ، وكانت القصائد تنشأ من أجل الهجاء الخالص أو من أجل الفخر الذي يتضمن مفاخرهم ونقائص أعدائهم ، وقد لبس فن الهجاء ثوبا سياسيا في عصره الذهبي عندما التحم الأخطل وجريروالفرزدق وأنشأوا نقائضهم المشهورة . (٢)

لقد شن الشعراء في عصر الحروب الصليبية على الصليبيين الغزاة حربا عنيفة لا تقل ضراوة عن الحرب التي شنّها عليهم المجاهدون في ميادين القتال فرموهم بأقبح الصفات ، ونعتوهم بأوضاع النعوت وأطلقوا عليهم طائفة من الألقاب المزرية ، ووجهوا إليهم سهام النقد والتجريح والصقوا بهم أخس المزايا وأحقرها (٣) .

(ورأى شعراء المواجهة في هجمتهم العنيفة على الصليبيين الغزاة بين شجبهم وذمهم والزراية عليهم والتهكم والشماتة بهم ، وتهديدهم ووعيدهم ، والتندد بهم ، وتبع ذلك الزراية بالإنسان الصليبي نفسه ، وفكره العقدي ، وخاصة بعد أن توالى الهزائم التي لحقت بهم) (٤).

وبالرجوع الي هذا الفن في ديوان العماد نلاحظ قلة شعره فيه ، فهو لم يكتب فيه قصائد أو مقطوعات مستقلة ، فقد تخلل هجاءه الاغراض الأخرى ، وأنت في ثناياها .

فقد كان العماد من شعراء المواجهة الذين قاوموا الصليبيين الغزاة المحتلين بالكلمة والسيف ، فرماهم بسهام شعره ، وأوضح في هجائه

١/ إتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري :د. مصطفى هدار ، دار المعارف ، ١٩٦٣م ، ص ٤١٨

٢/ الشعر في مجتمعات الحمدانيين : مصطفى الشكعة ، ص ٤٣٦

٣/ الشعر الشامي ، ٣٤٨/١

٤/ المرجع نفسه ، ٣٤٨/١

للسليبيين كثيرا من الصفات التي اشتهروا بها ، كالخداع ، والنفاق ، والجبن ، والهلع ، والفرار من المعركة ، وأطلق عليهم كثيرا من الألقاب المزرية ، فقد لقب قائد الحملة الفرنجية الرومية المشتركة التي استهدفت شيزر عام اثنين وثلاثين وخمسمائة الإمبراطور يوحنا الثاني (١) بكلب الفرنج قائلا في مدح نور الدين محمود : (٢)

كَلْبُ الْفَرَنْجِ عَوَمِنْ خَوْفِ صَوْلَتِهِ وَقِصْرُ الرُّومِ مِنْ إِقْدَامِهِ مَعْصَا (٣)

ولم يقصر العماد لقب الكلب على ذلك القائد فحسب بل عد جميع قادة الصليبيين وجنودهم كلابا تفر إذا ما طلع عليهم قادة المسلمين ومجاهدوهم ، وقد شبههم العماد بالأسود الضارية في شجاعتهم ، فيقول في قصيدة مدح بها صلاح الدين الايوبي : (٤)

وَبَنُو الْهَنْفَرِيِّ هَانُوا فَفَرَوْا وَمِنْ الْأَسَدِ كُلُّ كَلْبٍ فِرُورُ (٥)
إِنَّمَا كَانَ لِلْكَلابِ عَوَاءٌ حَيْثَمَا كَانَ لِلْأَسَدِ زَنْبِيرُ

فالعماد قد نعت هؤلاء الصليبيين بالكلاب دلالة على تحقيرهم وإهانتهم ، ويقول محمد علي الهرفي : (٦) (وليس هناك أحقر من الكلب ولا أدل منه) ووصمهم كذلك بالجبن ، فهم سرعان ما يفرون إذا ما لقوا أي مقاومة من المسلمين . ويصفهم العماد بأنهم مخلفوا الوعود ناكصو العهود قائلا : (٧)

كُلُّ لَعْقَدٍ يَمِينِهِ لِي نَاكُثُّ كُلُّ عَلَى عَقَبِ الْمَوْدَةِ نَاكُصٌ (٨)

ويقول العماد في خيانتهم للعهد : (٩)

١ / التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، ص ٥٥

٢ / الديوان ، ص ٢٥٤

٣ / معص : يقال معصت قدمه أي التوت من كثرة المشي ، والمعص وجع يصيبها كالحفا

٤ / الديوان ، ص ١٨١

٥ / الهنفري : ملك بيت المقدس

٦ / شعر الجهاد في الحروب الصليبية ، ص ١٧٢

٧ / الديوان ، ص ٢٥٨

٨ / ناكص : راجع

٩ / الديوان ، ص ١٠٩

إِنْ أَفْسَدَ الدِّينَ الْعَصَاةُ بِخِيَتِهِمْ فَالْناصِرُ الْمَلِكُ الصَّلاَحُ صَلاَحُهُ

وقد وصمهم العماد كذلك بالغدر ، ولما كان الذنب مثالا للغدر فقد أطلق لفظه عليهم للتدليل على غدرهم فيقول العماد : (١)

قُلْ لِلثَّعَالِبِ : لَا تَغْرِكْ خَلْوَةً فِي الْغَابِ لَمَّا غَابَ عَنْهُ فُرَافِصُ (٢)
سَيَعُودُ فِي طَلَبِ الْفُرَائِصِ ضَيْغَمٌ ذُو سَطْوَةٍ وَسَتَقْشَعُرُ فُرَائِصُ (٣)

وقد نعتهم العماد كذلك بالذئاب العجا ئز التي تساقط شعرها قائلا في مدح صلاح الدين الايوبي : (٤)

أَقَامَتْ بِغَابِ السَّاحِلِينَ جُنُودَكُمْ وَقَدْ طَرَدَتْ عَنْهُ ذُنَابَهُمُ الطُّلُوسَا (٥)

فالغدر كان سمة مشتركة بين جميع قادة الصليبيين ، ونكت الإيمان كان عادة مستحبة عند ملوكهم وأمرائهم ، فارناط أمير الكرك قد وقع معاهدة مع السلطان صلاح الدين الأيوبي ولكنه لم يف بهذه المعاهدة وغدر بها ولقي مصرعه بيد السلطان صلاح الدين عشية معركة حطين ، فكان القتل تشميئا له بعد أن تكرر عطسه بزكام غدره كما يقول العماد الاصفهاني: (٦)

مَازَالَ يَعْطَسُ مَزْكُومًا بِغَدْرَتِهِ وَالْقَتْلُ تَشْمِيْتُ مَنْ بِالْغَدْرِ قَدْ عَطَسَا

وقد أكد العماد في قصيدة أخرى أن قتله كان عقابا له وردعا لأمثاله ممن تحدثهم أنفسهم بالخيانة والغدر قائلا: (٧)

١ الديوان ، ص ٢٥٨

٢ / فرافص : الأسد

٣ / الضيغم : الأسد ، الفرائص : جمع الفريضة وهي لحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الخوف

٤ الديوان ، ص ٢٣٣

٥ / الذئاب الطلس : التي تساقط شعرها ، وقيل الخبيثة

٦ . / الديوان ، ص ٢٢٩

٧ / الديوان ، ص ٢٣٥

حَسَا دَمَهُ مُضَايَ الْغَرَارِ لِقَدْرِهِ وَمَا كَانَ لَوْلَا غَدْرُهُ دَمَهُ يُحْسَى

وأكثر العمداء في أشعاره من الألفاظ التي توحى بتحقير وإهانة الصليبيين وتشير إلى بغضهم ، وقد أعرض عن ذكر أسمائهم الصريحة فهم عنده بنو الأصفر ، وبنو الأصافر وبنو الهنفرى والغتم ، وغيرها من الألقاب . فهو يدعوهم في هذه القصيدة ببنى الأصفر ، ويرميهم بالجبن والهوان قائلًا : (١)

وَاسْتَنَارَتْ عَزَائِمُ الْمَلِكِ الْعَا دَلِ نَوْرَ الدِّينِ الْكَرِيمِ اللَّاعِرِ
وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْقَوَامِصُ مِنْهُ بَوَجْوهٍ - مِنْ الْمَخَافَةِ - صُفْرُ (٢)

ويقول في قصيدة أخرى : (٣)

بَنُو الْأَصْفَرِ مِنْ خَشَى - سِيَةِ انتِقَامِكَ صُفْرُ (٤)

ويسميه في قصيدة أخرى ((بالغتم)) إشارة الي عجمتهم وعدم إفصاحهم فيقول ساخرًا منهم ، وحاتًا صلاح الدين الأيوبي على تطهير القدس من رجسهم : (٥)

فَقَدِسَ الْقُدْسُ مِنْ خَبَاثِ أَرْجَاسِ كَفْرِ غُتْمٍ أَرَانِلِ (٦)

ويصف العمداء هؤلاء الصليبيين بأبشع ألفاظ الزراية والاحتقار فيصفهم

١/ الديوان ، ص ٢٠٠
٢ // بنو الأصفر: الإفرنج ، القوامص : جمع قومص وهو تعريب حرفي للفظة لاتينية (comes) أي الامير (مفرج الكروب ١ : ٧٣ هامش ١)
٣/ الديوان ، ص ١٧٦
٤/ بنو الأصافر : الإفرنج
٥/ الديوان ، ص ٣٢٦
٦/ الأغتم : من لا يفصح شيئًا ، والجمع غتم

بالذباب قائلًا في مدح تقي الدين عمر : (١)

عدوك كَالذَّبَابِ لَهُ طَنِينٌ وفيه ذبابٌ سَيْفِكَ ذُو طَنِينٍ (٢)

ويشبههم العماد بالفراش في خفة حلومهم فيقول : (٣)

وطارتْ عَلَى نَارِ الْمَوَاضِي فَرَاشُهُمْ صَلاءٌ فَزَادَتْ فِي خُمُودِهِمْ
قَبَسًا (٤)

ويشبههم في قصيدة أخرى بالأتن التي لا لبن لها ، أو بالناقة الشديدة السمنة قائلًا في مدح نور الدين : (٥)

وكم أَخَافَ الْعِدَا بِالْأَوْلِيَاءِ كَمَا أَخَافْتُ الْأُسْدُ فِي إِصْحَارِهَا النَّحْصَ (٦)

ويرميهم العماد بالجبن ، ويشير إلى الرعب الذي أحدثه صلاح الدين الأيوبي في صفوفهم ، فقد تركهم هذا الرعب كأنهم أسرى مقيدين ، فكثير فيهم القتل حتى أنه لم يبق للأسر منهم إلا الأطفال ، فتمنى مقاتلوهم أن لو كانوا أطفالا لينجوا من القتل ، فيقول : (٧)

وَقَلِيبٌ عِنْدَ الْفِرَارِ سَلِيبٌ فَهُوَ بِالرُّعْبِ مُطْلَقٌ مَأْسُورٌ
لَمْ يَبْقُوا سِوَى الْأَصَاغِرِ لِلْسَبِّ سِي فَوْدُوا أَنَّ الْكَبِيرَ صَغِيرٌ

هاجم شعراء المواجهة عقائد الصليبيين واستهانوا بها وبينوا خطأها في بعض النواحي واستخفوا بشعائهم ، وسخروا من رجال دينهم ومقدساتهم فقد رموا عقيدتهم بالكفر الصراح ، إذ ليس بعد الكفر جريمة

١/ الديوان ، ص ٤٢٩

٢/ الذباب الثانية : حد السيف

٣/ الديوان ، ص ٢٣٥

٤/ نار المواضي : لمعان السيوف ، الفراش : طائر يحوم حول النار . فهو يشبههم بالفراش في خفة حلومهم

٥/ الديوان ، ص ٢٥٦

٦/ إصغارها : بروزها في الصحراء . النحص : جمع نحوص وهي من الأتن التي لا لبن لها ، وقيل : النحوص الناقة الشديدة السمنة .

٧/ الديوان ، ص ١٨٢

يمكن أن يوصم بها إنسان يدعي أنه مؤمن (١) فيقول العماد عن معركة حطين ، ويمدح صلاح الدين الأيوبي : (٢)

حطّطت على حطين قدر ملوكهم ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا

وحينما مدح العماد نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي تنبأ بأن البطلين شيركوه وصلاح الدين سيشنان على الكفار – أي الصليبيين – حربا يشيب لها الأطفال فيقول : (٣)

غداً يشبان في الكفار نار وغي بلفحها يصبح الشبان كالشيب

ويهجو العماد عقائد الصليبيين ويبين حقائق خطأها ، فهي قائمة على الخداع والنفاق ، وتشبه الأصل الذي بنيت عليه ، فهذا الأصل كله عيوب وأخطاء ونقائص ، فيقول العماد : (٤)

ولهم عقائد ، ملوّهن حقائد عذّ النفاق كأنهنّ عقائص (٥)

فرع المعيب الأصل ، يحكي أصله وله معايب مثله ونقائص

ويسخر العماد من رجال دينهم ومقدساتهم ويطالب البطل صلاح الدين أن يشن عليهم حربا تدمر الكنائس على رؤوس أساقفتها فيقول : (٦)

وأهد الي الإسبتار البتار وهذ السقوف على الأسقف

١/الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين ، ٢ : ٢٦٦

٢/ الديوان ، ص ٢٣٤

٣/المصدر نفسه ، ص ٨٤

٤/ المصدر نفسه ، ص ٢٥٨

٥/ عقائص : جمع عقيصة وهي خصلة من الشعر معقوصة أي ملوبة ومعقودة .

٦/ الديوان ، ص ٣٠٤

وذم العماد شاور (١) وسياسته المنحرفة وندد بتعاونه مع الصليبيين واعتبره شريكا لهم ، ويرى أن دوره في مساندتهم لا يقل عن دور بني قريظة وبني النضير في مساندة كفار قريش في عدوانهم على الرسول صلى الله عليه وسلم ومسلمي المدينة إبان غزوة الخندق ، ثم يقرنه بفرعون مصر في ظلمه وطغيانه قائلا : (٢)

لَاذَ بِالنَّيْلِ شَاوِرٌ مِثْلَ فِرْعَوْنَ نَ ، فَذَلَّ اللَّاجِي وَعَزَّ الْعَبُورُ
شَارَكَ الْمُشْرِكِينَ بَغْيًا ، وَقَدَّمَ شَارَكْتُهَا قَرِيطَةً وَالنُّضِيرُ

وحينما توفي العاضد - آخر الخلفاء الفاطميين بمصر - هجا العماد الخلفاء الفاطميين ، وشبه عصرهم بعصر فرعون الذي عم فيه الفساد واستشرى فيه الطغيان ، ويشيد العماد بتوحيد البلاد بانضمام مصر إلى الخلافة العباسية وصلاح الدين الأيوبي من يتولى أمرها ، قائلا : (٣)

تُوفِي الْعَاضِدُ الدَّعْيُ فَمَا يَفْتَحُ ذُو بَدْعَةٍ بِمِصْرٍ فَمَا
وَعَصْرُ فِرْعَوْنِهَا انْقَضَى وَغَدَا يَوْسُفُهَا فِي الْإُمُورِ مُحْتَكَمَا

١/ شاور بن مجير السعدي ، وزر العاضد الفاطمي بعدمقتل زريك بن الملك الصالح طلائع بن زريك ، واستبد بأمر مصر ، ولم يبق للعاضد معه أمر ولا نهى ، وراح يقتل ويظلم ويصادر الناس ، ولم يتورع من الضرر بأسد الدين شيركوة والاستنجاد عليه بالصليبيين المحتلين (النجوم الزاهرة، ٥ : ٣٤٨).

٢/ الديوان ، ص ١٨١

٣/ المصدر نفسه ، ص ٣٧٦

الفخر

الفخر والإفتخار هو المدح نفسه إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه ، وكل ما حسن في المدح حسن في الإفتخار ، وكثيرا ما كانت العرب تفتخر بنفسها وقبائلها وبيوتها .

والفخر في عصر الحروب الصليبية كان قليلا جدا ، مقارنة بالفنون الشعرية الأخرى من وصف ومدح وتهنئة وغيرها . ولعل ذلك راجع الي الروح الجماعية المنبعثة عن العاطفة الدينية ، فقد صرفت الشعراء عن الفخر الذاتي الذي يدور حول الشاعر وآبائه وأجداده واقتربت بهم من الفخر الذي يكون فيه للجهود الجماعية النصيب الأوفى (١) .

والفخر في ديوان العماد مبنوث في قصائده ، ولم يستقل ديوانه بقصيدة واحدة من قصائد الفخر ، وكان العماد كثيرا ما يفخر بنفسه وشعره ، فحينما خرج مع الملك العادل نور الدين محمود زنكي في لقاء الفرنج سنة ٥٧١ هـ في جيش كبير به مختلف الأجناس ، قال نور الدين محمود للعماد كيف تصف ما نحن فيه؟ فقال العماد قصيدة افتخر في بيت من ابياتها بنفسه وشعره قائلا : (٢)

هم كالصحابه يوم بدر حاولوا نصر النبي ونبت عن حسان (٣)

فهو يفتخر بمنزلته العالية لدى الملك العادل نور الدين محمود التي تضاهي منزلة الشاعر المخضرم والصحابي الجليل وشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت ، ويفتخر العماد بشعره الذي يزود به عن الإسلام والمسلمين الذين شبههم بالصحابه ، كما كان يزود حسان بن ثابت عن حمى الإسلام والمسلمين .

١/ الشعر الشامي، ص ٥٨٤

٢/ الديوان ، ص ٤١٤

٣// حسان بن ثابت : شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأحد المخضرمين ، عاش ستين سنة في الجاهلية ونحوها في الإسلام توفي في المدينة سنة أربع وخمسين للهجرة . (الأغاني : لأبي الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين) ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، د.ت. ١٣٤/٤).

وكثيرا ما كان العماد يفتخر بشعره ، فقد أكثر من الإعتداد بشاعريته ، وزها بقدرته على قرض الشعر وتفوقه فيه على الشعراء أمثال ابن هاني قائلا: (١)

وما كلُّ شعرٍ مثْلَ شعري فيكمُ ومَنْذا يقيسُ البازلَ العودَ بالنقضِ (٢)
وما عزَّ حتى هانَ شِعْرُ ابنِ هاني وللسَّنةِ الغراءِ عزٌّ على الرِّفضِ (٣)

وفي قصيدة أخرى يعتد العماد بشعره الذي سار في الأفاق ، ويشيد بمقدرته على نظم لفظه ومعناه ويشبّبه بالشهد في حلاوته وعذوبته حيث يقول في مدح الخليفة المستضي : (٤)

إليك سَرْتُ مني مطايا مدائحٍ من الشُّكرِ والأحمادِ مُوقرةَ الحملِ
سوائِرُ في الأفاقِ وهي مطيِّفةٌ ببابك دُونَ الخلقِ مخلوفةُ العُقلِ
تهذبَ معناها بصقلي لفظها كما بانَ أثرَ المشرفي لَدَى الصقلِ
وإنَّ يجل شعري في مديحك رونقا وحسناً فإنَّ الشَّهَدَ من نَحْلِ النحلِ (٥)

ويقول أيضا مفتخرا بمقدرته على نظم الشعر ودقة تصويره للمعاني التي يرمي إليها ، في مدحه للخليفة المقتفي : (٦)

هذي أميرَ المؤمنين قصيدةٌ غراءُ تُقصدُ قبةَ الملكِ الأغرِ
حسناً يهديها وليّ مُخلصٌ لكم الولاءَ فأولها حُسنُ النظرِ
صُورٌ تقومُ بها معانٍ منكمُ إنَّ المعاني زائداتٌ للصُورِ
دقتَ لمعنى السِّحرِ إلا أنها راقَتْ ورَقَتْ مثلَ أنفاسِ السَّحرِ

١/ الديوان ، ص ٢٦٨

٢/ البازل: الجمل في تاسع سنيه ، وليس بعده سن تسمى ، العود : المسن ، النقض : المهزول من السير جملا أو ناقة .

٣/ ابن هاني : هو الشاعر محمد بن هاني الأزدي الأندلسي المقتول سنة ٣٢٦هـ (وفيات الأعيان ٤٢١/٤)

٤/ الديوان ، ص ٣٦٠

٥/ أي من عطايا النحل وهباته

٦/ الديوان ، ص ١٥٤

ويقول مفاخرًا بقصائده التي فاقت الدر جمالا وبهاء قائلا : (١)

صُعْتُهَا مَنْظُومَةٌ فِي مَدْحِكُمْ فِتْلَاهَا الدُّرُ فِذَا وَتَوْأَمَا (٢)
جَمَعَتْ لَفْظًا، وَمَعْنَى شَائِقًا بَعْدًا فِي الْحُسْنِ مَرْمَى وَمُرَامَا

١/ المصدر نفسه ، ص ٣٧٥
٢/ الفذ : المفرد ، والتؤام : جمع توأم وهو المولود مع غيره في بطن من الاثنين فصاعدا ، وقد يستعار في جميع المزدوجات .

المبحث الثاني

الغزل

الغزل من موضوعات الشعر القديمة التي تداولها الشعراء القدامى والمحدثون ، وعنوا به عناية كبيرة فسجلوا فيه عواطفهم وخواطرهم وتناولوا فيه وصف المرأة ، فوصفوا خلقها وخلقها ووفائها وغدرها ووصلها وصددها .

فقد شغلت المرأة حياة الشعراء في مختلف عصور الأدب ، فدارت معظم أغراض شعرهم حولها ومن أجلها ، أحب الشاعر المرأة فتشبيب بها وتغزل ، ورحلت فوقف على أطلالها وبكاها ، وقل من الشعراء من لم يشبب بالنساء وتصيب سهامهن قلبه (لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد أحد أن يكون متعلقا منه بسب وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام) (١)

وقد ارتبط لفظ الغزل بالنسب والتشبيب ، فاللغويون يعرفون إحدى هذه الكلمات بالآخرى ، ففي لسان العرب : (شبب بالمرأة قال فيها الغزل والنسب ، وهو يشبب بها أي ينسب بها ، والتشبيب : النسب بالنساء) . ويقول في النسب ، (نسب بالنساء : شبب بهن في الشعر وتغزل) ، (والغزل : حديث الفتيات واللهم مع النساء ومغازلتهم ، والتغزل : التكلف لذلك ، وفي المثل هو أغزل من أمرئ القيس) (٢) .

١/ الشعر والشعراء : لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦م ، ٧٥/١
٢/ لسان العرب : ابن منظور ، طبعة جديدة محققة ، دار صادر بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م ، مادة (شبيب ، ونسب غزل)

وكثير من النقاد كذلك لا يفرقون بين هذه الكلمات الثلاث فابن سلام الجمحي يستخدم النسيب مكان التشبيب فيقول : (وكان لكثير في التشبيب نسيب وافر، وجميل مقدم عليه ، وعلى أصحاب النسيب جميعا في النسيب وله في فنون الشعر ما ليس لجميل) (١). وقد حاول قدامة بن جعفر أن يفرق بين النسيب والغزل قائلا : النسيب ذكر النساء وأخلاقهن ، وتصرف أحوال الهوى به معهن ، والغزل هو المعنى الذي اعتقده الانسان في الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله ، فكان النسيب ذكر الغزل ، والغزل المعنى نفسه ، والغزل هو التصابي والاستهتار بمودات النساء) (٢)، وقال ابن رشيق إن الغزل والتشبيب والنسيب كلها بمعنى واحد ، وإن حاول أن يفرق بين الغزل والنسيب ، فقال عن الغزل (بأنه إلف النساء ، والتخلق بما يوافقهن) (٣). وأغلب الظن أن القدامى يتفقون على أن النسيب والتشبيب والغزل كلها تحمل معنى واحدا وهو مغازلة النساء ومجالستهن . وقد وردت هذه الكلمات الثلاثة، على السنة الشعراء بمعنى واحد أيضا ، قال إياس بن سهم الهذلي :

نسبنا بليلي فانبعثت تعيُّها أضل من الحجام أو ساق مغزل (٤)

وقال عمر بن أبي ربيعة :

فبتلك أهدى ما حيئت صباة وبها الحياة أشبُّ الأشعال (٥)

١/طبقات فحول الشعراء: لإبن سلام الجمحي ، الناشر دار المدني بجدة ، مطبعة المدني المؤسسة السعودية

بمصر ، د. ت. ٥٤٥/٢ ، ومعنى أنه يصرح بالغزل : أن يجعل شعره خالص للغزل وحده

٢/ نقد الشعر ، ص ٦٥

٣/ العمدة، ١١٧/٢

٤ اساس البلاغة: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، دار الفكر للطباعة والشر والتوزيع ،

١٤٠٩ هـ — ١٩٨٩ م ، مادة غزل ، ويقال أضل من ساق مغزل لأنه يكسو الناس وهو عار

٥ / المرجع نفسه ، مادة شبيب .

يتضح من كل هذه الأقوال أنه لا فرق بين مدلولات هذه الألفاظ الثلاث فهي مترادفات .

وإذا تتبعنا الغزل في عصوره المختلفة ، نجده في الغالب ما تفتتح به القصائد ، فالقدمى يبتدئون قصائدهم بذكر المحبوبة وطيفها فيقفون على الاطلال الدارسة يكون ويستبكون ، ويدعون بالسقيا لديار المحبوبة ، ليعم الخير ويكثر النعيم ، وتخضر الأرض ، ويمتلئ الضرع ومن ذلك قول الأعشى :

وَدِعْ هُرَيْرَةَ إِنْ الرِّكْبَ مُرْتَحِلٌ وَهَلْ تَطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ
غَرَاءُ فِرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا تَمْشِي الْهُوَيْنَى كَمَا يَمْشِي الْوَجِيُّ الْوَحْلُ
كَأَنَّ مَشِيَّتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجْلٌ (١)

وكان للغزل نصيب موفور في عصر الحروب الصليبية ، قصد إليه الشعراء قصدا ، ووضعوه في أول قصائدهم ذات الأغراض المختلفة (٢) . يحتل الغزل مكانا بارزا في ديوان العماد ، فقد استهل نحو ثلاث وثلاثين قصيدة بالمقدمات الغزلية ، وأفرد عددا من القصائد للغزل الخالص إلا إنها قليلة جدا ، كما له مقطوعات غزلية. اقتصرت هذه المقدمات على شعر المديح وشعر الإخوانيات ، وقد كان للمديح النصيب الأكبر منها ، فكانت مقدمات قصائده في المديح نحو سبع وعشرين مقدمة وبلغت مقدمات إخوانياته نحو ست مقدمات .

أما اتجاهات الغزل عنده فمنه التقليدي الذي وقف فيه على الاطلال والرسوم الدارسة ، ومنها ما وقف فيه على رحيل الأحبة ومنها ما ناجى فيه طيف الأحبة ومنها ما تحدث فيه عن الأحبة والهوى ، وتحدث في هذه المقدمات كذلك عن العذال واللائمين في الحب .

١/ شرح القصائد العشرة : الخطيب التببريزي (أبو زكريا يحيى بن علي بن الحسين بن محمد بن موسى الشيباني) ، تحقيق محمد محي الدين ، الطبعة الثانية ، مطبعة السعادة - القاهرة ١٩٦٤م ، ص ٤٨٣
٢/ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : أحمد أحمد بدوي ، ص ٩١

والعماد في مقدماته الغزلية تناول الغزل بكل معانيه وصوره ، فرسم فيها صورة المرأة العفيفة الطاهرة المصونة قائلا : (١)

أعقيلة الحيِّ اللقاحِ ودُونِها بيضٌ وسُمْرٌ من ظُبىٍّ وذوايلِ
بَكَرَتْ تَلُومٌ عَلَى لَزُومِ مَوَاطِنِ وَضَعَ الرَفِيعُ بِهَا وَرُفَعَ الْخَامِلِ
طَالَ التَّرَدُّدُ فِي الْبِلَادِ فَلَمْ أَفْزُ مِنْهَا عَلَى رَغَمِ الْعَدُوِّ بِطَائِلِ
مُضْرِيَّةٌ عَذَلَتْ عَلَى حُبِّ النَّدَى مِنْ لَيْسَ يَسْمَعُ فِيهِ عَذْلَ الْعَاذِلِ
يَا هَذِهِ! لَوْلَا السَّمَاحَةُ لَمْ يَكُنْ يَنْمِيكَ خَيْرُ عَشَائِرِ وَقَبَائِلِ

فهو يتغزل في هذه الفتاة العربية (المضرية) الخالصة العروبة ، وقد عاش العماد في العصر العباسي الثاني حيث كثرت فيه الأجناس غير العربية ، مترسما بذلك خطى من سبقوه من السلف ومحافظا على تقاليد الشعراء القدامى ، فصور هذه المرأة مصونة (دونها السهام والسيوف والرماح ، محافظا بذلك على كرامتها وإبائها وعزة نفسها) .

وفي مقدمة أخرى يصور العماد محبوبته في صورة رائعة تمازجت بالطبيعة وجمالها، فيشبه قوامها بالغصن في استقامته ولينه ، ويبدو الخد منها كالورد في رفته ونعومته والوجه كالبدروالطرف فاترا كالغزال الأحور، وبياض أسنانها كزهر الأقحوان فيقول : (٢)

بكلِ خَدِينَةٍ لِلْحَسَنِ مَالِي سَوَى بَلَوَى هَوَاهَا مِنْ خَدِينِ
كَرِيمٍ أَوْ كَغَصْنٍ أَوْ كَبَدْرِ بِلَحْظٍ أَوْ بِقَدٍّ أَوْ جَبِينِ
تَبَسَّمَ دُرُّهَا عَنْ أَقْحَوَانٍ وَأَزْهَرَ وَرْدُهَا فِي يَاسْمِينِ

١/ الديوان ، ص ٣٤٧

٢/ المصدر نفسه ، ص ٤٢٣

وفي مقدمة غزلية أخرى يرسم فيها صورة واضحة لمفاتن محبوبته
وجمالها قارنا جمال الطبيعة قائلا : (١)

وَجَنَّتْهَا الْوَرْدَةُ فِي إِحْمِرَارِهَا وَقَدْهَا الْبَائَةُ فِي اهْتِزَارِهَا
شَمْسُ الضُّحَى فِي الْحَسَنِ لَمْ تُضَاهِهَا بَدْرُ الدَّجَى فِي التَّمَلُّمِ لَمْ يُوَارِهَا

وعند ما يتحدث العماد عما في قلبه من الحب يضع معايير واضحة
وصريحة لمن يحب من النساء فيقول : (٢)

يُرَوِّقُنِي فِي الْمَهَا مُهَفِّفُهَا وَمِنْ قِدُودِ الْحَسَنِ أَهْيَفُهَا
وَمِنْ عَيُونِ الظُّبَاءِ أَفْتَرُهَا وَمِنْ خِصُورِ الْمِلَاحِ أَنْحَفُهَا
وَمِنْ خُدُودِ حُمُرٍ مُورَدَةٍ أَدُومُهَا لِلْحِيَاءِ أَطْرَفُهَا

فهو يعجبه من الحسان : ذات اللون الأبيض والقوام الممشوق ، وذات
الطرف الفاتر والخصر النحيل والخد الأحمر .

ونراه وفي مقدمة غزلية أخرى يعشق السمرء من النساء ويصرح
بذلك قائلا : (٣)

أَدَمٌ سَفَكَنَ دَمِي بِأَعْيُنِهَا يَاللَّرِّجَالَ مِنَ الدُّمِيِّ الْأَدَمِ (٤)
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ قَبْلَ رُؤْيَيْهَا أَنْ النَّوَظَرَ أَسْهَمُ تَصْمِي

ويتغزل في جمال هذه المرأة السمرء ذات القوام الممشوق والعيون البيضاء
والخصر النحيل قائلا : (٥)

١/ الديوان ، ص ٢٢٥

٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٠٦

٣/ المصدر نفسه ، ص ٣٩٥

٤/ الادم : جمع آدماء ، والادمة في الناس السمرة وفي الظباء : لون مشرب ببياض

٥/ الديوان ، ص ٢٦٩

تهزُّ قندود السمر للفتكِ سمرها
وتشهرُمن أجفانها البيض بيضها^(١)
وقد طال فكري في خصور ضعيفة
بأعباء ما في الأزُر كيف نهوضها

ويرسم صورة أخرى لجمال محبوبته قائلاً : (٢)

يُريكِ ابتساماً عن شتيتٍ مُقبلٍ
كأن نظيم الدر ألفه السِمْطُ^(٣)
وما كنتُ أدري قبل سطوة طرفه
بأن ضعيفاً فاتراً مثله يسْطُو
وهب أن بالقرطين منه مُعلقٌ
لذنب الهوى قلبي فلم علقَ القُرْطُ
وأهيفَ للاشفاق من ضعفٍ خصره
محلٌ نطاقٍ للقلوب به رَبطُ

تبدو في هذه الأبيات محبوبته بأسنانها المفلجة البيضاء المنتظمة ، كأنها الدر ، وسهام أعينها الفاترة ، وهي ممشوقة القوام نحيلة الخصر .
ويبدو أن العماد قد عرف العيون وأدرك سحرها فنراه كثيراً ما يقف أمام الألاحظ الفاترة وسهامها الفاتكة قائلاً : (٤)

أصْحُ عيون الغانيات مريضها وأفتكُ الحاظِ الحسانِ غضيضها

ويقول أيضاً عن سحر هذه العيون : (٥)

١/ السمر الاولى الرماح ، والسمر الثانية : النساء السمر ، البيض الاولى : السيوف ، والبيض الثانية : النساء البيض
٢/ الديوان ، ص ٢٧٧
٣/ شتيت مقل : الثغر المفلج
٤/ الديوان ، ص ٢٦٩
٥/ المصدر نفسه ، ص ١٧٧

مُوتِرٌ قَتُوسَ حَاجِبِيهِ لِأَصْمَا ءِ فُؤَادِي كَأَنَّهُ مَوْتُورُ
لَا تَسَلَّنِي عَنِ اللَّحَاطِ فَعَقْلِي طَافِحٌ مِنْ عُقَارِهِنْ عَقِيرُ
كَيْفَ يَصْحَوُ مِنْ سُكْرِهِ مُسْتَهَامٌ مَزَجَتْ كَأْسَهُ الْعُيُونُ الْحُورُ
أَوْرَثَتْهُ سِقَامَهَا الْحَقُّ النُّجْـ لُ وَأَهْدَتْ النُّحُولَ الْخُصُورُ

ويصرح العماد بأنه ضعيف أمام سحر العيون القاتلة فيقول : (١)

وما سقمي غيرُ سُقْمِ أَعْيُنِهَا ثم شِفَائِي الشِّفَاهُ أَرْشَفُهَا
يا ضعفَ قلبي من أَعْيُنِ نُجْلِ أَقْتَلَهَا بِالْقَلْبِ وَبِأَضْعَفِهَا

ويصور سهام العيون وأثره في قلبه العاشق قائلاً : (٢)

قَلْبٌ أَصَابَتْهُ الْعُيُونُ ، وَلَمْ يَزَلْ مِنْ مَسِيهَا بِالْهَاجِسَاتِ مُرَوَعَا

كما تحدث العماد عن المرأة وَخَلَقَهَا تحدث كذلك عن خُلُقِهَا ووصلها
وصدها ووفائها وغدرها وظلمها ، والشكوى منها والسهر من أجلها .

فيقول عن الهجر وظلم من يهوى : (٣)

مَلَكْتُمْ فَأَنْكَرْتُمْ قَدِيمَ مَوَدَّتِي كَأَنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْنِ مَعْرِفَةٌ قَطُّ

ويقول في مقدمة أخرى عن هجر محبوبته : (٤)

لَوْ دِينَ الْوَصَالَ وَمَا قَضَتْهُ وَلَوْ كَانَتْ وَفَتْ وَفَتْ دِيُونِي

١/الديوان ، ص ٣٠٦

٢/المصدر نفسه ، ص ٢٨٨

٣/المصدر نفسه ، ص ٢٧٧

٤// المصدر نفسه ، ص ٤٢٣

والعماد في أغلب غزلياته يصور ما يكابده من عذاب البين ولوعة الفراق ، وما يلقاه من ألم الهجر ويكثر من ذكر إخلاف الحبيبة للعهود والمواثيق ، فيقول : (١)

هل عائدُ زمنِ الوصالِ المُنْقَضِي؟
أم عائدُ لي في الصبابةِ مُمرَضِي
لا أَشْتَكِي إِلَّا الْغَرَامَ فَإِنَّهُ
بَلَوَى عَلَيَّ مِنَ السَّمَاءِ بِهَا قَضِي
شَغْفِي بِأَغْيَدٍ مُقْبِلٍ بِوَدَادِهِ
لِمُحِبِّهِ وَيَصْدُ صَدَّ الْمُعْرِضِ
شَكَاوِي مِنْ دَلِّ يَزِيدُ مُحَبِّبٍ
وَضَنَائِي مِنْ صَدِّ يَدُومٍ مُبْغِضِ

والعماد عاشق ولهان يكتوي بنار الصبابة ويأسر الشوق قلبه ، نافذا صبره حين فراق أحبته ، معنى ، مسهد حيث يقول مخاطبا أحبته : (٢)

عفا اللهُ عَنْكُمْ عَنْ ذَوِي الشَّوْقِ نَفْسُوا
فَقَدْ تَلَفْتُ مِنْ أَلْفِ قُلُوبٍ وَأَنْفُسُ
أَلَمْ تَعْلَمُوا إِنِّي مِنَ الشَّوْقِ مُؤَسَّرٌ؟
أَلَمْ تَعْلَمُوا إِنِّي مِنَ الصَّبْرِ مُفْلَسٌ
ظَنَنْتُمْ بَعِينِي إِنَّهَا تَأَلَّفَ الْكَرَى
فَهَلَا بَعَثْتُمْ طَيْفَكُمْ يَتَجَسَّسُ
وَلَيْسَ لِقَلْبِي فِي السَّرُورِ تَصَرُّفٌ
فَقَلْبِي عَلَى الْأَحْزَانِ وَقَفَّ مُحْبَسٌ

١/ الديوان ، ص ٢٦٢
٢/ المصدر نفسه ، ص ٢٣٦

ويصور لواعج الشوق في نفسه حين بعاد أحبته وفراقهم ،فتظلم الدنيا في
عينيه ويذرف دونهم الدموع قائلا : (١)

وإن نهارى صارَ ليَ لَئلاً لبعْدُكُمْ
فما أبصرتُ عيني صباحاً ولا شمساً
بكيْتُ على مستودعاتِ قلوبكم
كما قد بكتُ قدماً على صخرها الخنسا

وفي بعاد أحبته يستوحش قلبه وتظلم الدنيا في عينيه ولا تطيب نفسه شيئاً
جميلاً ولا نفيساً حيث يقول : (٢)

استوحشَ القلبُ مذْ غِبْتُمْ فما أنسا
وأظلمَ اليومُ مذْ بنتم فما شمساً
ما طبْتُ نفساً ولا استحسنْتُ بعدكم
شيئاً نفيساً ولا استعذبتُ لي نفساً

ويصور العمداء إخلاف محبوبته للعهود والمواثيق قائلا : (٣)

وَعَدُونَا وَأَخْلَفُوا وَوَفَيْنَا وَلَمْ يَفُوا

فهو يصور مطل الحبيبة وتمنعها ، فقد وعدت بزيارة ولكنها لم تف
بوعدها، ويقول أيضا : (٤)

أحبابنا من بعدنا كيف أنتم فقد بان صبري والكرى منذ بنتم
وما زلتم أهل المودة والوفا ولكنما خان الزمان فخنتم

١/الديوان ، ص ٢٣١
٢/ المصدر نفسه ، ص ٢٢٧
٣/المصدر نفسه ، ص ٢٩٧
٤/ المصدر نفسه ، ص ٣٧٩

وإذا خانه محبوبه وغدربه يظل هو وفيا لهذا المحبوب وحريصا على بقاء العهد، فيقول : (١)

فإن رُمْتُمُ غدري فإني على الوفا وإن خُنْتُمُ عهدي فإني على العهد

وحتى حين صَدَّ محبوبته وهجرها يظل العماد وفيا لهذا العهد لا يبوح بهذا السر حتى لا يشمت العذال ، فيظل يقاسي آلام هجرها في صمت ، ويزرف الدموع حري لفراقها فيقول : (٢)

في سلبِ أُنبي تَلَطَّفْتُ فَأَتَيْ	نحوي بخطِ الصِّبا مُلَطِّفُهَا
يا مُنْكَرًا مِنْ هَوًى بُلَيْتُ بِهِ	علاقةً مَا يَكَادُ يَعْرِفُهَا
دَعُ سِرَّ وَجْدِي فَمَا أَبُوحُ بِهِ	وخلِ حَالِي فَلَسْتُ أَكْشِفُهَا
واصْرِفْ كُؤُوسَ، المَلامِ عَنْ فَنَةٍ	عن شَرَعَةِ الحُبِّ لَسْتُ تَصْرِفُهَا
من شَرَفِ الحُبِّ حَلَّ فِي مُهَجٍ	أَقْبَلُهَا لِلْغَرَامِ أَشْرَفُهَا
لا يَسْتَطِيبُ السُّلُوءَ مُغْرَمُهَا	ولا يَلْذُ الشِّفَاءَ مُدْنَفُهَا
فَالْقَلْبُ فِي لُوعَةٍ أَعَالِجُهَا	والعَيْنُ فِي عِبْرَةٍ أَكْفَكُهَا

ويجنح العماد في كثير من مقدماته إلى تصوير ما يعانيه من الآم الهجر والصد حيث يلتاع قلبه ، ويقل صبره ويزرف الدموع حري لذلك، فيقول : (٣)

أطاعَ دَمْعِي ، وصَبْرِي فِي الْغَرَامِ عَصَى

وَالْقَلْبُ جَرَّ عَ مِنْ كَأْسِ الْهَوَى غَصَصَا

١/ الديوان ، ص ١٢٩

٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٠٧

٣/ المصدر نفسه ، ص ٢٤٩

وإن صفو حياتي ما يُكـدِّره
إلا اشتياقي إلى أحبابي الخـلـصـا
ما أطيب العيش بالأحباب لو وصلوا
وأسعد القلب من بلواه لو خلا
رخصت بعد غلائي في محبتكم
ورُب غالٍ عزيز هان إذ رخصا

ويكتوي بنار الفراق فيذوب قلبه وتتفتت كبده من كثرة بكائه على أحبته
فيقول : (١)

أبقاءً بعد الأحبة ياقـلـ — بي! ما هذه شروطُ الوداد
ذاب قلبي ، وسال في الدمع لما — دام من نار وجده في اتقاد
ما الدُموع التي تحدرها الأش — وواق إلا فتئت الأكباد

ويصور العمد لحظات الفراق، ويرسم لوحات الوداع ، وما يكون عليه
الحبيبان ، فحين ترحل حبيبته يزهد في الحياة ويتمنى الموت ، فقد أمس
يُغص بالهجر بعد أن كان ينعم بالوصل ، ولم يعد يهوى الدنيا أو يطيب له
شيء منها بعد فراق أحبته ، فيقول : (٢)

زُموا فؤادي وصبري والكرى معهم
غداة بانوا وزُموا للنوى القلصا (٣)
وقفت أتبعهم قلبـي يسايرهم
وأرسلُ الدمعَ في آثارهم قصصا (٤)

١/ الديوان ، ص ١٢٤
٢/ المصدر نفسه، ص ٢٥٠
٣/ بانوا : فارقوا ، النوى : البعد ، القلص (بفتحتين) النوق ، واحدها ناقة (
٤/ قص أثره قصا وقصصا : تتبعه

ومقلة طالما قرت برؤيتهم
أضحى السُّهادُ لها من بعدهم رمصاً (١)

ويقول في مقدمة أخرى : (٢)

قضَى عمرُهُ في الهجرِ شوقاً الى الوصلِ
وأبلاه من ذكرى الأحبة ما يُبلي
وكان خلي القلب من لوعة الهوى
فاصبح من برح الصبابة في شغلِ
وصالكم الدُنيا وهجركم الردى
وقربكم عزي وبُعْدكم ذلي
ومستحسن حفظ الوداد ، فراقبوا
لأجل اقتناء الحمد - عهدي - لا أجلي
نفى الصبر من قلب المتيم خبله
وكيف ثبات القلب في مسكن الخبل ؟
إذا ما بقاء المرء كان بوصل مَنْ
يحب فإن الهجر نوع من القتل

ويقول عن الوداع أيضاً : (٣)

ما كنت أعلم قبل فرقتنا
أن الهوى يوم النوى يُردي
شَهْد الوداع فزاده ألماً
لما أصاب الصاب في الشَّهْد (٤)

// / الرمص : وسخ أبيض يجتمع في الموق ، يقال رمصت عينه

// / الديوان ، ص ٣٥٥

// / المصدر نفسه ، ص ١٣١

// / الصاب : المرء ، الشَّهْد : العسل

رحلوا وقلبي في رحالهم
يَشْكُو صَدْبُو يُشَاكُ مِنْ صَدِّ
أَلْقَيْتُ عَنْدَ مَسَارِ عَيْسِهِمْ
نَفْسِي، وَقَلْتُ خَدِي عَلَى خَدِي (١)
نَادَيْتُ حَادِيَهُمْ بِعَيْسِكَ قَفْ
لِلْبَيْنِ مِنْ حَذْوِ عَلَى حَدِّ
رَفَقَاً بِعَيْسِهِمْ أَمَا لَهُمْ
مِمَّا بَدَا لِلْبَيْنِ مِنْ بُدِّ
فَأَهْدَأُ - هُدَيْتَ - فَمَذْ حَدَوْتَ رَمَوْا
جَلْدِي الضَّعِيفَ الْأَسْرَ بِالْهَدِّ

فهو ملتاع لفراق أحبته ، متجرعا كأس المرارة والألم في بعادهم ، يذوب شوقا للقائهم ، ويغص من ألم الصد والبعد فيزرف الدموع حرى على خده وينادي حادي عيسهم (قف) أما للفراق من بديل ، ثم يبين أثر هذا الرحيل على صبره الضعيف .
وكثيرا ما صور العمداء لواعج نفسه حينما يرى الراكب مرتحلا نحو ديار أحبته وهو بعيدا عنهم فيقول : (٢)

يَا رَاكِباً يَطْوِي الْفَلَاةَ مُسْتَعْجِلاً هَيَجَتْ أَحْزَانِي فَلَا تَسْتَعْجَلِ
أَقْلَلْتَ بِبَابِ مَسْرَتِي وَفَتَحْتَ مِنْ دَمْعِي وَخُزْنِي كُلَّ بَابِ مُقْفَلِ
عَرَجٌ وَعُجٌّ نَحْوَ الْحَمَى، سُقِيَ الْحَمَى أَعْدَلُ فَلَيْسَ عَنِ الْحَمَى مِنْ
مَعْدَلٍ

ونراه تارة أخرى مستتجدا مناديا خله ليوصل السلام إلى أحبته ، ويبثهم حنينه وأشواقه ، ليخفف عن فؤاده مكنونات الشوق قائلا : (٣)

١/ الخدو : الحذاء

٢/ الديوان ، ص ٣٥٢

٣/ المصدر نفسه ، ص ٣٦٣

يامنجداً ناديتُهُ مُستنجداً في خلتي والمرءُ ينجذُ لِـهَ
سِرِّ حاملاً سِرِّي فَأُنتَ لِحَمْلِهِ أَهْلٌ وَخَفِيفٌ عَنِ فُؤَادِي ثِقَلُهُ
وَإِذَا وَصَلْتَ فَغَضَ عَنْ وَادِي الْغَضَا طَرَفَ الْمُرِيبِ وَحَيِّ عَنِي أَهْلُهُ
وَأَهْدِ السَّلَامَ ، هَدَيْتَ لِلرَّشَاءِ الَّذِي أَعْطَاهُ قَلْبِي رُشْدَهُ فَأُضْلَهُ

وهو دائماً في بعادهم وهجرهم مسهد مؤرق ، يهزه هذا الفراق ويضعفه
وإن لم تؤثر فيه نائبات الدهر فيقول : (١)

أَرْعَى نَجُومَ اللَّيْلِ فَيَكُمُّ سَاهِراً بنجوم دَمَعٍ أَوْجُهَا فِي الْأَوْجِهِ
خَطْبُ الْفِرَاقِ شَدِهُتْ مِنْهُ وَإِنِّي لِلنَّائِبَاتِ أَشَدَّهَا لَمْ أَشَدَّهُ

ودائماً ما تفضح عينيه مكنونات شوقه ، وتفصح عما في دواخله ، من
عشق وهيام فيقول : (٢)

أما الغرامُ فأدْمَعِي أبدأً يُعْرِينَ عَنْهُ بِالسُّنِّ عُجْمُ

ومن القضايا المتعلقة بالمرأة التي تناولها العماد في غزلياته ، صورة
العُدْل واللوم ، الذين عدلوه ولاموه وعاتبوه على عشقه ، ولكنه لم يأبه بهم
، فلقد تمكن العشق منه فأصم سمعه وأعمى بصره ، وأنحل جسده ،
فيخاطب هذا العذول اللائم قائلاً : (٣)

مَقْصُودُهُ أَعْصِي الْهَوَى وَأَطِيعُهُ هَذَا، لِعَمْرِ هَوَاكَ لَا أُسْطِيعُهُ
سَمَعِي أَصَمَّ عَنِ الْعَذُولِ وَعَدْلِهِ فَعَلَامَ يَقْرَعُ مَسْمَعِي تَقْرِيعُهُ

ولوم العذول من المعاني التي وردت بكثرة في غزله ، ويندر أن يتغزل

١/ الديوان ، ، ص ٤٤٨

٢/ المصدر نفسه ص ٣٩٥

٣/ المصدر نفسه ، ص ٢٩٤

دون ذكره ، وكثيرا ما يذكره بعدم جدوى سعيه فيقول : (١)

يا لائماً يدعي نُصَحَ المحب ولم يترك له وجده سمعاً ولم يدع
أتعبت نفسك تنهي غير مُتَبِعٍ حُكَمَ الملام وتلحي غير مُسْتَمِعٍ

ويأمر الشاعر عذاله بأن يتركوه وشأنه ، فقد ملّ عتابهم ، وهو لا
يستطيع أن يطيعهم لأن داء عشقه دفين ، فيقول : (٢)

ألا يا عاذلي دَغْنِي وشأني وما تجري المدامُ من شؤوني
فإن صبابتي داءٌ دَفِينٌ وكم أبقى على الداءِ الدفينِ !
حسبتُك لي على وجدي معيناً ألا ما للمُعْنَى من مُعِينٍ

ويصور العمداد في كثير من غزله ديار أحبته ، ويتغنى بذكر أطلالهم في
وادي العذيب والغضا ونجد والحمى وكاظمة ، مترسماً في ذلك نهج من
سبقوه من الشعراء ، فيسير على آثارهم ويقتفي خطاهم ، فيقول : (٣)

أنجداني ، فبنجدٍ أَرَبِي حين غيري شامَ بالغورِ الشّامَا
وأنشراً عندي أخبار الحمى فبأخبار الحمى قلبي هاما
هذه أطلالهم تشكو الظما فدعا الأدمع تنهلُ انسجاما

ويقول في مقدمة أخرى عن العذيب : (٤)

ما كان أعذبَ بالعذيبِ لدى الصبا عيشاً أمنتُ فناءهُ بفنائِهِ
إذ كاسمه ماءُ العذيبِ وأهلُهُ في العز تحسدهم نجومُ سمائِهِ

١/ الديوان ، ص ٢٩٢

٢/ المصدر نفسه ، ص ٤٢٢

٣/ المصدر نفسه ، ص ٣٧٤

٤/ المصدر نفسه ، ص ٦٦

والوقوف عند الطلل كما يقول ابن رشيق : (طبع بدوي وتقليد عند الحضري) (١) .

وكما وقف عند الأطلال تحدث كذلك عن الرسوم الدارسة ، وما تنثيره في نفسه من حزن لفراق أحبته ، سائلا الربوع فلا يجد جوابا مما يزيد حزنه وأساه فيقول : (٢)

أطيبُ بأنفاسٍ تطيبُ لكم نَفْساً وتعضاضُ من ذكراكم وحشتي أنسا
وأسألُ عنكم عافياتِ دوارسٍ غدت بلسانِ الحالِ ناطقةً خرّسا
معاهدكم ما بالها كعهودكم وقد كررت من درسِ آثارها درّسا

وإن درست آثارهم وإنطمت معالم ديارهم ، فهي في قلبه باقية ، حاضرة في ذهنه ، واضحة في خياله فيقول : (٣)

عادت معاهدكم بالجزعِ دارسةً وإن معهدكم في القلبِ ما درّسا

ومزج حزنه على فراق أحبته بالحديث عن الشيب ، الذي رأى فيه وداعا لعهد الغواية والشباب ، وسببا لهجر أحبته فيقول : (٤)

لهفي على زمنِ الشبابِ إفانني بسوى التأسفِ عنه لم أتعوضِ
نقضتُ عهدُ الغانياتِ ، وإنها لولا إنقضاءُ شبيبتي لم تنقضِ
كان الصبا أضفى الثياب ، وإنما ذهبَ نضارةُ عيشتي لما نُضي (٥)

فهو يتحسر على انقضاء زمن الشباب ، وهو زمن الفتوة واللهو والمرح مع الغانيات ، فهو زمن زاه وجميل لم يتعوض ، ويتحسر على ذهاب كل شيء جميل في حياته مع ذهاب عهد الصبا .

١ / العمدة ، ٢١٧/١

٢ / الديوان ، ص ٢٣٠

٣ / المصدر نفسه ، ص ٢٢٧

٤ / المصدر نفسه ، ص ٢٦٣

٥ / نضي : خلع

وكما ذكر أطلال أحبته على نهج الشعراء القدامى ، كذلك صور ديار أحبته في عصره ، فذكر ديارهم في دجلة وفي نهر المعلى في العراق ، وفي جلق وجيرون وربوه في الشام ، وفي مصر وغيرها فيقول : (١)

وما تُسَلِّني عن دج لة جيرون وربوة
لا ولا جلق تله يني وفيها كل شهوة

فهو في الشام يتذكر أحبته في دجلة ولم تنسه وتشغله عنهم دمشق وربوة وما بهما من شهوات وملاهي . ويطلب من ذلك المعرق أن يبلغ أنباءه إلى أحبائه بالعراق، فيقول : (٢)

أيها المعرق يزجي بزمَامِ الشوقِ نضوة^(٣)
نافذاً كالسهم في السيد رالي أبعد غلوة^(٤)
عُجْ على نهرِ المعلى واصرفِ الهمة نخوة^(٥)
وعن المشتاق بلغ نبأ من غير نَبْوة^(٦)

وكما أكثر العمداء من ذكر أطلال أحبته ، أكثر كذلك من ذكر أسماء النساء اللاتي تغزل بهن على نهج الشعراء القدامى ، ويقول ابن رشيق : (٧) وللشعراء أسماء تخف على ألسنتهم ، وتحلو في أفواههم ، فهم كثيرا ما يأتون بها زورا نحو ليلي وهند وسلمى ودعد ونعم وزينب وعلوة وجمل (٧) فذكر العمداء سلمى ونعمى وليلي ونعم وعلوة وأم عمرو وغيرها ، فيقول : (٨)

١/ الديوان ، ص ٤٤٠

٢/ نفس الصفحة السابقة

٣/ المعرق: القاصد بلاد العراق ، يزجي : يسوق برفق ، نضوة : دابته المهزولة .

٤/ الغلوة : مقدار رمية السهم وتقدر بثلاثمائة ذراع الى اربعمائة

٥/ نهر المعلى : نهر كان ببغداد اشتقه المعلى بن طريف ، من كبار قواد الرشيد وكان يسير تحت الارض ويمر بين الدور الي باب سوق الثلاثاء، ثم يدخل قصر الخلافة المسمى (الفردوس) فيدور فيه ويصب في

دجلة (الديوان ، هامش ، ص ٤٤١)

٦/ النبوة : الخطأ والزلل

٧/ العمدة ، ١١٧/٢

٨/ الديوان ، ص ٣٨٦

يا حَبْذاً بالعراق نُعْمَى شكرتها في وصالِ نَعَمْ
أرمي بطرفي هَوًى إليها وهي لقلبي باللحظ ترمي

وفي قصيدة أخرى نراه يتحسر ويتأسف على انقضاء ذلك العيش الهنيء
في دار علوة ، فيقول : (١)

آه ! وآلهفي على عيـ ش مَضَى في دارِ علْوَه

وفي مقدمة أخرى يصور حال محبوبته (أم عمرو) حين رأت كثرة
أسفاره وفراقه لها، فيقول : (٢)

بكتُ أم عمرو مِنْ وشيكِ ترحلي
فيا خجلتا من أم عمرو ومن عمرو
تقول : الي مصرٍ تسيرُ تعجباً
وماذا الذي تبغى ، ومن لك في مصر ؟!
تبدد في سهلٍ من العيشِ شملنا
وتنظم سلكَ العيشِ في المسلكِ الوعرُ

ويدعوا العماد لديار محبوبته بالسقيا قائلاً : (٣)

سقى الله العراقَ وساكنيه وحياهُ حيا الغيثِ الهتونِ
وجيراناً أمنتُ الجورَ منهم وما فيهم سوى وافٍ أمينِ

فهو يدعو لديار محبوبته وجيرانها الأمناء الأوفياء بالغيث الغزير .
ونراه وفيما لأحبته يدعو لهم بالسقيا رغم هجرهم وتبدل ودهم له، قائلاً : (٤)

١ / الديوان ، ص ٤٣٩

٢ / المصدر نفسه ، ص ٢٠٦

٣ / المصدر نفسه ، ص ٤٢٣

٤ / المصدر نفسه ، ص ٣٥٢

سُقِيَاً لِأَحْبَابٍ تَبَدَّلَ وُدُّهُمْ بعدي ولم انقضَ ولم أتبَدَّلِ
الظَّاعِنِينَ وودُّهم مستوطنٌ والراحِلِينَ وَذَكَرُهُمْ لَمْ يَرْحَلِ
لي بعدهم حالُ المعنى المُبتلى حُزناً وَعَيْنُ السَّاهِرِ الْمُتَمَلِّمِ

وكثيرا ما يهيج البرق أشجانه ، ويثير في نفسه ذكريات أحبته ، وما كان فيه من هناء وسرور معهم ، فيقول : (١)

ومبיתי ما بينَ كأسٍ وثغرٍ راشفاً منهما متى شئتُ لائمٍ
وردٌ خدٍ نديٍّ ، وغُصنٌ قوامٍ ذا جنِيٍّ غَضٍّ وَذَلِكَ نَاعِمٍ
فانا اليومَ بالشَّامِ وحيدٌ لِسَنَا الْبَارِقِ الْعِرَاقِيِّ شَائِمٍ
لا ودودٌ على وفائي مقيمٌ لا وفيٍّ بشرطِ وُدِّي قائمٍ

ونراه يستهل إحدى مقطوعاته الغزليه بذكر برق تهامة ، على نهج الشعراء القدامى قائلا : (٢)

تَأَلَّقَ بَرَقٌ مِنْ تَهَامَةٍ لَامِعٍ يُبَشِّرُ أَنَّ اللَّهَ لِلشَّمْلِ جَامِعٍ
يحاكي خفوقَ القلبِ مني خفوقه فهل راعه مثلي من البينِ رائِعٍ
لقد طالَ ليلي لانتظار صباحكم فهل لتبشير الصباحِ طلائِعِ

فقد أثار هذا البرق لواعج شوقه ، وذكريات أحبته ، متشوقا للقاءهم ، جزعا من فراقهم وبعادهم متلهفا للقائهم .
وكثيرا ما تحدث العماد في غزلياته عن الطيف ، ويراه سببا لتجديد اللقيا والفراق وما يصحبهما من سرور وأسى ، فيقول : (٣)

قَرَبَ الطَّيْفُ وَصْلَهُ وَهُوَ نَائٍ وَأَتَانِي مُسْتَيْقِظاً وَهُوَ نَائِمٌ

١/ المصدر نفسه ، ص ٣٦٧

٢/ الديوان ، ص ٢٨٩

٣/ المصدر نفسه ، ص ٣٦٥

ويقول في قصيدة أخرى : (١)

بَتْ عَنْ طَيْفِكُمْ مُسْتَخْبِرًا مِنْ غَرَامِي بِكُمْ مَنْ كَانَ نَامَا

فالشاعر في هذين البيتين يصور طيف محبوبته ، الذي زاره قاطعا كل هذه المسافات - فهو بالشام وأحبته بالعراق - وليس له هدف إلا أن يسأله الشاعر عن أحبته وأحوالهم .

وفي مقدمة أخرى يصور العماد هذا الطيف يهتدي بنار قلبه كل ليل فيزوره قائلا : (٢)

نَارُ قَلْبِي لَضِيفٍ طَيْفِكَ تَبْدُو كُلَّ لَيْلٍ فِيهِتْدِي وَيَزُورُ
وَأَرَى الطَّيْفَ لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلِي كَيْفَ يَشْفِي الْغَلِيلَ زُورُ زُورُ

فالشاعر ملتاع لفراق أحبته إلا أنهم دائمي الحضور في مخيلته ، لا يجن الليل وينام ، إلا وكان طيفهم زائرا ، وبرغم كثرة زيارات هذا الطيف إلا أنه لم يشف غليل الشاعر من شوقه لأحبته وحينما يصحو لا يجدهم ، فيعلم أن زيارتهم في النوم هذه خيال ووهم ، مما يزيد من معاناته ولوعته لفراقهم وبعادهم .

ومن صور الغزل في شعر العماد ، عود الضمير إلى المذكر ، وهي ظاهرة نجدها في كثير من شعر هذا العصر ، ولعل السبب في ذلك احتجاب المرأة ودخولها ، وعدم السماح لها بمخاطبة الرجل ومجالسته ، مما قوى الارتباط بالتقليد ، فتغزل الشعراء ومنهم العماد بالمذكر محتذين حذو أسلافهم العباسيين .

صور العماد الغلام في أعضائه معتمدا في صورته على نقل أوصاف المرأة في قدها وخدها وخصرها وردفها وشعرها وثناياها وعينيها ، وفي غنجها ودلالها ، ويفتن بحسن منظره ولكنه لم ينحدر إلى المعاني الرخيصة المبتذلة التي نجدها عند أبي نواس .

١ / الديوان، ص ٣٧٣

٢ / المصدر نفسه ، ص ١٧٨

يصور العماد سحر عيني الحبيب ولطافة حركاته قائلاً : (١)

أفدي الذي خلبت قلبي لواحظه وخلدت لدعات الحب في كبدي
صفات ناظره سقم بلا ألم سكر بلا قدح ، جرح بلا قود
معشوق الدل من تيه ومن صلف مرنج العطف من لين ومن ميد
على محياء من نار الصبا شعل وورد خديه من ماء الحياة ندي

ويولع العماد بهذا الحبيب ويتمنى ألا يغيب عن ناظريه ، حتى في
منامه فيقول : (٢)

أتمنى ليلة من طيفه في النوم خلوه
ومتى أطمع في الطيب ف ، وما للعين غفوه
ومتى أسعد بالوصف ل ، فإن البين شقوه

على الرغم من وجود الغزل بالمذكر في شعر العماد إلا أنه لا يمكن أن
يوصف بأنه صاحب علاقات شاذة ، أو إنحرافات سلوكية كما نقل الصفدي
في كتابه (الوافي بالوفيات) ذلك الخبر (٣) ، لأن العماد كان من الفضلاء
الأتقياء ، لازم الخلفاء العباسيين والوزراء والقواد والابطال ، وهم دعاة
الاسلام وحماته ورعاته ، فكان حرياً به أن يترفع عن الدنيا والرذائل ،
وقد رد محمد بهجت الأثري عنه هذه التهمة قائلاً : (فلو عرف العماد
بمثل هذه التهمة حقاً لما بلغ في الدولتين النورية والصلاحية ما بلغ من
علو الشأن لحرص مؤسسيهما العظيمين على إقامة شعائر الاسلام
واصطفاء الأخيار من أكابر العلماء للوزارة والقضاء والكتابة) (٤) .
فالعماد تغزل بالمذكر تمشياً مع روح العصر ، ومن أجل الوصف
ليبرهن على إجادته في هذا المجال ، أوربما قال ذلك تقليداً واحتذاءً لمن
سبقوه من السلف ، ويقول الدكتور عمر موسى باشا : (فنذهب إلى ما

١/ الديوان ، ص ١٣٧

٢/ المصدر نفسه ، ص ٤٣٩

٣/ الوافي بالوفيات ، ١/ ١١٩

٤/ الخريدة ، قسم لعراق ، ص ٥٦

ذهب إليه بعض الباحثين بأن الغزل بالمذكر عند فريق من الشعراء — ومنهم العماد — لا يعبر تماما عن الواقع ، بل هو باب العبث البرئ . وهو ضرب من التصنع البديعي لإظهار الحذق ، ذلك أن طبيعة الشعر العربي ونظرية التقليد في الحذق استدعت مثل هذه الظاهرة واستمرارها في هذا العصر (١).

يتضح مما تقدم أن العماد ترسم خطى من سبقوه من الشعراء في غزلهم التقليدي من ذكر الأطلال والرسوم الدارسة والوقوف عليها ، وبثها ما يعتلج في صدره من فراق أحبة ، ويتحرق شوقا إلى أيامه البيض ، أيام وصاله ونواله ، وهو في غزله يصف مفاتن محبوبته الجسدية ، ويصف أخلاق الحبيبة من غدر وهجر وتحول وتبدل ، ولم يخرج عما عرف عن خلاق النساء وصفاتهن .

الوصف

الوصف من فنون الشعر العربي القديم ، وهو ملازم لطبيعة النفس البشرية ، فالشاعر يستمد موضوعاته من طبيعية بيئته يتأثر بها ويؤثر فيها ، محاولاً أبداً أن يعبر عن تأثيره وتأثره (١). ويعد أحمد أحمد بدوي الوصف بأنه عمود الشعر وعماده ، ويقول : (بل إننا نستطيع أن ندخل جميع فنون الشعر تحت الوصف ، فالمدح وصف للممدوح والهجاء وصف للمهجو ، والنسيب وصف للحبيبة وللمحب حيناً آخر ، والثناء وصف لفقيد عزيز) (٢) فالوصف فن واسع يشمل جميع مفردات الطبيعة ، والناس يتفاضلون في أوصافهم فمنهم من يجيد في وصف شيء ولا يجيد وصف آخر ، ومنهم من يجيد في الأوصاف كلها ، وإن غلبت عليه الإجابة في بعضها كأمير القيس قديماً وأبونواس في عصره والبحثري وابن الرومي في وقتها وابن المعتز وكشاجم (٣).

وإذا تصفحنا ديوان العماد نجد أن الوصف من الفنون التي برز فيها وأجاد ، فقد عرض لهذا الفن قصائد مستقلة حيناً ، ومزج بينه وبين أغراض أخرى حيناً آخر ، فمزج بين الوصف والمدح في بعض القصائد ، وأتى بالوصف مستقلاً في قصائد أخرى ، كما في وصفه للمدن ووصفه للثمار والحمى والحشرات ، مترسماً خطى من سبقوه في هذا الفن ، وسنتناول ذلك بشيء من التفصيل :

أولاً : وصف المدن

فقد عاش العماد في المدن الكبيرة مثل أصبهان ، وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وغيرها من المدن ، ونشأ بين أحضان معالمها الحضارية ، وتنقل في أريافها وبواديها ، واستمتع بمباهج الطبيعة الجميلة

١/ فن الوصف وتطوره في الشعر العربي : إيليا حاوي ، طبع منشورات دار الشرق الجديد ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٩م ، ج ١ ، ص ٥

٢/ أسس النقد الأدبي عند العرب : أحمد بدوي ، دار نهضة مصر ، د. ت. ص ٦٢

٣، العمدة ، ٢ / ٢٩٥

فيها، فصور ما شاهده ووصف ما أحس به . وكانت دمشق من المدن التي حظيت باهتمامه ، لأنه أحبها وقضى فيها أجمل أيام عمره فوصفها في كثير من أشعاره ومن ذلك قصيدته التي وصف فيها خمائلها ، وطيب ثمارها وجداولها ورقراق مياهها ، ورباها وبديع أزهارها ومساحاتها وميادينها ، ومبانيها وجمال هندستها ، وقد استهلها بقوله : (١)

أَهْدَى النسيمُ لَنَا رِيَا الرِّياحِينِ أُم طَيْبَ أَخلاقِ جِيراني بِجِironِ
هَبَّتْ لَنَا نَفْحَةً فِي جَلقِ سَحْرا باحَتْ بِسرٍ مِنَ الْفردوسِ مَكْنونِ
وفاحَ بِالْعَرَفِ مِنْ أَرْجائِها أَرْجُ نالَ الْمسْرَةَ مِنْهُ كُلُّ مُحْزونِ

إلى أن يقول :

وللبساتين أنهارٌ جداولُها
تَسْتَنُّ فِي الجَرى أَمْثالَ الثَّعابينِ
وقد تراءَتْ بها الأشجارُ تَحسَبُها
صفوفَ خيلٍ صُفونٍ فِي الميادينِ (٢)
وللخِلافِ لإظهارِ الخِلافِ على
أُترابِهِ وَرَقَّ شِيبُهُ السَّكاكينِ (٣)
وكلُّ غُصْنٍ بَعْصَفِ الرِّيحِ مُمْتَحِنٌ
كَأَنَّهُ عاقلٌ مُبْلَى بِمَجْنونِ
لِلأَقْصوانِ ثُغورُ الغانِياتِ كما
لِلنرجسِ الغُضِّ الحاظُ المِها العِينِ
وللبنفسجِ خالٌ لِلْعِذارِ إذا
ما الخطُّ بِالخالِ حاكى عِطْفَةَ النُّونِ

١/ الديوان ، ص ٣١٤

١/ صفون : جمع صفن ، وصفن الفرس : قام على ثلاثة قوائم وطرف حافره الرابعة

٢/ الخلاف : نوع من شجر الصفصاف

والوردُ خذْ من التوريدِ في حَجَلٍ
والغُصْنُ قد تَتْنِيهِ من اللين
وللنسيمِ ولُوعٌ بالغديرِ فما
يزالُ ما بينَ تفريكِ وتَغْضِينِ (١)

لقد وصف العماد هذه الرياض الغناء الجميلة وما بها من جداول وأشجار
منسقة ، تتحلى بألوان زاهية مختلفة ، وأزهار متنوعة واشكال بديعة ،
فيذكر زهر الأقحوان والنرجس والبنفسج والورد .

ثم يصور معالم الحضارة فيها ، فيصف مبانيها الشاهقة ، وثمارها
الوفيرة غير الممنوعة وأزهارها المختلفة الجميلة التي تسر الناظرين
وتأثر القلوب ، فيقول :

يُصِيبُكَ مَيِّطُورُهَا طَوْرًا وَنَيْرِبُهَا
طَوْرًا وَتُؤَلِّيكِ إِحْسَانًا بِتَحْسِينِ (٢)
تَرى جَوَاسِقَهَا فِي الجَوِّ شَاهِقَةً
كَأَنَّهُنَّ قُصُورٌ لِلسَّلَاطِينِ
دَارُ النِّعَمِ وَمِنْ أَدْنَى مُحَاسِنِهَا
ثَمَارٌ تَمُوزُ فِي أَيَّامِ كَانُونِ
نَعِيمُهَا غَيْرُ مَمْنُوعٍ لِسَاكِنِهَا
كَالْخَلْدِ وَالْمَنُ فِيهَا غَيْرُ مَمْنُونِ
كَأَنَّمَا هِيَ لِلأَبْرَارِ قَدْ فَتَحَتْ
مِنَ الْفَرَادِيسِ أَبْوَابَ الْبَسَاتِينِ
أَزْهَارُهَا أَبَدًا فِي الرُّوضِ مُوْنِقَةً
فَحُسْنُ نَيْسَانٍ مَوْصُولٌ بِتِشْرِينِ
وَأَيُّ عَيْنٍ إِلَيْهَا غَيْرُ نَاطِرَةٍ
وَأَيُّ قَلْبٍ عَلَيْهَا غَيْرُ مَفْتُونِ

١/ تغضين : غضن الشيء ، ثناه وجعده
٢/ ميطورها : من قرى دمشق (معجم اللدان ، ٥ : ٢٤٤)

لقد تعلق العماد بدمش فأحبها ، وحبه لها وثيق الصلة بحبه لطبيعتها ، فوصف في أشعاره جمال وروعة دمشق ، ووصف جداولها ورقراق مياهها ، وهندسة بنينها وبديع أزهارها .

وحينما خرج العماد دمشق إلى القاهرة بصحبة السلطان صلاح الدين الأيوبي عزت عليه دمشق ، وصعب عليه فراقها ، فحن قلبه إليها وجاشت قريحته فوصف حنينه إليها ، وصور ما تركه هذا البعد في نفسه من شوق قائلاً : (١)

وما جنة الخلد إلا دمشق وفي القلب شوقاً إليها سَعِيرُ
ميادينها الخضر فيح الرحاب وسَلَسَالِها العذب صافٍ نَمِيرُ
وباب الفرديس فردوسها وسكائُها أحسنُ الخلق حورُ (٢)

فشبه دمشق بجنة الخلد لما تتمتع به من طبيعة ساحرة أخاذة ، ومياه عذبة صافية ، ويشبهها أيضاً بجنة الفردوس ، ويشبه سكانها بحور الجنان ، كل ذلك تفضيلاً لها على بقية المدن الأخرى ، ولمكانتها العظيمة في نفسه ، فلفراقها يلتاع قلبه ويزرف الدموع حرى لبعده عنها ، بل ويفقد الإحساس بالحياة وهو بعيد عنها فيقول :

وما كُنْتُ أعلمُ أني أعي شُ بعدَ التفرقِ ، إنِّي صَبُورُ
وفت أدمعي ، غيرَ أنَ الكرى وقلبي وصبري ، كُلُّ غَدُورُ
ومن بردى بردُ قلبي المشوق فها أنا من حره مُسْتَجِيرُ (٣)
فقدتكم ففقدت الحياة ويوم اللقاء يكونُ النُشُورُ

ودمشق بسحرها الأخاذ وحدائقها الغناء ، تأسّر قلبه ، وتمتلك حواسه وعقله ، فيقول كيفما تأملت وأينما نظرت ، لا أرى غير دمشق بطبيعتها الجميلة ومناظرها الخلابة فيقول :

وَأَيْنَ تَأْمَلْتَ فُلْكَ يَدُورُ وَعَيْنُ تَقُورُ وَبَحْرٌ يَمُورُ
وَأَيْنَ نَظَرْتَ نَسِيمٌ يَرْقُ وَزَهْرٌ يَرُوقُ وَرَوْضٌ نُضِيرُ

١/ الديوان ، ص ١٨٥

٢/ باب الفرديس : نسبة الي محلة الفرديس تقع شمال دمشق (نزهة الانام في محاسن الشام ، ص ٢٥

٣/ بردى أعظم نهر بدمشق

ويظهر عشقه لدمشق في قصيدة أخرى ، حيث يصور فراقه لدمشق وذهابه إلى مصر مع صلاح الدين الأيوبي بأنه بيع شابه غرر (أي غش) ورحلته هذه صفقة خاسرة ، وظل يزرف دونها الدموع الحرى ،
قائلا : (١)

بعث بمصر دمشق عن غررٍ مني، فيا غبنَ صفقةِ البائعِ
صبري والقلبُ عاصيان وما غيرُ همومي وأدْمعي طائعي

ثانيا: وصف الرياض

ومن مظاهر الطبيعة الصامتة التي وصفها العماد الرياض ، فصورها في أشعاره بألوان زاهية ، وألبسها حلة جذابة ، فوصف هذه الرياض في فصل الربيع وهو من أجمل فصول السنة ، حيث يعتدل الجو ، وتهطل الأمطار ، فتكتسي هذه الرياض حلة خضراء ، وتفتتح أزهارها المختلفة الألوان ، فيقول في وصف روضة في الربيع : (٢)

ما بارقَ ذو عارضٍ من ودِّه ورعوده في نادٍ ومقهقه
هامٍ يظلُّ الروض من أمواهه في الزهر بين مذهبٍ وممّوه
فالروض من حلل الربيع أنيقة والروض من حلّ الشقائق مزده
أجدى واسمح من يديه فجودها عند الغيوث إذا انتهت لا ينتهي
لا عز إلا عند عز الدين مو لاي الأجل أخي الفخار الأنبه

فالعماد يصور هذا الجو الملبد بالسحاب والغيوم ، وما به من رعد وبرق ، ويصور حال هذه الرياض قبل هطول الأمطار ، فهي نادبة أي حزينة تندب حظها ، ويصور حالها بعد هطول الأمطار فهي (مقهقه) أي انها مخضرة ومتفتحة الأزهار ، فتتعلق قطرات الندى على الزهر ، وتكتسي هذه الرياض بحلل الربيع الأنيقة المختلفة الألوان والأزهار .
وفي قصيدة أخرى يعمق الشاعر هذا المعنى ، فيبين أثر الربيع على هذه الرياض قائلاً : (٣)

ما رياضُ فاحتْ: لطائف أنفا س صباها لطائف ولطائم (١)

١/ الديوان ، ص ٢٩١

٢/ المصدر نفسه، ص ٤٥٠

٣/ المصدر نفسه ، ص ٣٦٩

أظهرت سِرَنشَرها فكأن قد
وَشِي أنوارها المفوف أسدى
كقدودٍ تعلقتُها قلوبٌ
فبَشَدُو الغناء للورق أعرأ
من سجايا بني المظفر أبهى
ما استقامت إلا بهم سنة الشر

مشت الريحُ بينها بالنمائم
وأن طرت فيه أكفُ الغمام
ذاتُ شجورٍ غصونها والحمام
سُ وبالنوح للحمام مآتم
ومساعيتهم الحسان الكرائم
ع ودين الهدى ودولة هاشم

ففي هذه الأبيات يبرز الشاعر جانباً آخر لهذه الرياض بأزهارها المختلفة في فصل الربيع ، فيحدثنا عن الروائح الطيبة الزكية المنبعثة منها التي تشبه رائحة المسك ، وتكثر بهذه الرياض الطيور المغردة ، فرحة بهذه الطبيعة الخلابة وهذه الروائح الزكية . فهي في موسم أفراح بغنائها العذب وفي الجانب الآخر فهي في موسم أتراح بنوح الحمام .

وفي قصيدة أخرى يصف العماد روضة جادت عليها السماء بالامطار الغزيرة ، فألبستها ألوان مختلفة من الأزهار قائلا : (٢)

وما روضة غناء مرهوبة الثرى
شمائلها طابت وطاب شمائلها
تردد أنفاس النسيم عيلة
لها من ثغور الأقحوان تبسم
كان نعامها تبلغ نحونا
تورج أرجاء الرضاء كأنما
باحسن من أخلاقك الزهر بهجة
وأذكى وأزكى من سجيته الرسل (٦)

مضوعة الأسد حار طيبة الفصل (٣)
سقتها شمولاً عند مجتمع الشمل
عليها، فيشفي مرها كل مغل
وتنظر عن أحداق نرجسها النجل
تحايا قرأناها على السن الرسل (٤)
تجامل في حمل التحية عن جمل (٥)
وأذكى وأزكى من سجيته الرسل (٦)

فالشاعر يصف هذه الرياض وقد هطلت عليها هذه الأمطار سحرا ، في فصل الربيع ، ويصف أثر هذه الأمطار على الرياض ، فقد تفتحت أزهارها وفاح أريجها وحمل النسيم هذه الروائح الطيبة الزكية التي تشفي كل

١/ اللطائم : جمع لطيمة وهو وعاء المسك

٢/ الديوان ، ص ٣٥٩

٣/ مرهومة : ممطورة مطرا لبنا صغير القطر

٤/ النعamy : ربح الجنوب

٥/ جمل : من أسماء نساء العرب

٦/ الرسل (يكسر الراء) : الرفق

مريض يستنشقها ، ثم يصف الأزهار المختلفة في هذه الرياض ويتقدمها
الأقحوان والنجرجس ويصف ريح الجنوب وما تتركه من أثر في نفوسهم
فتدغدغ خيالاتهم وتحب ذكريات الأحبة في وجدانهم ، فتذكرهم بأحبتهم .

والعماد وإن أعجب بجمال الطبيعة في الرياض بما فيها من غصون ،
وأزهار مختلفة ، فقد أعجب بالجمال في جزيئاتها فوصف تدرج الألوان بها
ووصف الأشجار وطولها وتنسيقها وجداول مياهها ، قائلا : (١)

وما روضة غناء حُسناً كأنما	لوارفها من نسج نوارها مِرْطُ
إذا قادني للنجرجس النضرناضرٌ	تلاه عذارٍ للبنفسج مُخْتَطُ
والوردِ خدٌ للحياءِ مُورِدُ	وللبانِ قَدْ، جِيْدُهُ أَبْدأُ يَعْطُو(٢)
تلوحُ به الأشجارُ صفاً كأنها	سطورُ كتابٍ والغديرُ لها كَشْطُ
بازكي وأذكي منك حسناً وإنما	بحسناك لا بالروض للعائد الغبط
لك الصدروالباع الرحبان في العلى	وذاك المحيا الطلق والأنمل السبط

ويخلع العماد نفسيته على تلك الرياض ، فتطل ظلال مهنته (الكتابة) في
وصفه لهذه الرياض كقوله في آخر بيت (تلوح به الأشجار ...) ويقول
أيضا في ذات المعنى من قصيدة أخرى : (٣)

وكانَ الروضَ الأثيقَ كتابٌ وكانَ الأشجارَ فيه سطورُ

وصف الثمار والفواكه :

ومما استوقف العماد في دمشق وفرة ثمارها وتنوعها ، فقد حباها
الله بهذا الخير العقيم الذي تميزت به عن المدن الأخرى ، مما دعاه إلى
وصف صنوف الفواكه ، مثل المشمش الذي خصه بغير قصيدة ، ومن ذلك

١/ الديوان ، ص ٢٨٠

٢/ يعطو : يريد أنه قريب يتناول

٣/ الديوان ، ص ١٧٩

قوله : (١)

هَلُمُوا نَسَابِقَ نَحْوَ مِشْمَشٍ جَلِقَ وَثَمَ لَمَّا نَهَوَى عَلَى الْأَكْلِ نَلْتَقِي
تَصْفَرُّ شَوْقاً لَانْتِظَارِ قَدُومِنَا وَمَنْ يَتَعَشَّقُ ذَا الْفَضَائِلِ
يَشْتَقِ

وما رمقت للشوق رمداً عيونه فإن تترفق منه تنظر وترفق
إذا حضرت أطباقه غاب رشدنا لما يتلاقى من مشوق وشيق
لأن مذاب الشهد فيه مجسد أجده عهد الرحيق المعق

فالعماد يصف لنا في هذه الأبيات ثمار المشمش الصفراء الشيقة المحببة إلى نفسه ، ولعل لمشمش دمشق ميزة خاصة جعلت الشاعر يسابق غيره لينال حظه منه ، فاذا ما أحضرت أطباقه فقد الشاعر عقله ، لشدة حلاوته وعذوبة مذاقه ، ومدى عشقه وشوقه له .

وفي قصيدة أخرى يصور العماد هذه الثمرة الشهية قبل أن تقطع من شجرتها فيشبهها بالذهب المعلق بأعناق العرائس فيزيدهن حسنا على حسنهن وجمالا على جمالهن ، ويقول إن حلاوة هذه الثمرة لا تمل إذا ملت الحلاوات الأخرى : (٢)

حُلِيْ تَبْرٍِ عَلَى عَرَائِسَ أَغْ صَانٍ تَشَكَّلَتْ مِنْ قَبْلِهَا عَطَلَا
حَمْرٌ حَسَانُ الْوَجْهِ قَدْ لَبَسَتْ مِنْ خَضِرٍ أَوْرَاقَهَا لَهَا حُلَا
عَرَائِسٌ مِنْ خِدُورِهَا بَرَزَتْ تَحَسُّبُ أَشْجَارَهَا لَهَا كِلَا
حَلَاوَةٌ لَا يَمِلُّ أَكْلِهَا إِذَا الْحَالَاوَاتُ أَحْدَثَتْ مَلَا

وقال العماد في وصف ثمار الأترج : (٣)

وَأُتْرِجَةٌ صَفْرَاءٌ لَمْ أَدْرِ لَوْنَهَا أَمِنْ فَرَقِ السَّكِينِ أَمْ فَرَقَةِ السَّكَنِ ؟
بِحَقِّ عُلَّتْهَا صَفْرَةٌ بَعْدَ خُضْرَةٍ فَمِنْ شَجَرٍ بَانَتْ وَصَارَتْ أَلِيَّ شَجَنِ

١/ الديوان ، ص ٣٤

٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٣٠

٣/ المصدر نفسه ، ص ٤٠٤

فهو يصف هذه الثمرة الصفراء متسائلا عن لونها ، هل هي اكتسبته لأنها استوت لتقطع بالسكين أم أنها اكتسبت هذا اللون حزنا لفراق سكنها .

وقد وصف العماد إلى جانب الثمار الطبيعية المأكلة المصنوعة مثل القطائف ، وهي حلواء تؤدم باللوز ، فخصها بقصيدة مطلعها : (١)

ما راقداً في صحونٍ مُستوطناتٍ في سكونٍ

أوضح فيها شكلها الجميل ولونها الجذاب ، ومنظرها اللطيف ، وصنعها البديع ، وطعمها اللذيذ والأواني البراقة التي إحتوتها ، قائلاً :

المستطاباتُ الظهُو	رِالمستلذاتُ البطُون
نُضدَنَ بالترصيعِ في الـ	جَاماتِ كالدِرِ المَصُون
المستقيماتُ الصَفو	فِوقُفْنَ كالخيلِ الصَفون
وقد اشتملتُ مِنَ اللطا	ئِفِ والصفاتِ على فنون

وكما وصف العماد الطبيعة الساكنة وصفا دقيقا ، فقد وصف أيضا الطبيعة المتحركة ، بحيواناتها وطيورها المختلفة ، التي كانت تزيد من جمال تلك الحدائق والرياض ، ومن ذلك :—

١ / وصف الطيور :—

فقد وصف العماد عددا من الطيور التي كانت منتشرة في تلك الفترة منها القمري والحمام والبلابل والورق وغيرها . فيقول في إحدى قصائده

١ / الديوان، ص ٣٥

واصفا تلك الطيور على الرياض ورجع صوتها : (١)

مرجعة فوق الغصون حمامها فنون هديل بين أفنانها الهل دل
(٢) ٥

تنوح بها الورقاء شجواً كأنها مفجعة بين الحمام بالشكل (٣)
مطوقة أبلت سواد حدا دها ففي الجيد باق منه طوق له كحلي

فالعماد يصف لنا هذه الحمام بصوتها الشجي ، بين أغصان هذه الرياض المثقلة بالثمار ، ويصف لنا هذه الورقاء وهي تنوح كأنها مفجعة ، وفي صورة أخرى بديعة يصف لونها الأبيض والطوق الأسود الذي بعنقها

وفي قصيدة أخرى يصف العماد بلابل الروض وما تركه لحنها من تأثير في قلبه المستهام ، وقمريةا وتأثير شدو أنغامه ، والحمام وهديلها في الأسحار كأنه تمانم تعوذ به هذه الرياض ، فيقول : (٤)

هاجت بلابل قلبي المستهام بها بلابل الأيك غنتنا بتلحين
قمريةا مقريء يشدو بنغمته آيا تعلمها من غير تلقين
والحمام في الأسحار أدعية مرفوعة شفعت منا بتأمين
خافت على الروض من عين مطوقة أضحت تعوذه منها بياسين

فالعماد في وصفه لهذه الرياض والأزهار وتغريد الطيور بها ، يأتي بالجديد المبتكر في صورته ، فيشبه صوت الحمام في الأسحار كأنه أدعية ، ويشبه هذه الحمام وهي خائفة على هذا الروض من عين المطوقة فتعوذه منها بسورة يس .

١/ الديوان ، ص ٣٦٠
٢/ الهذل : الأغصان المتدليلة لثقلها بالثمر
٣/ الورقاء : نوع من أنواع الحمام
٤/ الديوان ، ص ٤٣٣

وتتكرر هذه الصورة الجديدة المبتكرة في شعر العمداد ، ففي قصيدة أخرى يشبه حمائم هذا الروض على الأشجار وشجو صوتها كأنها وعاظ على المنابر تعظ للتذكير فيقول : (١)

ما رياضُ بَنُورِها زَاهِراتٌ	غَرَدَتْ في غُصُونِهِنَّ الطُّيُورُ
كُلُّ غُصْنٍ عَلَيْهِ مِنْ خَلْعِ النُّورِ	رَرْدَاءُ ضَافٍ وَوَشْيِ حَبِيرُ
وُزُقُها في مَنابِرِ الأيْكِ مِنْها	وَأَعْظَاتٌ مِنْ شَأْنِها التَّذْكِيرُ
كَمَعاني مَدِيحِكَ حَسْنا وَمِنْ أَيْ	نِ يَبْأَرى البَحْرَ الخُضْمَ الغَدِيرُ
مُسْتَجِيرِ جُورِي وَأَني مِنْه	بَابِنِ أَيُوبِ يَوْسُفَ مُسْتَجِيرُ

٢/ وصف الإبل :-

ومن الحيوانات الأليفة التي وصفها العمداد في شعره الإبل ، فقد وصفها وهي نشطة سريعة ، قائلا : (٢)

وَكَمْ فَذَفْدٍ جَاوَزَتْ أَجْوَازَهُ سُرًى	كَأَنِّي وَشَاحٌ جَائِلٌ فِي خِصُورِهِ (٣)
بِمَهْرِيَّةٍ تَحْكِي بِكَفِي زَمَامِها	وَأَحْكِي لَكِدِ السَّيْرِ بَعْضَ سَيُورِهِ
وَخَاطِبَ أَبْكَارِ الْفَدَافِدِ جَاعِلٌ	بَكَارِ الْمَهَارِي فِي السُّرَى مِنْ مَهُورِهِ

فهي نجائب سريعة لا يستطيع الثبات على ظهورها، فهي تحركه يمينا ويسرة وهو يقبض بكفه حبل زمامها حتى يمنعها من السير السريع .

وكما وصف هذه النوق سريعة نشطة ، وصفها أيضا وهي مهزولة بطيئة ، قائلا : (٤)

أَيَا رَاكِبَ النَّضْوِ يُنْضِي الرِّكَابَ تَسِيرُ وَخَطْبُ سُرَاهُ يَسِيرُ (٥)

١/ الديوان ن ص ١٧٩

٢/ المصدر نفسه ، ص ٢٢٠

٣/ الفدفة : الفلاة

٤/ الديوان ، ص ١٨٦

٥/ النضو : البعير المهزول

فهو يصف هذا البعير المهزول البطيء الحركة ، فيعيق حركة من معه .

وفي قصيدة أخرى يصف العماد ناقته السريعة التي أنهكها التعب من كثرة الأسفار حتى أضحت جائلة الوضين (١) قائلاً : (٢)

وجائلة الوشاح رأت جماحي على هوجاء جائلة الوضين (٣)
عشية ودعت، والعيسُ تخذي نواحل قد برين من البرين (٤)

٣/ وصف الخيل : -

فقد وصف العماد خيل صلاح الدين الأيوبي وشبهها بالصقور في سرعتها ونشاطها، وهي تحمل فرسانا مثل الصقور في خفتهم وقوتهم ، قائلاً : (٥)

بجرّد عليها رجالُ الهياج كأن صقوراً عليها صقورُ

٤/ وصف الحشرات :-

وتناول العماد في شعره كذلك وصف الحشرات مثل البق والبرغوث ، وأبان أثرهما في جسده حينما بات ليلة في موضع بالقرب من مدينة واسط فقرصته هذه الحشرات وأزعجته ولم تتركه يخلد للنوم

١/ الوضين : هو البطان الذي يشد به الرجل على البعير

٢/ الديوان ، ص ٤٢٤

٣/ الهوجاء الناقة ، الوضين : بطان منسوج بعضه على بعض يشد به الرجل على البعير

٤/ تخذي : تسرع ، برين : هزلن ، البرين : جمع بره وهي الحلقة في أنف البعير

٥// الديوان ، ص ١٨٥

والراحة ، فصور هذه الحشرات وما فعلته به ، قائلا : (١)

يا لحي الله ليلة قرصنتي في دياجيرها البراغيثُ قرصا
شربتُ بقها دمي فتغنتُ وبراغيثها تواجدنُ رقصا
قد تعريتُ من ثيابي لكربي غير أني لبستُ منهن قمصا
كلما ازددتُ منعهن بحرصٍ عن فراشي شرهن فازددن حرسا
من براغيث خلتها طافراتٍ طائرات جناحها قد
حصا (٢)

عرضت جيشها الفريقان حولي وهي أوفى من أن تعد وتحصى
لوغزا سنجر بها الغزيوماً لم يدع منهم على الأرض شخصا (٣)

فالعماد يصف هذه الليلة وقد قرصته هذه الحشرات وأزعجته فالبعوض يشرب من دمه ويتغنى فرحا بذلك ، والبراغيث ترقص على أنغام آلامه ، وهي كثيرة العدد ، لا تعد ولا تحصى ، كلما حاول منعهن وصدھن عنه ازددن شراة لمهاجمته وتقدمن نحوه بأعداد أكبر لتقطع جلده وشرب دمه، ووصف كثرتها هذه، كثرة لوغزا بها الملك السلجوقي سنجر الغز لم يترك منهم شخصا على وجه الأرض .

٥/ وصف الزلزلة : -

فقد سجل العماد في شعره بجانب وصف الطبيعة الأحداث الجارية في عصره ، ودون المآسي التي مرت بأهله ، فسجل ما أصاب الشام سنة خمس وستين وخمسمائة للهجرة من زلزلة كبرى ضربت بلاده ، وهدمت أسواره وقلاعها ، وأسقطت دوره على أهلها وأهلكت من سكانه ما يخرج عن العد والإحصاء ، وقد نقل أبو شامة في الروضتين عن ابن الأثير

١/ الديوان، ص ٢٤٨

٢ / حصا : قل ريشه

٣ / سنجر : السلطان سنجر بن ملكشاه ألب أرسلان السلجوقي (٤٧٩ - ٥٥٥ هـ) صاحب خراسان وغزنة وما وراء النهر (الكامل في التاريخ ، ٢٢٢/١١ ، ووفيات الأعيان ، ٢٨٠/٢)

وصفها ، قائلاً : (إنها كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلاً عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها ، إلا أن أشدها وأعظمها كان في الشام وهلك من الناس ما يخرج عن العد والإحصاء) (١) ومع ذلك فقد خف وقعها عند العماد ، عندما دمرت هذه الزلزلة بلاد الصليبيين ، فنسي العماد هول ما نزل بالمسلمين من جرائها ومضى يتغنى بمصاب الفرنج في بلادهم ، قائلاً : (٢)

سَطَوَةٌ زَلَزَلَتْ بِسُكَّانِهَا الْأَرْضَ أَخَذَتْهُمْ بِالْحَقِّ رَجْفَةً بُاسٍ خَفَضَتْ فِي قَلَاعِهَا كُلَّ عَالٍ أَنْفَذَ اللَّهُ حُكْمَهُ فَهُوَ مَاضٍ آيَةٌ أَثَرَتْ ذَوِي الشَّرِكِ بِالْهَلَكِ وَالْأَعَادِي جَرَى عَلَيْهِمْ مِنَ التَّدْ أَشْرَكَتْ فِي الْهَلَاكِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ وَلَقَدْ حَارَبُوا الْقَضَاءَ فَأَمْضَى	ضَ وَهَدَتْ قَوَاعِدَ الْأُتُودِ تَرَكْتَهُمْ صَرَغَى صُرُوفِ الْعَوَادِ وَأَعَادَتْ قَلَاعَهَا كَالْوَهَادِ مُظْهِرٌ سِرَّ غَيْبِهِ فَهُوَ بَادٍ كُ وَأَهْلَ الْإِيمَانِ بِالْإِرْشَادِ مِيرَمَا قَدْ جَرَى عَلَى قَوْمٍ عَادِ نَ دُعَاةِ الْإِشْرَاكِ وَالْإِلْحَادِ حُكْمَهُ فِيهِمْ بِغَيْرِ جِلَادِ
---	---

فالعماد يصف هذه الزلزلة بأنها كانت زلزلة عظيمة ، هدت قواعد الجبال ودمرت كل عال وساوته بالأرض ، وخلفت من القتلى ما لا يحصى عدا ، وهي آية من آيات المولى عز وجل لتتذرا أهل الشرك بالهلاك ، ولتتعظ أهل الإيمان وترشددهم ، ويشبه الدمار الذي أحدثته هذه الزلزلة بالدمار الذي حدث لقوم عاد .

وفي ختام القصيدة يأتي العماد بعبارة لطيفة لسبب هذا الزلزال فيرى أن الأرض قد جنت وارتكبت جرماً باحتضانها لهؤلاء الأفرنج المغتصبين الذين أكثروا من الفساد فيها، فلما علمت أنها جنت ارتعدت خوفاً من بطش الممدوح فكانت هذه الزلزلة ، فقال :

وَبِحَقِّ أَصِيبَتِ الْأَرْضُ لَمَّا عَلِمَتْ أَنَّهَا جَنْتُ فَعَرَاها	مَكْنَتْ مِنْ مَقَامِ أَهْلِ الْفُسَادِ حَذَرًا مِنْ سَطَاكِ شِبْهُ ارْتِعَادِ
--	---

١/ الروضتين ، حوادث سنة ٥٦٥ هـ

٢/ الديوان ، ص ١٢٦

وفي قصيدة أخرى يأتي العماد بعلل طريفة مبتكرة لهذه الزلزلة
قائلا : (١)

رَجَفَتْ لِسُطُوتِكَ الَّتِي أَرْسَلْتَهَا نَحْوَ الطَّغَاةِ لِحْدِ عِزِّكَ مُمְهِيا (٢)
وَتَظَلَّمْتُ مِنْ شَرِّهِمْ فَتَمَلَّمْتُ عَجَلُ أَجَازَتِهَا عَلَيْهَا مُبْقِيا
أَنْفَتُ مِنَ الثَّقَلَاءِ فِيهَا إِذْ رَمْتُ أَثْقَالَهَا وَرَأْتُكَ مِنْهَا مُلْجِيا

فيقول إن الأرض رجفت خوفا حينما رأت قوة الممدوح وسطوته التي أرسلها للطغاة الإفرنج ، وتارة يقول إن الأرض قد تملمت من ظلم وشر هؤلاء الفرنج ، ويرى تارة أخرى إن الأرض قد أنفت من وجود هؤلاء الصليبيين عليها .

٦/ وصف الجيوش الإسلامية : -

ومن الأحداث المهمة التي وصفها العماد الاحتلال الصليبي للبلاد الإسلامية ، فرفع العماد راية الجهاد ودافع بالكلمة لرفع الروح المعنوية للقادة والجنود فوصف الجيوش الإسلامية وتحدث عن كثرتها وشجاعة أفرادها وبأسهم وإقدامهم وصمودهم في وجه الأعداء قائلا : (٣)

لِلَّهِ جَيْشٌ بِالْمَرْوَجِ عَرْضَتَهُ أَسَدُ الْعَرِينِ رَجَالُهُ وَرِمَاحُهُ
وَمِنَ الْحَدِيدِ سَوَابِغاً أَبْدَانُهُ وَمِنَ الْمَضَاءِ عِزَائِمَا أَرْوَاحُهُ
رَوْضٌ مِنَ الصُّفْرِ الْبَنُودُ وَحُمْرُهَا وَالْبَيْضُ يُزْهِى وَرْدُهُ وَأَقَاحُهُ

١ الديوان ، ص ٤٥٧

٢ / أمهي الحديدة : أحدها

٣ / الديوان ، ص ١٠٧

فقد وصف العماد جيش صلاح الدين الأيوبي بالشجاعة والقوة والصلابة ، فهو كثير العدد ، أفراد شجعان أقوياء ، فهم دروع بشرية ، لا يهابون الموت والعدو، فيشبه أبدانهم في قوتها كأنها دروع من حديد ولهم عزيمة قوية ، لإحراز النصر، ثم يصف هذا الجيش المتعدد الأجناس كأنه روضة بها مختلف الألوان والأزهار .

٧/ وصف المعارك : -

وكذلك وصف العماد شدة المعارك الدائرة بين الجيوش الإسلامية وجيوش الغزاة الإفرنج ، فصور مشاهد القتال والاسلحة التي استخدمت في هذه المعارك قائلاً : (١)

وَرُبَّ مُعْتَرِكٍ رَحْبُ الْفُضَاءِ بِهِ
أَضْحَى عَلَى مَسْعَرِيهِ ضَيْقاً لَقْصَا (٢)
لَمَا انْتَشَى الْهَامُ مِنْ كَأْسِ النِّجِيعِ بِهِ
غَنَى الْمُهْنَدُ وَالْخَطِيُّ قَدْ رَقَصَا
وَلِلْكَمَامَةِ عَلَى أَهْوَالِهَا نَهَمٌ
نَامَ كَأَنَّ بِهَا نَحْوَالِرْدَى لِعَصَا (٣)
وَالْحَرْبُ عَضَتْ بِأَنْيَابِ لَهَا عُصْلٌ
وَالْبَيْضُ فِيهِ بَقْدُ الْبَيْضِ مَاضِيَةٌ
وَالسَّمَرُ تَخْتَرِقُ الْمَاضِيَةَ الدُّلْصَا (٤)

١/ المصدر نفسه، ص ٢٥٥

٢/ اللقص : الضيق

٣/ لعصا : اللعص : النهم في الأكل والشرب

٤/ عصل : جمع أعصل وهو الأعرج ، واللصص : تقارب الأضراس

٥/ البيض بكسر الباء السيوف البيض ، وبفتح الباء : الخوذة ، والماضية : الدروع ، والدلص : الملمس اللين واحدها دلص

وَمِنْ دَمَاءِ مَسَاعِيرِ الْهَيَاجِ نَرَى
عَلَى سَوَابِغِهَا مِنْ نَضْحِهَا نَفْصَا (١)

فالعماد يصف رحي الحرب في موقعة حطين ، وقد ضاق الفضاء
الرحيب بهؤلاء الفرنج حينما قابلوا الجيوش الإسلامية وأصلوهم
نار الحرب . ثم يصف العماد نشوة انتصار المسلمين ، فصور هجمات
الفرنجة وهي غرقى في دمائم بأنها نشوى ، ويصف صوت السيوف
وهي تعمل في رقابهم كأنها تغني والرماح وهي منقضة على أجسادهم
كأنها ترقص . ووصف هذه الجيوش الإسلامية ونهمها المتعطش المتزايد
للحرب والانتصار على الغزاة الإفرنج ، ثم يصف هول الحرب وشدتها
ويقول إنها عضت بأنياب عسل ،
وهو تشبيه قديم لصورة الحرب ، وحينما أطبقت الحرب بأضرارها
واستحكم القتال جاء دور السلاح فهذه السيوف البيض المواضي تخرق
الدروع ، فتلطخ هذه الدروع بدماء الأعداء

وصف الخمر : -

لم يتوفر العماد لوصف الخمر توفر غيره من شعراء عصره ، فأتى
وصفها في أبيات قليلة مبنوثة هنا وهناك ، ومن ذلك قوله في وصفها
ووصف دنائها وكؤوسها وسقاتها وندمائها وتأثيرها على شاربها ، قائلا :
(٢)

بَنْتُ كَرَمَ تَجَلَّى عَلَى ابْنِ كَرِيمٍ وَجَهَهُ مِنْ شُعَاعِهَا مُسْتَتِيرُ
مِنْ سَنَا كَأْسِهَا الْمَعَاصِمُ وَالْآنُ فَسُ فِيهَا أَسَاوِرُ وَسُرُورُ

١/ المساعير : جمع مسعر وهو موقد نار الحرب ، السوابغ : الدروع ، والنضح : الرشح ، والنفس : جمع
نفصة وهي الدفعة من الدم.
٢/ الديوان ، ص ٧٦

ولها في الكؤوس في حالة المَزْ
وكان الحَبَاب في الكأس منها
طاب للشاربين منها الهوا
من يَدَي ساحر اللواظر قلبي
للحميا في فيه طعم وفي عي
ج حَبَاب وفي النفوس حُبُورُ
شَرَّ فَوْق ناره مُسْتَطِيرُ
ءانِ فَلَذَ الممدود والمقصورُ
بهواه مُسْتَهْتَرٌ مَسْحُورُ
خيه سَكْرُوفوق خديه نُورُ (١)

فالعماد يصف هذه الخمر ويكنيها بابنة الكرم ، تسكب لابن كريم كعادة العرب في الجاهلية ، فلا يشربها إلا كرماء العرب وأفاضلهم ، ثم يصف كأسها وأثره في شاربيها ، فهي تقيد معاصمهم وتبعث السرور في نفوسهم فينسون همومهم ، ثم يصفها حينما تمزج بالماء فتصبح محببة للنفوس ، ويصف لونها الأحمر في الكأس ويشبّهه بالشرر من النار ، ويبين أثرها على شاربيها حينما يمر عليها الهواء ، وحبهم لها وهي في يد هذا الساقى .
ويصفها في قصيدة أخرى قائلا : (٢)

وقد طلعت شمس من كؤوس
يطوف بها على الندماء ساق
ويطفي جذوة منها بماء
كما شُهرت سيوف من جفون
شما نله مُعشقة الفنون
ويمزج شدة منها بليّن

فالشاعر يصف هذه الخمر ، وهي حمراء في كؤوس بيضاء لامعة ، ويشبّهها وهي في الكؤوس كأنها شمس في كؤوس ، ثم يصف سقاتها وهم يطوفون بها على هولاء الندماء الذين يعاقرون الخمر ، وكيف أنهم يقللون من شدة حدتها حينما يمزجونها بالماء .

وفي قصيدة أخرى يدعو العماد لشربها وهي بكر كعادة الشعراء الجاهليين ، قائلا : (٣)

وتملأها غراء جامعة لكم
يهتزدوا الحسني لجلوة حسنها
في النعت بين تمذح وتمذه (٤)
وتجل عن تحسين كل مَزْهَرَه

١ / الحميا : الخمر
٢ / الديوان ، ص ٤٢٣ - ٤٢٤
٣ / المصدر نفسه ، ص ٤٥٤ ،
٤ / التمذه : التمدح

أَفَوَاهُ أَهْلِ الْفَضْلِ نَاطِقَةٌ لَهَا بِالْفَضْلِ إِنْ قِيسَتْ بِشَعْرِ الْأَفْوهِ (١)
وَأِنْ الْعَقُولُ لَهَتْ لَهَا فَلَانَهَا مَحْمِيَةٌ عَنْ كُلِّ مَعْنَى لَهَا (٢)
صَهْبَاءُ تَوَدُّعُ سَامِعِيهَا نَشْوَةً وَتَعِيرُ عَرَفَ الْمَسْكَ الْمُسْتَنَكَةَ (٣)
فَوَلِيَّهَا بِتَشْوُقٍ وَتَشْوُفٍ وَحَسَوْدُهَا بِتَشْوُرٍ وَتَشْوُهُ (٤)

فالعماد يطلب أن تشرب هذه الخمر وهي بكر حتى يمتدح شاربها ، ثم يصف سقاتها وكيفية تقديمهم لها بطريقة جميلة ليزيدوا من حسناتها ، ويقول إنها جميلة لا تحتاج الي شيء يجملها ، فهي مطلوبة ومفضلة عند أهل الكرم والفضل ، بل يفضلونها على بعض الأشعار إن قيسست بها فهي محبوبتهم التي تسيطر على عقولهم ويحمونها عن كل ما هو مبتذل . ثم يصف لونها الأحمر وما تتركه من نشوة ، وبنوه برائحتها فهي تنضح كالمسك في فم شاربها فهم ينتظرونها بتشوف وتطلع ولهفة ، أما الذين لا يشربونها فهم ينظرون إليها بخجل وتتكبر .

٩/ وصف الحمى :-

ومن اللوحات الفنية الرائعة التي تلقانا في شعر العماد ، تلك اللوحة التي صور فيها الحمى ووفادتها عليه في النهار ، وما واجهه منها من أذى وألم لم يطق احتماله ، فصور قلة صبره على المكاره والخطوب ، قائلاً في وصف الحمى : (٥)

١/ الأفوه الأودي : وهو صلاء بن عمر بن مالك ، ولقب بالأفوه لانه كان غليظ الشفتين ظاهر الاسنان ، من كبار شعراء الجاهلية ، وكان سيد قومه وقائدهم ، وتعدده العرب من حكمائها . (معاهد التنصيص ، ١٠٧/٤) .
٢/ لهله : الردى
٣/ المستنكة : نكهه واستنكهه : شم رائحة فمه
٤/ التشوف : التطلع ، والتشور : الخجل
٥/ الديوان ، ص ١٩٦

وزائرةٍ وليسَ بها حياءٌ وليسَ تزورُ إلا في النهارِ*

ولور هبت لدى الإقدام جوري لما رغبت جهاراً في جوري
أنت والقلب في وهج اشتياق لتظهر ما أوري من أوري
ولو عرفت لظى سطوات عزمي لكنت من سطاي على حذار
تقيم فحين تبصر من أناتي ثبات الطود تسرع في الفرار
تفارقني على غير إغسال فلم أحل لزورتها إزاري

فالعماد يصف هذه الحمى ووفادتها عليه ، فهي تزوره من غير حياء
بالنهار ، ويقول أنه لو أبدى لها قوته وكبريائه وجبروته لما رغبت أن
تأتيه نهاراً جهاراً ، ويشبها بمحبوبة يشتاق إليها فتأتيه في شدة شوق ،
فتظهر ما يخفي من ضعفه أمامها ، فهي لا تعرف قوته وجبروته ولو عرفت
ذلك لكنت على حذر منه ، وهي تقيم في جسده فيصبر عليها وحينما ترى
صبره هذا تسرع بالفرار .

١٠ / وصف كتبه : -

لم يقف العماد عند وصف أحدث عصره ، ووصف الرياض
والحمى ووصف الخمر ، وإنما تناول أشياء كثيرة بالوصف ، ومن ذلك
قوله ، في وصف كتبه : (١)

هي كُتبي، فليس تصلح من بعد دي لغير العطار والإسكافي
هي إما مزود للعقاقير رواها بطائن للخفاف (٢)

فهو يصف كتبه من بعده ، فهي لا تصلح إلا للعطار أو للإسكافي ، أو
يستخدمونها أوعية لحمل العقاقير .

* إحتذى الشاعر في هذه القصيدة نهج المتنبي في وصف الحمى ، حيث يقول :
وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور الا في الظلام (الديوان ، ٢٨٦/٤)

١ / الديوان ، ص ٣٠٠

٢ / مزود : جمع مزود ، وهو الوعاء

ومن خلال الوصف عند العماد ، يتضح أنه اهتم بوصف الطبيعة وما بها من رياض وأزهار وأنهار وطيور ، وهذا الوصف يقف شاهدا على معالم حضارة عصره الزاهرة التي تحررت من قيود البداوة ، وقد التزم العماد في وصفه نهج من سبقوه وجاراهم في بعض قصائدهم فأتت صورته وتشبيهاته مألوفة ، فأكثر من وصف الرياض وتغريد طيورها وهديل حمامها.

وفي وصفه للخمر انتهج نهج الشعراء القدامى فوصف مجالس شربها وكأسها ودنانها وسقاتها ولونها وطعمها وتأثيرها على شاربها .

الحكمة والنصح والارشاد

الحكمة هي قول موجز بليغ رائع ، صائب الفكرة دقيق التعبير يتضمن حكما صحيحا مسلما به ، أو عظة نافعة وعلما مفيدا أو توجيها سليما يصدر عن ذي رأي وتجربة . والحكمة هي التعبير الصائب على حسب ما يقتضيه السامع في شيء من البساطة والوضوح ، أو هي الكلام القائم على العلم الموجه الى الصواب والسداد في القول والعمل ، وقال بعضهم الحكمة هي معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر المستطاع ، وهي العلم النافع المعبر عنه بما لها وما عليها (١) .

الحكمة من الموضوعات التي عرفها الشعر العربي منذ الجاهلية واستمر عبر العصور ، وهي من أكثر موضوعات الشعر تأثرا بالبيئة والمجتمع وما فيهما من أحداث وأحوال وثقافات وغير ذلك بالإضافة إلى تأثرها بشخصية قائلها ومكوناتها المتعددة والزاوية التي ينظر منها إلى الحياة . (٢)

لم تشغل الحكمة حيزا كبيرا في ديوان العماد ، فكانت أقل أغراضه شأنا من حيث كمها وكيفها ، ولم يفرد لها قصائدا خاصة ، بل تأتي أحيانا منثورة في ثنايا قصائده ، وحينما تأتي مقطوعات مستقلة قصيرة لا تزيد عن البيتين أو الثلاثة . وقد تضافرت عدة عوامل جعلت ورود الحكمة في شعره أمرا طبيعيا : منها العمر الطويل ، ورحلته من بلاد فارس الى بغداد ثم الى دمشق ثم الى القاهرة سعيا وراء المنصب والعلم ، وشيوع مختلف الثقافات في عصره كل هذه العوامل كانت كافية لأن تشحن عقله وفكره بخلاصة التجربة وعصارة الحكمة وإن تصقل خبرته وتزيد فهمه للحياة .

وأبرز خصائص حكمة العماد بساطة فكرتها وقرب مأخذها وبعدها عن

١/ الحكم والأمثال :حنا الفخوري ، دار المعرفة ، ص ٥
٢/ الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء : د.أحمد فوزي اللهيبي، مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ص ١٥٩

العمق ، فجاءت أقرب إلى المواعظ منها إلى الحكمة ، فيقول العماد عن تغافل الناس عن الموت وتمسكهم بحب الحياة وشهواتها : (١)

فما بالنا نُبدئُ التَّصامُمَ غَفْلَةً وداعي المنيا ناطقٌ غيرُ صامتٍ
نُؤمِّلُ في دارِ الفناء بقاءنا ونرجو من الدنيا صداقةً ماقتٍ
لقد أبلغتُ رُسُلُ المنيا وأسمعتُ ولكنها لم تحظْ منا بناصرٍ

فهذه الأبيات عبارة عن إرشادات ومواعظ يتوجه بها للناس ، ويدعوهم للعتة والاعتبار بالموت والأموات ، وأن هذه الحياة فانية يجب ألا نتشبث بها .

ومن معاني الحكمة عند العماد ما يتعلق بالعلم والعلماء ومكانتهم وفضلهم ، فيقول : (٢)

وكلَّ عِلْمٍ لم يَكسُ صاحِبُهُ حِلْماً تراه عَطْلاً بغيرِ حُلَى

فالعلم الذي لايفيد صاحبه معرفة وحلما لا فائدة منه ، وإنما هو مشين لصاحبه . ويقول أيضا في فضل العلم والعلماء ومكانتهم : (٣)

وما أنصفَ العُلَياءَ مَنْ خَصَّ أَهْلُهَا بذمٍّ وهُم أَهْلُ الثَّنَا وذووالْحَمْدِ

فهو يرفع من مكانة العلم والعلماء، ويذم من يضع من مكانتهم ويقلل من شأنهم .

ويحدثنا العماد عن تجربته في الحياة ويرشدنا بأن نتزين في الحياة بالأعمال والأفعال الصالحة ولا نغتر بحسن المظهر ويضرب مثلا لذلك من مقطوعة من بيتين من شعره قائلا : (٤)

تحسَّنْ بأفعالِكَ الصالحاتِ ولا تُعْجَبَنَّ بحسنِ جليلٍ
فحسنُ النساءِ جمالُ الوجوهِ وحُسنُ الرجالِ وُجوهُ الجميلِ

١/ الديوان ، ص ٩٣

٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٢٨

٣/ المصدر نفسه ، ص ١٤١

٤/ المصدر نفسه ، ص ٣٥٤

وفي قصيدة أخرى يقول متحدثاً عن نفسه : (١)

تحضُّ على نُشْدانِ حَظِّ فَقْدَتُهُ
إِذَا الْحَظُّ لَمْ يَنْفَعْ فَلَا نَفْعَ فِي الْحِضِّ
يُكَلِّفُهَا حُبُّ السَّلَامَةِ أَنَهَا
تَكْلِفُنِي حُبَّ الْقَنَاعَةِ وَالْغَضِّ (٢)
لَقَدْ صَدَقْتَ إِنَّ الْقَنَاعَةَ وَالتَّقَى
لَأَصُونُ فِي الْحَالِينَ لِلدِّينِ وَالْعَرَضِ ِ
تَقُولُ: إِيَّامَ السَّعْيِ فِي الرِّزْقِ رَاكِضاً
وَرِزْقَكَ مَحْتَوْماً وَعُمْرَكَ فِي رِكْضٍ
وَلَوْ كَانَتْ الْأَرْزَاقُ بِالسَّعْيِ لَمْ يَكُنْ
غَنَى الْغَرِّ مَعْقُولاً وَلَا فَاكَةَ الْعِضِّ (٣)

فالعماد في هذه الأبيات يتحدث عن القناعة والاعتماد على الحظ ، فنفسه كثيراً ما تحته على الندم على حظوظه الفائتة ، ويقول أن هذا الندم لا يفيد ، وحب السلامة يكلف نفسه القناعة والرضا واحتمال المكروه . ويقول بحكم تجربته وخبرته بالحياة إن القناعة والتقى يصونان الدين والعرض ، ويرضى بقضاء الله وعدله فهو وحده مقسم الأرزاق ، ويقول لماذا الجري والركض وراء الأرزاق والمولى عز وجل قد كتب لك منذ الأزل رزقك وعمرك ، ولو كانت هذه الأرزاق تقسم بالجد والسعي لما كان غنى الرجل (الغر) أي غير المجرب ، وما كان فقر البخيل ممكناً . وفي قصيدة أخرى يدعو العماد بحكم حنكته وخبرته في الحياة بعدم الحرص على المطلوب ويرى ازدياد الشرفي زمانه وانحسار الفضل قائلاً (٤)

لَا تَحْرِصَنَّ عَلَى مَا أَنْتَ طَالِبُهُ فَرَبَّمَا حُرِّمَ الْمَطْلُوبَ مِنْ حَرَصَا
رَبِّي الزَّمَانُ بِنِيهِ شَرٌّ تَرْبِيَةً فَالْجَهْلُ ذُوبُطْنَةً وَالْفَضْلُ قَدْ خَمَصَا (٥)

١/ الديوان ، ص ٢٦٧
٢/ الغض : احتمال المكروه
٣/ الغر : يقال رجل غر ، أي غير مجرب ، والعرض : البخيل والقيم للمال ، يقال أنه لعرض مال ، أي شديد القيام عليه
٤/ الديوان ، ص ٢٥٢
٥/ البطنة : الإمتلاء الشديد من الطعام ، والخمصة ضد البطنة

ويقول راضيا بقضاء الله وقدره ومنوها بمنزلة الصاحب والصديق للإنسان
قائلا : (١)

فَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ بِخَلْقِهِ وَجَمِيعُ مَا يَجْرِي لَنَا بِقَضَائِهِ
فَاسْتَعِدْ مِنْ رَيْبِ الزَّمَانِ بِصَاحِبٍ تَعْدِي فَضَائِلَهُ عَلَى عَدَوَائِهِ

ومن تجربته في الحياة — فهو يرى — أنه لافائدة من ثروته وماله إذا لم
تسد حاجة صديقه وخله فيقول : (٣)

وَإِنِّي أَرَى عَيْنَ الْخِصَاصَةِ ثُرُوتِي إِذَا عَجَزَتْ عَنْ سَدِّهَا خَلَّةَ الْخَلِّ

ويقول في القناعة : (٤)

إِقْنَعْ وَلَا تَطْمَعْ فَإِنَّ الْفَتَى كَمَالَهُ فِي عِزَّةِ النَّفْسِ
وَإِنَّمَا يَنْقُصُ بَدْرُ الدُّجَى لِأَخْذِهِ الضَّوْءَ مِنَ الشَّمْسِ

فالحكمة عند العماد حكمة غير متفائلة ، تدعو إلى التقاعس والقناعة بما
هو مكتوب ، والاعتماد على الحظ .

النصح والإرشاد

وللعماد في النصح مقطوعة من بيتين فقط ، فيقول : (٥)

١/ الديوان ، ص ٦٩ — ٧٠

٢/ الاستعداد : الاستغاثة والإستتصار ، ، والعدواء : الشغل يصرفك عن الشيء

٣/ الديوان ، ص ٣٥٨

٤/ المصدر نفسه ، ص ٢٤٠

٥/ المصدر نفسه ، ص ٣١٤

دارِ غيرِ اللَّيِّبِ إِنْ كُنْتَ ذَاكَ بِوَلَّافِهِ حِينَ يَأْتِي بِحَذَقٍ
فَأَخُو السُّكْرِ لَا يَخَاطِبُهُ الصَّا حِيَ إِلَى أَنْ يَفِيقَ إِلَّا بِرَفَقٍ

فالعماد ينصح ويرشد في كيفية التعامل مع غير اللبيب (الأحمق) فلا بد أن نتعامل معه بلطف وبحذر حتى نتجنب حماقته ، ويضرب لنا مثلاً في كيفية تعامله بحالة السكران فهو يُعامل برفق إلى أن يفيق .

ويقول العماد في قصيدة أخرى كتب بها إلى صديقه علم الدين الشاتاني،
ينصح ويرشد في كيفية المحافظة على الصديق : (١)

لِحِفْظِ قَلْبِ الصَّدِيقِ أَجْتَرِعُ الصَّ أَبَ وَأُبْقِي لِكَأْسِهِ الْعَسَلَا
إِنْ أَنْكَرَ الْحَقَّ كُنْتُ مُعْتَرِفاً بِهِ أَوْ إِعْوَجَ كُنْتُ مُعْتَدِلاً
أَوْ قَالَ مَا قَالَ كُنْتُ مُسْتَمِعاً إِلَيْهِ بِالْقَوْلِ مِنْهُ مُحْتَفِلاً

فيقول العماد للمحافظة على الصديق لا بد أن تصبر عليه ، وتغفر عثراته وهناته ، وأن تشرب المروتقابل به بالطيب مهما اخطأ، وإن أنكر الحق تعترف بالحق ، وإن جانب الصواب قومته ، وحينما يقول تنصت إليه.

الاستعطاف

حينما قتل الوزير عون الدين بن هبيرة اعتقل العماد مع من اعتقل في الديوان ببغداد ، وألقي في غياهب السجن إثر وشاية لفقت له ، فكتب العماد إلى عماد الدين بن عضد الدين ابن رئيس الرؤساء (٢) يستعطف بها الخليفة المستنجد بالله العباسي لفك أسره ، استهلها بقوله : (٣)

١/ الديوان ، ص ٣٢٨

٢/ هو عماد الدين علي بن الوزير عضد الدين محمد بن عبدالله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن سلمة (الخريدة : قسم العراق ، ١ : ١٦٦) .

٣/ الديوان ، ص ٦٦

لو كنت تعلم مُنتهى بُرحائه حابيت إبقاءً على حُوبائه (١)
ولكنت تترك في الغرام ملامه كيلا يزيد اللوم في إغرائه

فقد استهلها بمعاناته الصادقة وتجربته المريرة في السجن ، ثم يتذكر أيامه الجميلة مع أحبته وأصدقائه في مقدمة طويلة ويتحدث عن مصيبته وما حل به ويقول أنه سيبصر على هذه المصيبة وهي قضاء وقدر .

حاتم أرضى الضيم من أدوانه ؟ وإلى متى أغضي على إقدائه؟

إلى أن يقول :

ولئن جفاني الدهر في أحداثه فلاصبرن على فظيع جفائه
فالله يفعل ما يشاء بخلقه وجميع ما يجري لنا بقضائه

ويطلب في نهاية القصيدة من ابن المظفر أن يشفع له ويسعطف الخليفة المستنجد بالله ليفك وثاقه من السجن قائلاً:

أبني المظفر ما يزال مظفراً راجيكم أبداً بنيل رجائه
فأنصر أبا نصر على زمن أبي نصري لفضل أنت من أبنائه
واشفع تشفع وعده بنجازه أنى يخيب وأنت من شفعاؤه؟

ويطلب من ابن المظفر أن يذكر للخليفة العباسي معاناته وآلامه ، ويفخر العماد بأرومته التي ينتسب إليها، ولعل في ذلك تبريراً له عن خطيئته التي أتهم بها وتخفيفاً له في محنته ، فيقول :

ذكر بحالي الصاحب المولى الذي يقوى أمير المؤمنين برائه
وقل: استجار كريم بيت بي وذو الـ بيت الكريم يجد في إحيائه
شافه أمير المؤمنين بحاله فأرى شفاهك موجب لشفائه

١/ البرحاء : الشدة والمشقة ، الحوباء : النفس

قل: للإمام علام حبس وليكم ؟ أولوا جميلكم جميل ولائه (١)
أوليس إذ حبس الغمام وليه خلى أبوك سبيله بدعائه (٢)

وللعماد قصيدة أخرى يستعطف بها الخليفة العباسي المستنجد بالله
استهلها بقوله : (٣)

أُعِذْ كُمْ أَنْ تَغْفُلُوا عَنْ إِمْرِهِ وَأَنْ تَتْرَكُوهُ ذُهْبَةً لِمَغِيرِهِ

أطال في مقدمتها وضمنها هواجس نفسه وكوامنها منها قوله :

أيا نجد، حياك الحيا بأحبي بهم كنت كالفردوس زين نحوره
وما طابَ عَرَفَ الرِّيحَ إِلَّا لِأَنَّهُ أَصَابَ عَيْراً مِنْكَ عِنْدَ عُبُورِهِ

فهو يتذكر أيامه الجميلة حينما كان بين أحبته وأصدقائه ، ويدعو لديار
أحبته بالسقيا .
وجرت العادة أن يتغنى بمقام الممدوح وأعماله الجليلة وفضائله النبيلة
إلا إنه اهتم بنفسه فذكر صفاته ومحامده وآلامه التي يعاني منها ، مازجا
ذلك بشيء من الحكمة وتجارب الحياة قائلا :

وما كنت أدري أن عقلي عاقل وما كنت أدري أن عقلي عاقل
أرى الفضل ، مُعْتَادُ خُسْفٍ أَهْلِهِ أرى الفضل ، مُعْتَادُ خُسْفٍ أَهْلِهِ
أقول لعزمي : إن للمجد منهجاً أقول لعزمي : إن للمجد منهجاً
فَهَوْنٌ عَلَيْكَ الصَّعْبَ فِيهِ ، فَإِنَّمَا فَهَوْنٌ عَلَيْكَ الصَّعْبَ فِيهِ ، فَإِنَّمَا

١/الولي: ضد العدو ، وكل من ولي أمر واحد فهو وليه

٢/الولي : المطر الذي بعد الوسمي

٣/ الديوان ، ص ٢١٧

٤

/ عاقل : مقيدي ، سراري : خفائي

ثم يبرئ نفسه من التهمة التي لحقته وأغضت مضجعه ، ويلين قلب
ممدوحه فيقول مستعطفاً :

لماذا حبستم مُخلصاً في ولآئكم وما الله مُلقٍ مؤمنٍ في سعيه؟

الفصل الثاني

الموضوعات المستحدثة

المبحث الأول: شعر الحماسة

المبحث الثاني: الإخوانيات

المبحث الثالث: الغربة والحنين

المبحث الأول

شعر الحماسة

حينما قدمت أوربا بغضها وغضيضها لتغزو العالم الإسلامي في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجري، وما أن وطئت أقدامهم الأراضي الإسلامية حتى عاثوا في الديار قتلا وفسادا وخرابا ودمارا، ناشرين الذعر بين المواطنين، ومغرقين البلاد في بحر من الدماء فهب العالم الإسلامي من رقدته، وأخذ يعي مايدبر له من استعمار، فقامت دعوات الجهاد والوحدة في كل مكان، وانبرت لهم جيوش المقاومة، وكان للزنكيين والأيوبيين دور مهم ومشرف في صدهم ومواجهتهم بصلاب، وقد وقف الشعراء بجانب أبطالهم يدافعون عن أرضهم ودينهم بالكلمة ومشيدون ببطولات هؤلاء الأبطال، متغنيين بانتصاراتهم، داعين للوحدة العربية وحاثين القادة والأبطال على مواصلة الجهاد ومقاومة الصليبيين.

فقد بعثت الحروب الصليبية في الأدب الحياة فكانت المعين الذي لا ينضب لمعاني وأفكار الشعراء حيث اتخذوها موضوعا لأشعارهم فغلب الشعر الحماسي على شعراء هذا العصر. ولا يكاد يخلو ديوان شاعر من شعراء هذه الفترة من الشعر الحماسي، الذي يعكس صدق البطولات في مقاومة الصليبيين والتغني بالانتصارات التي أحرزها هؤلاء الأبطال، كما خلدوا الذين استشهدوا في سبيل الله، وهجوا المتخاذلين المتقاعسين من المسلمين، ووصفوا الجيوش وآلات الحرب ووصفوا المعارك الضارية التي خاضها المسلمون ضد الفرنج.

وشاعرنا العماد هو أحد شعراء الجهاد الذين قاوموا الغزاة الصليبيين ولازم البطالين نور الدين محمود زنكي والقائد صلاح الدين الأيوبي وصحبهما في جميع غزواتهم ضد الصليبيين فوصف حروبهما وتغني بانتصاراتهما في شعر رصين، وشعره الحماسي هو من أكثر الأغراض شعرا في ديوانه، وأصدقها عاطفة، لأنه شاهد عيان لهذه المعارك والانتصارات.

فقد دعى العماد في شعره لجهاد الصليبيين وحث القادة والأبطال لمقاومة الفرنج ومن ذلك قوله: (١)

فانهض اليها بالجيوش وعرج	واقى يبشر بالفتوح وراءه
ولمنبج لسواه كالأنموذج	أبشر ، فبيت القدس يتلو منبجاً
طلباً فكيف خوارج في أبرج	مأعجزة كالشهب في أبراجها
وعلى طرابلس ونابلس عج	فأذهلي البيت المقدس غازياً

فالعماد في هذه الأبيات يدعو القائد البطل نور الدين محمود لقتال الصليبيين ، ومواصلة الجهاد بعد أن فتح قلعة منبج، فمنبج ماهي إلا الخطوة الأولى للانتصارات على الإفرنج ، وهو فتح يبشر بالفتوح وراءه ، ويحث العماد البطل نور الدين بتجهيز الجيوش والتوجه بسرعة لفتح القدس وتحرير المدن الإسلامية الأخرى مثل نابلس وطرابلس وغيرها. فطرد العدو الصليبي المحتل، وتطهير البيت المقدس ، هو الهم الذي يؤرق شاعرنا العماد لذلك كان يستغل كل مناسبة ليذكر نور الدين محمود بالجهاد ، فعندما توحدت مصر والشام تحت راية الدولة الزنكية هنأه العماد بهذا النصر وقال محرضاً على غزوهم وتطهير بيت المقدس من أيديهم: (٢)

أَغْزُ الْفَرَنْجَ، فَهَذَا وَقْتُ غَزْوِهِمْ واحطِمْ جموعَهُمْ
بِالذَّابِلِ الحَطْمِ وَطَهِّرِ الْقُدْسَ مِنْ رَجَسِ الْفَرَنْجِ وثبْ على
البِغَاثِ وَثُوبِ الْأَجْدَلِ الْقَطْمِ فَمُلْكُ مِصْرَ وَمُلْكُ الشَّامِ قَدْ نَظَمَا في عقدِ
عِزِّ مِنَ الْإِسْلَامِ مُنْتَظَمِ

فالشاعر يدعو البطل نور الدين محمود لغزو هؤلاء الفرنج ويؤكد أن تطهير البيت المقدس من دنسهم قد حانت ساعته بعد أن توحدت الأمة العربية بانضمام مصر إلى الشام ، فيدعوه إلى تحطيمهم وتطهير بيت المقدس من رجسهم وفسادهم .

١- الديوان، ص ١٠٢

٢- المصدر نفسه، ص ٣٨٠

. والعماد في قصيدته التي عزی فيها السلطان صلاح الدين الأيوبي في وفاة عمه أسد الدين شيركوه ، لم تمنعه المناسبة أن يلفت أنظاره إلى جهاد الصليبيين قائلاً: (١)

فصُوبُوا عَلَى الْإِفْرَنْجِ سَوَطَ عَذَابِهَا بَأْنَ تَقْسَمُوا مَا بَيْنَهَا الْقَتْلَ وَالْأَسْرَا
وَلَا تَهْمَلُوا الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ وَاعْزَمُوا عَلَى فَتْحِهِ غَازِينَ وَافْتَرَعُوا الْبَكَرَا

فالعماد يطالب القائد صلاح الدين بإخلاص النية، وعقد العزم على تحرير البيت المقدس وعلى قتال الإفرنج وتثريدهم وأسرههم . والعماد لا يدع مناسبة تفوته إلا وحث فيها صلاح الدين الأيوبي على جهاد الصليبيين وفتح القدس وتطهيرها من دنسهم ورجسهم ، فعندما تمكن صلاح الدين من إخضاع المواصله والحلبين (٢) أشار إليه العماد بالتوجه إلى القدس لإنقاذها من أيديهم وتطهيرها من رجسهم قائلاً: (٣)

فَسِرْ وَافْتَحِ الْقُدْسَ وَاسْفُكْ بِهِ دِمَاءَ مَتَى تُجْرَهَا يُنْظَفِ
وَأَهْدِ إِلَى الْإِسْبِتَارِ الْبِتَارِ وَهْدُ السُّقُوفِ عَلَى الْإِسْقَفِ
وَخَلِّصْ مِنَ الْكُفْرِ تِلْكَ الْبِلَادَ يُخَلِّصُكَ اللَّهُ فِي الْمَوْقِفِ

فالعماد يدعوصلاح الدين لمجاهدة الصليبيين ويطالبه بتحرير بيت المقدس من أيديهم، وذلك لا يكون إلا بإراقة الدماء على أرضه الطاهرة ، ويطالب العماد القائد صلاح الدين بأن يحطم أقوى فرقهم وهي فرقة الإسبتار، وأن يهد أسقف الكنائس على رؤوس أساقفتهم، وأن يخلص جميع البلاد من فسادهم وكفرهم .

وفي قصيدة أخرى يستنهض العماد البطل صلاح الدين الايوبي لفتح

١-الديوان، ص ١٦١

٢-الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٧١ هـ

٣-الديوان، ص ٣٠١

كل عسير قائلًا: (١)

نهوضاً إلى القدس يشفي الغليل
بفتح الفتوح وما ذا عسيرُ
سَلَّ الله تسهيل صعب الخطوب
فهو على كل شيء عَديرُ

فالعماد في جميع قصائده الحماسية يدعو للجهاد ويشير فيها إلى
تخليص بيت المقدس من أيدي الصليبيين، وذلك لأن القدس هي أولى
القبلتين وفيها ثالث الحرمين الشريفين ، وهي مسرى رسولنا الكريم صلى
الله عليه وسلم، ولأن الصليبيين كفرة مشركين فهم أنجاس أراذل كما يقول
الله تعالى: (إنما المشركون نجس) (٢) فقد دنسوا المسجد الأقصى وسائر
الأراضي الإسلامية التي إحتلوها، لذا فقد حرض شاعرنا العماد القادة
والأبطال إلى تخليصها من أيدي الصليبيين وتطهيرها من دنسهم ورجسهم
، ويعتبر العماد إراقة دمائهم في المسجد الأقصى تطهيراً له، وغسلاً
للنجاسة التي أحدثها وجودهم فيه ، وفي ذلك يقول العماد: (٣)

وطهرته من رجسهم بدمائهم

فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا

وعندما حقق الله للأمة الإسلامية فتح القدس على يدي صلاح الدين الأيوبي
مدحه العماد بقصائد كثيرة ، ولم ينس العماد أن يلفت أنظاره نحو مدينة
صور ويحثه على فتحها ، وعلى ملاحقة الصليبيين وسحقهم قائلًا: (٤)

وصارَ بصورٍ عَصبةٌ ٍ يَرْقبونكم
فلا تَبْطُئوا عنها وحسُوهُم حسا

١/ الديوان، ص ١٩٤
٢/ سورة التوبة ، آية (٢٨)
٣/ الديوان ، ص ٢٣٢
٤/ المصدر نفسه، ص ٢٣٣

وَدَمِّرْ عَلَى الْبَاقِينَ وَاجْتَثْ أَصْلَهُمْ

فَإِنَّكَ قَدْ صِيرْتَ دِينَارَهُمْ فَلَسَا

وَلَا تَنْسَ شَرْكَكَ لَشَرْقِ غَرْبِكَ مَرْوِيًّا

بِمَاءِ الطَّلَى مِنْ صَادِيَاتِ الظُّبَى الْخَمْسَا

وَإِنْ بِلَادَ الشَّرْقِ مَظْلَمَةٌ فَخُذْ

خِرَاسَانَ وَالنَّهْرَيْنِ وَالتَّرِكَ وَالْفُرْسَا

وَبَعْدَ الْفَرَنْجِ الْكَرَّكَ فَاقْصِدْ بِلَادَهُمْ

بِعِزِّكَ وَأَمْلَأْ مِنْ دِمَائِهِمُ الرُّمُسَا

فبعد أن تحقق الحلم للأمة الإسلامية بفتح القدس يلفت العماد أنظار صلاح الدين الأيوبي نحو مدينة صور وقد تجمعت بها فلول الصليبيين فيحثه على مهاجمتها بسرعة ،ويطالبه بأن يستأصل الصليبيين ويجتث جذورهم من كل الأراضي الإسلامية، ولا يترك لهم مجالا للتجمع ومعاودة الغزو من جديد ، ويحثه أيضا أن يحارب الصليبيون في بلاد الشرق وأن يستعيد من أيديهم خراسان والنهرين والترك وبلاد الفرس وأن يعرج على الكرك.

ويلح العماد على البطل صلاح الدين الأيوبي أن يستعيد باقي المدن الإسلامية التي استولي عليها الصليبيون ويطالبه بتطهير انطرسوس وأنطاكية وطرابلس، ولأن يشن عليهم حربا ضروسا لا تترك فيهم نفسا ولا نفسا

قائلاً: (١)

١/ الديوان، ص ٢٢٩

من بعد فتحكيت القدس ليس سوى

صورٍ فأن فتحت فاقصد طرابلسا

أثر على يوم انطرسوس ذا لجب

وابعث إلى ليل انطاكية العسا(١)

وأخل ساحل هذا الشام أجمعه

من العداة ومن في دينه وكسا(٢)

ولادع منهم نفساً ولا نفساً

فإنهم يأخذون النفس والنفسا

الرباعيات:

ومن الظواهر الجديدة التي تتصل بالجهاد وشعر الحماسة تلك الأناشيد أو الرباعيات التي نظمها الشعراء في تمجيد الجهاد والترغيب فيه على السنة بعض القادة لاستنفار المسلمين واستثارة همم المحاربين للغزو والتضحية في سبيل الله وتحرير المقدسات من الغزاة المحتلين إدراكاً من الشعراء والقادة لما لتلك الأناشيد من اثر في رفع الروح المعنوية ودفع النفوس للبذل والفداء ، وحفزاً لهمم الجهاد في سبيل الله .

وهذه الأناشيد الجهادية نوع من الدعاء والابتهال إلى الله تعالى لاستمداد النصر والعون من لدنه .

فقد اهتم شعراء هذه الفترة بشعر الحماسة، وأكثر بعضهم من نظمه حتى كان لبعضهم دواوين مستقلة فيه ، فذكر ابن خلكان عن الشهاب

١/ العسس: عس الشيء طلبه اوقصده ليلاً فهو عاس والجمع عسس

٢/ الوكس: النقص والشطط

الشاغوري إنه نظم ديوانا خاصا جميع مافيه دوبييت (١) كما ذكر ابن خلكان أيضا أن للعماد الكاتب (ديوان صغير جميعه دوبييت) (٢) .
فقد نظم العماد أناشيد في هذا المجال قيلت على لسان البطل المجاهد نور الدين محمود زنكي قال العماد في الخريدة: (وسالني قدس الله روحه أن اعمل له دوبييتات في الغزو فقلت....) (٣) فهذا يعني أن هذه الرباعيات قد صيغت بناء على طلب نور الدين نفسه ، وتلبية لرغبته لإدراكه لقيمتها وأثرها في نفوس المواطنين ، فقد نظمت لتتشدد في ساحات القتال لتلهب حماس المجاهدين وتحبب إليهم الاستشهاد في سبيل الله ومن تلك الرباعيات قول العماد على لسان نور الدين(٤):

أقسمتُ سوى الجهادِ مالي أربُ والراحةُ في سواهُ عندي تعبُ
إلا بالجدِّ لا يُنالُ الطلبُ والعيشُ بلا جدِّ جهادٍ لَعِبُ

يقسم نور الدين أن الجهاد هو غايته وبغيته في هذه الحياة ، وأنه لا يرى الراحة والسعادة إلا في الجهاد ، ويؤكد في البيت الثاني أن النصر لا ينال إلا بالجد والكد وأنه لا حياة بلا جهاد في سبيل الله . وفي رباعية أخرى يؤكد العماد أن هم نور الدين منصب على غزو المحتلين وجهاد الكفرة الصليبيين قائلا: (٥)

للمغزو نشاطي واليه طرَبي مالي في العيشِ غيرُهُ من أربِ
بالجد وبالجهادِ نُجَحُ الطلبُ والراحةُ مُستودعةٌ في التعبِ

. فيؤكد العماد أن نور الدين ليس له هم في هذه الحياة سوى غزو الصليبيين ومجاهدتهم وأن التعب فيهما يثمر الراحة التامة والسعادة الدائمة.

١/ وفیات الاعیان، ١: ٤٠٨

٢/ المرجع نفسه، ١: ٧٧

٣/ الخريدة -قسم شعراء الشام البدائية، ص ٤٢

٤/ الديوان، ص ٧٦

٥/ المصدر نفسه ، ص ٧٧

وفي رباعية أخرى يقول العماد على لسان نور الدين إن الغزو هو لذته
الوحيدة : (١)

لأراحة في العيش سوى أن أغزو سيفي طرباً إلى الطلى يهتز
في ذل ذوي الكفر يكون العز والقدرة في غير جهاد عجز

فيقول العماد إن البطل نور الدين ليس له راحة إلا في الجهاد ، وهو متعته
الوحيدة في هذه الحياة ، وإن عزة الإسلام والمسلمين لا تكون إلا في إذلال
الكفرة الصليبيين ، وإن القوة والقدرة إذا لم تستخدم في الجهاد فهي عجز
وجبن

وفي رباعيه أخرى يفاخر الشاعر بجهاد نور الدين قائلاً: (٢)

أذلت ذوي الشرك بعز العزم والكفر بهز صارمي في عزم
شيدت بني الملك بأمري الجزم والنصر رايتُهُ قرينَ الدزم

فالعماد يفاخر بجهاد نور الدين الذي أذل أهل الشرك بعزيمة قوية ، وأباد
الكفر والطغيان بسيفه الصارم ، وبني صرح الإيمان ورفع مناره بحزمه
الذي حقق جميع الانتصارات . فقد أسهمت هذه الظاهرة الشعرية الجديدة
(الرباعيات) في إلهاب جذوة القتال فاستثارت حماس المقاتلين ورفعت من
روحهم المعنوية ، فأقبلوا على الجهاد يستريحون النفس والنفيس في سبيل
الله ودفاعاً عن وطنهم ودينهم.

الدعوة إلى الوحدة :

لم تكن أمتنا الإسلامية تعاني في هذه الفترة من الغزو الصليبي فقط
، بل كانت تعاني أيضاً مشكلة التفكك والتجزئة واختلاف الحكام حتى ساءت
الأحوال بينهم ، وصارت عملية التوحيد بينهم مطلباً إسلامياً رئيساً ، لا يقل
أهمية عن طرد الصليبيين عن البلاد الإسلامية . فأدرك قادة الجهاد أن النصر
على الصليبيين لا يتم إلا بتوحيد قوى المسلمين وتضافر جهودهم ، وقد حمل

١ - الديوان ، ص ٢٢٣ -

٢ / المصدر نفسه ، ص ٣٩٣

الشعراء عبء الدعوة لوحدة الصف العربي الإسلامي ، فأضحوا ينادون بها في أشعارهم ويشيدون بما تم منها .
فعندما وحد الملك العادل نور الدين محمود بين مصر والشام ، أشاد العماد بهذه الوحدة قائلاً: (١)

للهِ درُكُ نورِ الدينِ من ملكٍ عدلٍ لحفظِ أمورِ الدينِ ملتزمٍ
كانتْ ولايةُ مصرَ قبلَ عزَّتِها بكشفِ دولتها لحماً على وضم
فمُلْكُ مصرَ ومُلْكُ الشامِ قد نُظما في عقدِ عزٍّ من الإسلامِ مُنْتَظَمِ

فالشاعر يمدح البطل نور الدين محمود لما قام به تجاه الأمة الإسلامية ، ويشيد بفتحه لمصر التي نالت بهذا الفتح عزتها وكرامتها بعد أن كانت ذليلة مهانة .

وفي قصيدة أخرى يشير العماد إلى وحدة المسلمين التي تمت على يدي نور الدين من كل جنس لمواجهة الصليبيين قائلاً: (٢)

وبلغتْ بِالتأييدِ أقصى مَبْلَغٍ ما كان في وسعٍ ولا إمكان
دانتْ لَكَ الدنيا فقاصِيتها إذا حَقَّقْتَهُ - لِنِفاذِ - أَمْرِكَ - دَانِ
فمنَ العراقِ إلى الشامِ إلى ذَرَى مصرالى قوصِ إلى أسوان
للرومِ والإفرنجِ مِنْكَ مصائبٌ بالثُرْكَ والأكرادِ والعُربانِ

فالعماد يشير هنا الي التأييد والمناصرة التي وجدها نور الدين ، فقد كان تأييدا منقطع النظير ، ما كان في الوسع ولا الإمكان ، فقد امتدت أطراف دولته من العراق إلى الشام الى جنوب مصر ، وقد أعد نور الدين جيشا قويا من كل هذه الأجناس ليلحق بالصليبيين الهزائم المتلاحقة .
فالجهد ضد الصليبيين دفع المسلمين جميعا عربا و فرسا وتركيا وأكرادا إلى أن يتحدوا تحت راية الإسلام ، لحمايته والزود عنه ، فارتفعت أصوات الشعراء مشيدة بهذه الوحدة التي تمت بين مختلف الاجناس متمثلة قول الله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (٣) ، وقول الرسول

١/ الديوان ، ص ٣٨٢

٢/ المصدر نفسه، ص ٤١٧

٣/ سورة الحجرات ، آية (١٢)

صلى الله عليه وسلم (لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لعجمي على
عربي إلا بالتقوى) (١)
فيقول العماد في تلاحم هؤلاء الأجناس جميعا وتوحيد قواهم لمجاهدة
العدو الصليبي (٢)

وكأنما الأك رادفوق جياها عِقبان ملحة على عِقبان

○ (٣)

لم يترك لأتراك فيهم غاية بالفتك والإر هاق والإثخان
ولك للمماليك الذين بهم عنت أملاك مصر لمالكي بغداد
ثم كالصحابة يوم بدر حاولوا نصر النبي ونبت عن حسان (٤)

فقد تلاحمت كل هذه الأجناس من أكراد، وأتراك ، ومماليك ، وعرب
لمجاهدة هؤلاء الصليبيين الكفرة .

وفي عهد صلاح الدين الأيوبي تتحقق الوحدة الكبرى للأمة الإسلامية
وتتحقق أعظم الإنجازات، فيفتح صلاح الدين القدس، ويهزم الصليبيين
شر هزيمة ، فيشير العماد لهذه الوحدة التي تمت بين تلك البلدان
الإسلامية قائلا : (٥)

في مصر واليمن اجتلينا منهم في عصرنا تبعاً ليوسف تبعاً
الحويان بملك مصر ومكة والشام واليمن الحظايا الأربعة
لما عصى الأعداء بالعاصي جرى بدمائهم طوعاً سيولاً ففعا

وصف المعارك:

ومن الأغراض المهمة التي تطرق إليها شعر الحماسة ، وصف
المعارك ، فتحدث الشعراء عن المعارك التي خاضها المسلمون ضد

١/ مسند الإمام أحمد بن حنبل: نشر المكتب الاسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ج ٥، ص ٤١١

٢/ الديوان ، ص ٤١٤

٣/ عِقبان الاولى جمع عقاب: وهو الطائر. وعِقبان الثانية بمعنى الرابية

٤/ حسان بن ثابت الأنصاري، شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم. وأحد المخضرمين، عاش ستين سنة
في الجاهلية ونحوها في الإسلام، توفي في المدينة سنة ٥٤ للهجرة. (الاصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر
العسقلاني، تحقيق على محمد الجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر- الفجالة - القاهرة د.ت. ج ٢

ص ٦٢). ٥ والأغاني، ١٣٤/٤،

٥/ الديوان ، ص ٢٨٨

الصليبيين فوصفوا الجيوش وأدوات الحرب ووصفوا سقوط القلاع والحصون الإفرنجية ، كما وصفوا المصير الذي إنتهى إليه الإفرنج بعد المعركة من القتل ، والأسر ، والسبي ، فيقول العماد في وصف المعركة ووصف جيوش صلاح الدين الأيوبي وأسلحتهم : (١)

وكم قد فلتت جموعَ الفرنج	بحدِ اعتزامِ شباهِ طيرٍ (٢)
بضربٍ تَ حذُفْمنه الرؤوسُ	وطعنٍ تُ خسفْمنه النحورُ
وغادرتْ غادرهم بالعراءِ	ومن دمه كلُّ قطرٍ غديرُ
من التركِ عند دبابيسها	صاحِ الطلي والهوادي كُسورُ (٣)
سهامُ كنائنها الطائراتِ	لهنَّ قلوبُ الاعادي وكُورُ
وعندهم مثل صيْد الصوارِ	إذا حاولوا الفتحَ صيدا وصُورُ (٤)

فالعماد يصور الهزائم المتلاحقة لصلاح الدين الايوبي على الصليبيين ، ثم يبين المصير الذي انتهى إليه هؤلاء الصليبيون ، فقد خلفهم صلاح الدين قتلى في ساحات القتال غارقين في دمائهم تنهشهم السباع والطيور . ثم يذكر العماد سلاح الجيش الإسلامي فدبابيسهم من شأنها تحطيم هام الصليبيين ، وشبه سهام الجيش الإسلامي بالطيور تتخذ من قلوب الأعداء وصدورهم أوكارا لها ، وهذا الجيش في غاية القوة والجسارة حتى ليعتبروا فتح صيدا وصور رحلة صيد .

وفي قصيدة أخرى يرسم لنا العماد لوحة أخرى لإحدى الغارات التي شنّها نور الدين على مواقع الصليبيين فكبدهم خسائر جسيمة قائلا : (٥)

أنهضت حين خَلَّتْ إليها عسكرياً	أخلى قواعدها من البنيان
وشغلت جأشهم بجيشٍ هـ نهم	فجنى ثمار النصرَ الجيشان
وملات بالنيران أربع أهلها	فتعجلوا الإحراق بالنيران

١/- الديوان ، ص ١٩٢

٢/ شبا السيف : حده وطره ، طير : محدد

٣/ الدبابيس : جمع دبوس ، عصا من خشب أو حديد في رأسها شئ كالكرة

٤/ الصوار : قطيع البقر

٥/ الديوان ، ص ٤١٠

عادوا وحين رأوا خراب بيوتهم يسئوا من الأوطار والأوطان
باعوا بأحزانٍ وخلصوا هؤلها مما أقوا بمخاضة الأحزان (١)

فقد أضرمت جيوش نور الدين النيران في هذا الحصن الصليبي المنيع فأحرقت بعضهم وفر بعضهم الآخر، فلما عادوا ووقفوا على ما أحدثته النيران بمنزلهم من دمار وتخريب، خيم عليهم الحزن ودب في نفوسهم اليأس من الدنيا وما فيها .

وقد حظيت معركة حطين باهتمام جميع شعراء الجهاد ، فهي المعركة التي أعادت للمسلمين عزتهم وكرامتهم ، وردت لهم قدسهم الشريف ومسجدهم الأقصى ، فوصفها الشعراء ، ومجدوا أبطالها ونددوا بملوك الفرنج الذين أقتيدوا الى خيمة البطل صلاح الدين الأيوبي ، يعلوهم الذل والهوان وتلازمهم خيبة الأمل والندم . وكان العماد من جملة الشعراء الذين وصفوا هذه المعركة بقصيدة طويلة منها: (٢)

حططت على حطين قدر ملوكهم ولم تبقي من أجناس كفرهم جنسا
ونعم مجال الخيل حطين لم تكن معاركها للجرد ضرسا ولا دهسا (٣)
طردتهم في الملتقى وعكستهم مجيدا بحكم العزم طردك والعكسا
كسرتهم إذ صح عزمك فيهم ونكستهم إذ صار سهمهم نكسا
بواقعة رجت بها الارض جيشهم دمارا كما بست جبالهم بسا (٤)

فيصف العماد هذه المعركة التي انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين نصرا ساحقا ، ولم يبق من أجناس كفرهم جنسا، في معركة لم تكن سهلة ، طرد فيها صلاح الدين هؤلاء الغزاة من القدس الشريف وانتصر عليهم ، وكسر شوكتهم في هذه المعركة التي هزت الدنيا وملأتها فرحا وسرورا .

١/ مخاضة الأحزان :موقع حصين يقع بين طبرية وصفد من ناحية ودمشق من ناحية اخرى

٢/ الديوان، ص ٢٣٤

٣/ الجرد : الخيل لا رجالة فيها . والضرس : الأكمة الخشنة ، والدهس : المكان السهل ليس برمل ولا تراب

٤/ بسا : اى فتننت وصارت كالهباء المتطاير فى الهواء

وقد نظم العماد قصائد كثيرة في معركة حطين سميت بالخطيبات منها قوله (١) :

ويا لعجاجة وجه الشمس قد عبسا مُعفراً خده والأنف قد تعسا أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا (٢) كأنه ضِدْع في الماء قد غطسا	يايوم حطين والابطال عابسة ورأيت فيه عظيم الكفر مُحترأ ياظهر سيف برى رأس البرنس فقد وغاص إذ طار ذاك الرأس في دمه
--	--

فالعماد يصف هذه المعركة الشرسة وقد غطى العجاج وجه الشمس وانتصر المسلمون على الصليبيين ، وأسروا قائد الصليبيين البرنس أورناط وأقتيد الى صلاح الدين محتقرا ذليلا ، وقتله صلاح الدين بيده. ويشبه العماد البرنس أورناط وقد أطار سيف صلاح الدين رأسه فسقط يتخبط في دمانه بضدع غطس في الماء

قتلى الصليبيين :

فقد رسم العماد صورا لقتلى الصليبيين يوم حطين فصور وحوش الصحراء وجوارح السماء تتزاحم على الجثث الملقاة في العراء لاتجد من يوارىها ، وليس لها من قبور إلا بطون الجوارح والكواسر قائلا: (٣)

بطون القشاعم فيها قبور فتصدم فيها النُسور النُسور	تركت مصارع المشركين تزاحم فرسانها الضاريات
--	---

وفي قصيدة أخرى يرسم العماد صورة مغايرة لقتلى الصليبيين يوم حطين ، فقد رفضت الأرض أن تكون قبورا لهم فأصبحت جثثهم ملقاه على الأرض تنهشها الذئاب قائلا: (٤)

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم ولنحض أرض أن تكون لهم رمسا

١/ الديوان ص ٢٢٩

٢/ البرنس : الأمير لقب يلقب به كل عضو من الأسرة المالكة

٣/ الديوان ، ص ١٩٢

٤/ المصدر نفسه ، ص ٢٣٤

السبايا والأسرى:

وتحدث العماد عن ملوك الصليبيين الذين وقعوا في قبضة السلطان صلاح الدين في معركة حطين ، فصفدوا بالأغلال واقتيدوا إلى خيمته أذلاء صاغرين ، فيقول : (١)

إزاءه زعماء الساحلين معاً مُصْغرين بحبل القهر قد أسروا

ويقول أيضاً مصوراً هؤلاء الأسرى وهم يشقون طريقهم إلى خيمة السلطان صلاح الدين وسط برك الدماء بسفن مثقلة تشق طريقها وسط عباب البحر فيقول: (٢)

تُقَادُ بِدُمَاءِ الدَّمَاءِ مَ لُوكُهُمْ أَسَارَى كَسَفْنَ الِيمَ نَطَّتْ بِهَا
الْقُلُوسُ (٣)

وفي قصيدة أخرى يقول العماد عن أسرى هؤلاء الصليبيين ومخاطباً صلاح الدين الأيوبي: (٤)

رَدَدَتْ كَرَادِيسَ الْفَرَنْجِ وَكُلَّهُمْ لَدَى الْأَسْرِ فِي غِلِّ الصَّغَارِ مُكَرَّدَس (٥)

أما السبايا فقد تحدث عنهن الشعراء بإسهاب ، وبالغوا في وصف كثرتهن وما اعتراهن من ذل وهوان ، فالعماد يصورهن وقد ملأن المدن الإسلامية كثرة ، فُوضْنَ في كل سوق ، وبعن بأبخس الأثمان ، قائلاً : (٦)

سبايا بلاد الله مملوءة بها وقد شُرِيَتْ بِخَسَا وَقَدْ عُرِضَتْ نَخْسَا
يُ طَافُ بِهَا الْأَسْوَاقُ لَا رَاغِبٌ لَهَا لِكَثْرَتِهَا كَمْ كَثْرَةٌ تُوجِبُ الْوَكْسَا (٧)

١/ الشعر الشامي ، ٣٩١/١

٢/ الديوان ، ص ٢٣٥

٣/ الدماء : البحر ، نط : شد ، القلس : الحبل الضخم

٤/ الديوان ، ص ٢٣٨

٥/ الكراديس : كتائب الخيل ، الصغار : الذل ، المكردس : الذي شدت يداه ورجلاه وصرع

٦/ الديوان ، ص ٢٣٥

٧/ الوكس : البخس في الثمن

ويعرض العماد صور أخرى للسبايا وهن يعرضن للبيع في إحدى أسواق دمشق ، فى الوقت الذى يقتاد فيه ملك الصليبيين إلى سجنه فيقول العماد: (١)

بينا سباياه تُجلى في دمشق إذا ملك الإفرنج مع الأتراك مُحْتَجِرُ

وقد عد العماد صليب الصليبوت من جملة الأسرى الذين تجرعوا مرارة الهزيمة ، فقد سيق مع القساوسة والرهبان إلى أسر المسلمين وذاق ما ذاقه جندهم المأسورين من الذل والهوان فقال العماد : (٢)

يتلوهم صليبوت سيق منتكسا وحولهم كل قسيس له زبر

كما وصف العماد المعارك التي انتصر فيها المسلمون ، وصف كذلك المعارك التي انهزم فيها المسلمون ، وهي قليلة إذا ما قيست بانتصاراتهم فمن تلك الهزائم التي لحقت بالمسلمين هزيمة الرملة (٣) ، ونظرا للجهد الكبير الذي بذله فيها الملك المظفر تقي الدين عمر (٤) ، فقد مدحه العماد قائلا : (٥)

تركتَ الشراكَ مَنْزَعَجِ الْقَاطِنِ	يَوْمَ الرَّمْلَةِ الْمَرْهُوبِ بِأَسَا
أَوَى مِنْهُ إِلَى حَصْنٍ حَصِينِ	وَكُنْتَ لِعَسْكَرِ الْإِسْلَامِ كَهْفَا
رَأَوْا أَثَارَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ	وَقَدْ عَرَفَ الْفَرَنْجُ سُطَاكُ لَمَّا
حَمَاهُ أَوْآنَ وَلَى كُلِّ دُونِ	وَأَنْتَ ثَبَّتْ دُونَ الدِّينِ تَحْمِي

فالعماد يمدح تقي الدين عمر في هذا اليوم العصيب الذي انتصر فيه المشركون على المسلمين ، وقد ثبت هذا البطل واحتفى به الجيش الإسلامي ، وقد شهد الفرنج بشجاعته وبسالته ذائدا عن الدين الإسلامي

١- / الشعر الشامي ، ٣٩٢/١ ،

٢/ المرجع نفسه ، ٣٩٢ / ١ ،

٣/ الروضتين ١ : ٧٠٣ ،

٤/ هو الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي ، ابن أخى صلاح الدين الأيوبي ، كان واليا على حماة وماجاورها ، وشارك فى جهاد الصليبيين وتوفى سنة ٥٨٧ هـ . (الخريدة، بداية قسم شعراء الشام، ص ٨٠)

٥/ الديوان ، ص ٤٢٩

ومثلما وصف العماد المعمارك وصف كذلك الجيوش الإسلامية،
فوصف جيش نور الدين الذي تصدى للجيش الصليبي عند قرية سمسكين
(١) قائلا: (٢)

حَمَلْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ جُنْدِكَ فِتْيَةً لَمْ تَذَرِ غَيْرَ حَمِيَةِ الْفَتِيَانِ
زَخَرْتُ بِهِمْ أَمْوَاجُ أَجْكَ فِي الْوَعَى غُزْرًا وَطَمَ بِهِمْ عُجَابُ طُمَانَ (٣)

فالعماد يصف جيوش نور الدين التي خرجت لصد الصليبيين حينما
قصدوا حوران ، فلما عرفوا قوة المسلمين وكثرة الجيش الإسلامي
رحلوا راجعين ،ولاذوا بالفرار .
وفي قصيدة أخرى يصف العماد كثرة جيوش صلاح الدين وقوتها
قائلا: (٤)

بجيشك أز عجت جأش العُدُو فما نفرٌ منه إلا نفُورٌ

ووصف العماد كذلك الخيل وأشاد بسرعتها في الغارة على الأعداء
ودورها في إحراز النصر وإدخال الرعب في قلوب الأعداء قائلا: (٥)

تَمَكَّنَ الرُّعْبُ فِي قَلْبِ الْعَدُوِّ بِهَا تَمَكَّنَ النَّارُ بِالْإِحْرَاقِ فِي الْفَحْمِ
سَرَتْ لَتَقَطَعَ مَا لِلْكَفْرِ مِنْ سَبَبٍ وَاهٍ وَتَوَصَّلَ مَا لِلدِّينِ مِنْ رَحِمٍ
مُسْتَهْلَاتٍ وَعَوَرَ الطَّرِيقَ فِي طَلَبِ الْـ عَلِيَاءِ
مُقْتَحِمَاتٍ أَصْعَبَ الْقُحْمِ وَجَاعِلَاتٍ مِنَ الْإِفْرَنْجِ غُلْهُمُ وَالْقَيْدِ
فِي مَوْضِعِ الْأَطْوَاقِ وَالْحَزْمِ لَقَدْ شَفَتْ غَلَّةَ الْإِسْلَامِ وَانْتَقَمَتْ مِنْ
الْعَدُوِّ وَبُجْدِ الصَّارِمِ الْجَذْمِ (٦)

فهذه الخيول لسرعتها وقوة وشجاعة من عليها ،تثير الرعب في قلوب

١/ انظر الروضتين، حوادث سنة ٥٦٨

٢/ الديوان، ص ٤١٠

٣/ طمان هو الأمير حسام الدين طمان بن عبدالله النوري ،كان شجاعا جوادا توفي سنة ٥٨٥ هـ وحزن عليه السلطان صلاح الدين والمسلمون لحرصه على الجهاد ولمواقفه المشهودة . (النجوم الزاهرة ، ٦ : ١٠٩

٤/ الديوان، ص ١٩٢

٥/ المصدر نفسه ، ص ٣٨١

٦/ الصارم الجذم : السيف القاطع

الأعداء الصليبيين ،فمجرد أن يروها يسري الرعب في نفوسهم ويتمكن منهم كما تتمكن النار بالإحراق في الفحم ،وهذه الخيول سرت لتقضي على الصليبيين ودوافعهم الواهية لإحتلالهم بيت المقدس والأراضي الإسلامية ،ولتقوي الرابطة الإسلامية وتجمع بين المسلمين جميعهم ، فهي تستسهل الصعب في طلب العلياء وتسلك أوعر الطرق لتقتحم ممالك الإفرنج وتذل ملوكهم وتأسرهم وتزيل ملكهم وتطردهم من الأراضي الإسلامية وبذلك تشفي غلة الإسلام وتنتقم من أعدائه . وفي قصيدة أخرى يصف العماد كثرة هذه الخيول وسرعتها وتعودها خوض غمار الحرب قائلا : (١)

بخيل كمثل العـ ارض السح كثرةً
تضيّق صدورُ البِيدِ عنها لدى العِرضِ (٢)
معودةٌ خوض النجـ ع من العدى
إذا انتجّعتهُ ألسُنُ السُّمرِ بالوخْضِ (٣)
إذا حَفِيتُ منها الذّ عال تُنعلاتُ
بهامِ عدى رُضتْ بها أيما رَضِ
حوافِرُ خيلٍ ودت الصـ يدُأنها
تَكحلُّ منها بالغبارِ لدى النَفْضِ (٤)

فالعماد يصف هذه الخيول الكثيرة كثرة تضيق عنها الصحراء لدى العرض ، ويشبهاها بالسحاب العارض المتحرك وهي خيول متعودة على الحروب وعلى خوض دماء الأعداء وعلى دهس هاماتهم ، ثم يتحدث عن سرعتها، فهي سريعة تدرك الصيد الذي يتمني أن يفلت منها .

ووصف العماد كذلك أنواع الأسلحة التي استعملت في معركة حطين من سيوف ورماح وقسي .

وقد حظيت السيوف بقدر كبير من الوصف يزيد عما حظيت به أنواع الأسلحة الأخرى فيقول العماد في وصف سيوف صلاح الدين: (٥)

١/ الديوان، ص ٢٦٦
٢/ العرض :عرض الجند
٣/ النجيع :الدم ،والإنتجاع :طلب الكلاً . والوخض :أنتطعن بالرمح طعنا يخالط الجوف ولا ينفذ.
٤/ الصيد : جمع أصيد وهو الذي لا يلتفت من زهوه يمينا ولا شمالا.
٥/ الشعر الشامي ، ١ : ٥٧٥

ماضيّا نعلَى الدوامِ دوامي	فهي في النصرِ نَجْدَةُ الإسلامِ
في يمينِ السلطانِ إن جردَ لها	أشبهَتْها صَواعِقُ في غمامِ
تنثرُ الهامِ كالحرُوفِ فما أشبهه	هذه السيفُ بالأقلامِ
في محاريبِ حرية البيضِ صلتْ	وركُوعُ الظُّبى سِجُودِ الهامِ

فالعماد يصف جيوش صلاح الدين المتأهبة دائماً لنجدة الإسلام والمسلمين ، فهو في جهاد دائم وسيوفه على الدوام مسلطة على رقاب الصليبيين فهي دوامي ، فإذا جرد صلاح الدين وجنوده هذه السيوف كانت كالصواعق المنقضة على هام الأعداء .

وصف الجيوش الغازية :

كما وصف العماد الجيوش الإسلامية وأسلحتها وصف كذلك الجيوش الصليبية ، فأبان كثرتها وضخامتها، وأن هؤلاء الصليبيين لا يهاجمون المسلمين إلا بأعداد لا تحصى ولا تعد ، ولا يخضون المعارك إلا وقد استكملوا استعدادهم وتزودوا بالسلاح الكثير وشبههم بالسيل المنحدر في قوته وسرعته واندفاعه قائلاً: (١)

أتوا كالجبال أبرمتْ لإرسانا	فسقناهم فيها قطينا مُجرِدا
وسامُوا تجاراً تشترينا غواليا	فبعناهم بالرخص جَهراً على النداء
وقالوا ملوا الأرض طوع قِيادنا	إذا الكُل منهم في القيود مُعبدا

فالعماد يكشف في هذه الأبيات الأهداف الرئيسة لهؤلاء الصليبيين ويبين مطامعهم الحقيقية من هذا الغزو ، فهم لم يأتوا إلا للسيطرة على البلاد الإسلامية واستعباد أهلها وإذلالهم ولكن المسلمين أدركوا حقيقة أمرهم فأفشلوا مخططهم ووحدوا الأمة الإسلامية لمقاومتهم وصدهم . وذكر العماد أسماء بعض فرق الجيوش الصليبية القوية ، مثل فرقة الإسبتار والداوية واليارقية فقال العماد مخاطباً صلاح الدين الأيوبي

أن يلحق بفرقة الاسبتار الهزيمة (١) :

وأهدِ إلى الاسبتار البتار وهدِّ السُقُوفَ على الأسْقُفِ (٢)

وقال عن فرقة الداوية : (٣)

لما رأى الداوي راوُنداءهُ ولى بطاعونٍ بغيرِ طِعانٍ (٤)

وقال عن فرقة اليارقية : (٥)

واليارقية أرقَّتْهُمْ في الجُى بسهامٍ كل حنيةٍ مرَّ نأْن

فالعَماد قد انتهج في وصف الجيوش الغازية نهج الشعراء القدامى ، فقد كانت عادة الشعراء منذ الجاهلية أن يصفوا أعداءهم بالقوة الهائلة ليدلوا على أنهم لم ينتصروا على ضعاف الناس ، وإنما ينتصرون على أقويائهم وشجعانهم . فذكر الكثرة العددية لجيش العدو الصليبي ووصف شجاعته وقوته وعدته الحربية ما هو إلا تمجيد للقوة الإسلامية التي هزمتها ، وإظهار قوة العدو الصليبي ما هو إلا إظهار لقوة الجيش الإسلامي ، فهو لا ينزل إلا القوي الشجاع .

فقد واكب شعر الحماسة الحروب الصليبية منذ بدايتها حتى نهايتها فوصف الشعراء احتلال الصليبيين لبلادهم ووصفوا كذلك المعارك التي خاضها المسلمون لاسترجاع بلادهم ومقدساتهم ، وقد لعب الشعراء دوراً مهماً في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية واستثارة حماس المجاهدين وحثهم ودفعهم للقتال والتضحية بأنفسهم في سبيل الله .

١- الديوان، ص ٣٠٤

٢- الاسبتار : طائفة من رجال الدين كان هدفها مساعدة الصليبيين من جهة والدعاية ونشر الدين من جهة أخرى (النجوم الزاهرة ٦٤ : ٣٣ حاشية ٢)

٣- الديوان ، ص ٤١٥

٤- الداوي : أحد أفراد فرقة الداوية ، وهم قوم من الإفرنج يحبسون أنفسهم لمحاربة المسلمين (النجوم الزاهرة ٦٤/٣٣ حاشية ٣) .

٥- الديوان ، ص ٤١٤

ويعتبر شعر الحماسة (الجهاد) وثيقة تاريخية مهمة ،لدارسي الحروب الصليبية ،لأن الشعراء المسلمين في تلك الفترة وصفوا معظم المعارك التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم الصليبيين ،وأماكنها التي وقعت فيها ، وأنواع الأسلحة التي أستعملت فيها ، وأشاروا كذلك إلى أسماء بعض الشخصيات والفرق المهمة التي إشتراك في هذه الحروب (١) .

المبحث الثاني

الاخوانيات

من الفنون التي شاعت في العصر العباسي وبخاصة المتأخر منه ، هذا اللون من الشعر يصور العلاقات الاجتماعية بين الشعراء وممدوحهم أو بينهم وبين أصدقائهم وأحبائهم ، ففيه التهنئة والاعتذار وفيه العتاب والشكوى وفيه الصداقة والود وما الى ذلك من المعاني الاجتماعية الواسعة التي تربط بين بعض الناس ببعض ، لذلك غلب عليه التألق في المعنى واصطناع العاطفة التي تكون صادقة تارة وكاذبة تارة أخرى (١).

فالشعر الإخواني فن مستحدث ، ونتاج عباسي محض ، وهو انعكاس طبيعي لثقافات العصر الجديدة والعلاقات الاجتماعية التي سادته (٢) .

والإخوانيات تشترك مع المديح في بعض المعاني إلا أنها تتميز بأنها بين متساويين أو متقاربين ، والشعر الإخواني ذو طابع مميز يخالف الأنماط التقليدية من الشعر من حيث الموضوع والموقف ، فشاعر الإخوانيات يختلف من حيث الموضوع ، فهو لا يحمل هم الأمة ، ولا أملها ولا تطلعها نحو الأمام ، فلا تسمع فيه صوت الجماهير الهادرة ، فصوته صوت خفي صامت أشبه بالهمس ، فهو لا يكاد يتجاوز إنسانين قريبين من بعضهما البعض (٣) ، ولهذا قد يبدو شعر الإخوانيات سهلاً يسيراً ، لأنه يصور ذاتية الشاعر ويستبطن دواخله ، ولكن الواقع غير ذلك ، فالإخوانيات تحتاج إلى رصد وتجربة وصدق إحاسيس وعمق مشاعر ورشاقة أسلوب ، فهي لا تمنح ناظمها طواعية النظم ورشاقة المعنى بل تضطره أحياناً إلى التقييد بأوزان وقواف مفروضة عليه . (٤)

والقاسم المشترك بين الرسائل الإخوانية الحرص على إظهار الود والمحبة والشوق ، ومشاركة الأصحاب في مشاكلهم مشاركة وجدانية ، أو عتاب لتأخير مراسلات ، يقول ابن الأثير : (كانت - الكتب -

١/ فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : مصطفى الشكعة ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ٣٨٢
٢/ أبو فراس الحمداني (الموقف والتشكيل الجمالي) د. النعمان القاضي ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ٣٠٨
٣/ مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني : د. بكرى شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٢٧م ، ص ٢٨٩ .
٤/ المرجع نفسه ، ص ٢٩٢

الاخوانيات بمنزلة الغزل والتشبيب من الشعر ، وكما يكتب الكاتب في إصلاح فساد أو سداد ثغراً ودعاء الي إفة أو نهى عن فرقة أو تهنة أو تعزية فكذلك الشاعر (١) .

وللعماد في هذا الباب شعر كثير لما كان يتمتع به من طيبة نفس ، وصفاء مشاعر جمعت حوله كثيراً من الأخوان والأصدقاء ، فقد كانت له علاقات وطيدة وصدقات واسعة مع الكثيرين هيأها له عمله في ديوان الإنشاء متنقلاً بين العراق والشام ومصر فكان خلال هذه الفترة على صلة بالشعراء ، والأدباء ، والخلفاء ، والسلاطين ، والأمراء وغيرهم من فئات المجتمع وطبقاته .

فقد احتل الشعر الإخواني حيزاً كبيراً في ديوان العماد حيث أنشأ فيه ما يربو على ثلاث وأربعين إخوانية بين قصيدة ومقطوعة ، وتنوع هذا الشعر عنده بين التهنة والعتاب والشكوى وقصائد الود والصدقة والمساجلات الشعرية ، وسنقف عند كل هذه الموضوعات بشيء من التفصيل .

أولاً : التهنة

فهي ضرب من ضروب المديح ، إلا أن الفرق بينها وبينه إنها تقال في مناسبات خاصة كالإبلال من المرض ، أو لمناسبة عيد أو لنجاة من مكروه أو غير ذلك من المناسبات المشابهة ، أما المديح فإنه غير مقيد بمناسبة أو زمان (٢) .

فحينما أمر البطل نور الدين محمود بتطهير ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر هنأه العماد بالعيد والطهور معاً قائلاً : (٣)

عِيدَانِ ِ : فَطْرٌ وَطُهُرٌ فَتَحَ قَرِيبٌ وَنَصْرٌ

ذَا مُوسِمٌ لِلْأَمَانِي بِالنَّجْحِ مُوَفٍّ مُبْرٌ

١/ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ابن الاثير ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٩٠ م ، ٧٢ / ٢

٢/ فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، ص ٣٨٢

٣/ الديوان ، ص ١٧٣

وَذَاكَ مُوسِمٌ نَعْمَى أَخْلَافُهَا تَسْتَدْرُ (١)

وَذَاكَ لِلصَّوْمِ بَذْرُ	هَذَا مِنَ الصَّوْمِ فِطْرُ
حَقًّا هِنَاءٌ وَأَجْرُ	كِلَاهُمَا لَكَ فِيهِ
رَسْمٌ لَنَا مُسْتَمِرُّ	وَفِيهِمَا بِالتَّهَانِي
أَصْلٌ وَفِرْعٌ وَذَكْرُ	طَهَارَةٌ طَابَ مِنْهَا

وحينما رجع الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي إلى القاهرة ،
هنا العماد والده صلاح الدين قائلا : (٢)

يَا أَسَدًا يَحْمِي عَرِينَ الْعُلَى	هُنَيْتَ جَمَعَ الشَّمْلِ بِالشَّبْلِ
عثمان ذي النورين بين الورى	مِنْ سُودِدِ سَامٍ وَمِنْ فَضْلِ
يَحْكِيكَ إِقْدَامًا وَبِأَسَا فَمَا	أَشْبَهَ هَذَا الْفِرْعَ بِالْأَصْلِ !
فحائلُ الرُّشْدِ عَلَى بَشْرِهِ	شَاهِدَةٌ بِالْفَضْلِ وَالنَّبْلِ

يتضح من هذين النموذجين أن شعر التهنية لا يفترق كثيرا عن شعر
المديح إلا أنه يدور حول إطار محدد يضطر الشاعر أن يتخير المعاني
المناسبة حتى يصاحبه التوفيق في أداء ما يصبو إليه .

ثانيا: قصائد الود والمحبة

كان لعلاقات الود والمحبة والصداقة بين الأدباء أثرها في إرتقاء
الشعر الإخواني ، الذي كانت تتجلى فيه عادة آيات المودة والصفاء بين
الأصدقاء والأحباء (٣) . مثال ذلك ماكتب به العماد إلى صديقه القاضي
الفاضل يبثه حنينه وشوقه قائلا : (٤)

الدَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ فِي نَظَرِي لَا صَبْحَ إِلَّا وَجْهُكَ الْمُتَهَلِّلُ
خَيْرَتُمْ بَيْنَ الْمَنِيَةِ وَالنَّوَى لَا تَهْجُرُوا فَالْمَوْتُ عِنْدِي أَسْهَلُ

١/ أخلاف : جمع خلف ، وهو حلمة ضرع الناقة

٢/ الديوان ، ص ٣٥٣

٣/ فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، ص ٤١٠

٤/ الديوان ، ص ٣٣٨

يا راحلين وهم بقلبي نزل
ما للصباية غير قلبي منهل
عنكم وليس سواكم لي موئل
إلا التفرق فهو خطب معضل
لا علم لي بالبين ماذا أفعل؟
بهواكم عن ذكركم لا أذهل

يا غائبين وهم بفكري حضر
ما للسئلو إلى فؤادي منهج
لا تعدلوا عني فمالي معدل
كل الخطوب دفعتها بتجلدي
لا صبر لي لا قلب لي لا غمض لي
إن تذهلوا عني فإني ذاهل

وقد أضفى العماد على شعر الإخوانيات خالص الود وصدق الإحساس وعمق المعاني ، فكانت فيه السهولة والعذوبة ومن ذلك ما كتب به إلى أستاذه ابن أبي عصرون قائلا : (١)

لذروتها أبداً فارعة
لُبالعرف هامية هامة
بضائع نافقة نافعة
إمام أدلتته قاطعة
وبحر موارده واسعة

أيا من له همة في العلى
ومن كفه ديمة ما ترا
وللفضل في سوق أفضاله
وهل كابن عصرون في عصرنا
فخير فوائده جمّة

فهو يمدح أستاذه ابن عصرون بعلو الهمة والمكانة ، وغزارة كرمه ورواج علمه وذيوع سيطه ، فهو إمام عصره لما تفرد به من علم ومعرفة .

نلاحظ أن هذه الرسائل مفعمة بالحزن والأسى على فراق الاحباب والاصدقاء .

وقد كان العماد وفيا ومخلصا لأصدقائه ، حريصا على بقاء علاقات الود بينه وبين أصدقائه فاذا أصابتها شائبة وجفوة نراه يجزع لذلك ، ومن ذلك ما كتب به إلى أحد أصدقائه بعد جفوة قصيرة ، حينما فارقه بالقاهرة وسافر بصحبة السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى الشام ، فقال العماد : (وكنت لما فارقت القاهرة استوحشت ، وتشوقت إلى أصدقائي ،

١/ الديوان ، ص ٢٩٣

وكتبت من المخيم ببلييس إلى ابن الفراش قائلا: (١)

ما كنت أُعْهِدُ مِنْكُمْ ذَا الْجَفَاءِ وَلَا
قد أَظْلَمَ الْأَفْقُ فِي عَيْنِي لَغَيْبِكُمْ
وَلَسْتُ أَوَّلَ صَبٍّ مِنْ أَحْبَبْتَهُ
حَسِبْتُ أَنْ وَدَادِي عِنْدَكُمْ رُفْضًا
فَإِنْ أَذْنْتُ لِشَخْصِي فِي الْحِضُورِ أَضًا
لَمَّا جَفَوْا مَا قَضَى أَوْطَارَهُ ، وَقَضَى

فإذا غاب عن أصدقائه يلتاع لفراقهم ويبيت متشوقا للقائهم ومن ذلك ما كتب به الي أصدقائه حينما فارقهم وسار مع البطل نور الدين محمود الي مرعش قائلا : (٢)

كتابي، فديتك من مرعش
تُرِنِحْنِي نَشَوَاتُ الْغَرَامِ
أَبَيْتُ وَنَارَ الْأَسَى مَضْجَعِي
وَأَصْبَحُ وَلِهَانَ وَجْدًا بِكُمْ
أَسِرُّ وَأَعْلَنُ بَرْحَ الْجَوَى
وَلِيلِي مِنْ طَوْلِ مَا أَشْتَكِي
وَلَيْسَ سِوَى ذِكْرِكُمْ مُؤْنِسِي
وَكَيْفَ إِلَيَّ وَصَلَكُمْ أَهْتَدِي
وَخَوْفَ نَوَائِبِهَا مُرْعَشِي
كَأَنِّي مِنْ كَأْسِهِ مُنْتَشِي
وَأُمْسِي وَجَمْرُ الْغُضَا مَفْرَشِي
كَأَنِّي مُصَابٌ عَلَيْهِ عُشِي
فَقَلْبِي يُسِرُّ وَدَمْعِي يَشِي
كَلِيلَ اللَّدِغِ مِنَ الْحَرَبِشِ
وَلَكِنْ بَعْدَكُمْ مُوَحْشِي
وَخَطْبُ فِرَاقِكُمْ مُدْهَشِي

وقد كان العماد يَكُنُ لبعض أصدقائه محبة خاصة ومودة مميزة ، ومن ذلك ما كتب به من بغداد إلى صديقه ابن حراز في واسط قائلا: (٣)

أَخْتَصَّهُ بِالْوَدِّ مِنْ دُونِ الْوَرَى
صَدَقْتُ عَقِيدَتَهُ ، وَعُقْدَةُ صِدْقِهِ
عَزَّ الصَّدِيقُ ، فَإِنْ قَنَصْتَ صَدَاقَةً
فَلَهُ عَلَيْهِمْ مِيزَةٌ وَخَصَائِصُ
لَمَّا تُحَلِّ ، وَسِرُّهُ لِي خَالِصُ
صُنْهَا فَإِنَّ الْأَصْدِقَاءَ قَنَائِصُ

حتى يقول في خاتمتها :

كَمْ غَصْتُ حَتَّى حُزْتُ وَدُكَّ أَبْحَرَا
سَأَزُمُ نَحْوَكَ لِلْقَاءِ قَلَائِصًا
وَلَرَبَّمَا حَازَ الْيَتِيمَةَ غَائِصُ
يَا خَيْرَ مَنْ زُمْتُ إِلَيْهِ قَلَائِصُ

١/ الديوان ، ص ٢٦١

٢/ المصدر نفسه ، ص ٢٤٦

٣/ المصدر نفسه ، ص ٢٥٧

وقد كانت للعماد علاقات حميمة مع ذوي الجاه والسلطان، فحينما زاره البطل نور الدين محمود في المدرسة النورية سنة ٥٦٩ هـ قدم إليه العماد هدية بسيطة ، وهي عبارة عن كمية من السكر وثياب وطيب وعنبر ومعها الأبيات الآتية : (١)

عند سليمان على قدره هدية النملة مقبولة
ويصغر الملوك عن نملة عندك والرحمة مأمولة
رقي لمولانا ، وملكي له وذمتي بالشكر مشغولة

ثالثا: الشكوى

حينما أتى العماد دمشق وضافت به الحال في بادئ أمره قبل أن يلتفت إليه الملك العادل نور الدين محمود ، كتب العماد إلى صديقه القاضي الفاضل يشكو حاله قائلا : (٢)

دمشق تقصد عظمي بعرقه أي عرقه (٣)
إخفاؤه لرجائي فيها ولقلب خفقه
أقمت فيها وحيدا كالدر ضمته حقه

رابعا : العتاب

هو من الفنون التي تجيش بالعواطف الزاخرة التي يحملها الشاعر نحو صديق كان بينهما مودة وحب ثم طرأ على علاقتهما ما شابها، وعكر صفوها ، فيعمد الشاعر في عتابه إلى لون من المواقفة الرقيقة التي يذكر فيها ما كان بينهما من علاقات طيبة في شيء من التقريع الذي يعنف حينا ويرق أحيانا (٤) .

١/ الديوان ، ص ٣٦٢

٢/ المصدر نفسه ، ص ٣١٨

٣/ عرق العظم عرقا : أكل ما عليه من اللحم وأخذه كله

٤/ فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، ص ٣٨٤

كتب العماد إلى صديقه علم الدين الشاتاني يعاتبه حينما حصلت جفوة بينهما قائلاً : (١)

لا أوحشَ اللهُ منك يا علم الد	ين ندي الكرام والفضلا
أَعَن قَلِيَّ ذَا الصُّدُودِ أَمْ مَلَلٌ	حاشا العلى من مَلالةٍ وَقِلا
كُنْتَ أَخاً إِنْ جَفَا الزَّمَانُ وَوَفَى	أَوْ قَطَعَ الْوُدَ أَهْلُهُ وَصَلَا
إِنْ أَظْلَمْتَ خُطَّةَ أَضَاءَ لَنَا	أَوْ ظَلَمَ الْخُطْبُ جَائِراً عَدَلَا
رَفِيقُ رُفَقٍ لَنَا إِذَا عَنَّفَ الد	هَرُ وَخِلَا يُسَدِّدُ الْخُلَا
صَدِيقُ صَدَقٍ مَازَالَ إِنْ كَذَبَ السُّعَاةُ	لِلصَّدَقَاءِ مُحْتَمَلَا
فَمَا الَّذِي كَدَرَ الصَّفَاءَ مِنَ الـ	وَدٍ وَلَمْ يَرَوْ وَرُدَّهُ الْغُلَا

فالعماد يذكر فيها ماضي ودهما ، ويبين ما كان بينهما من علاقات طيبة وصداقة حقة ، ثم تحدث بينهما هذه الجفوة فيتساءل العماد مستنكراً ، ما الذي كدر صفاء الود ؟ ويعاتبه على هذه الجفوة عتاباً رقيقاً قائلاً : (٢)

زَهَدْتَ فِينَا وَسَوْفَ تَطْلُبُنَا	رُبَّ رَخِيسٍ بَعْدَ الْكِسَادِ غَلَا
إِنْ كَانَ فِي طَبْعِكَ الْمَلَالُ مِنَ الشـ	يَءِفْهَلًا مَلَلْتَ ذَا الْمَلَالَا
بَعْدَ كَمَالِ الْإِخَاءِ تَنْقِصُهُ	فَحَازِرِ النِّقْصِ بَعْدَ مَا كَمَلَا

فهو لا يرى أن هناك سبباً لهذه الجفوة ، ويطلب من صديقه أن يترك الملل إذا كان سبباً في هذه الجفوة . ويطلب في نهاية القصيدة من صديقه علم الدين الشاتاني أن يسامحه ، وأن يعمل على وصله ويرجو دوام صداقته ووده .

والعماد لم يوجه عتابه لأصدقائه فقط بل عاتب الوزراء والأمراء من ذوي السلطان والجاه ، فقد كتب العماد إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي معاتباً حينما أرسل له عمامة ملبوسة ولغيره ثياباً جديدة قائلاً : (٣)

كَيْفَ خُصَّ الْعِمَادُ بِالْأَدْنَوْنَ الْمَخـ	لِقِ مِنْ دُونِ عَصْبَةِ الدِّيَوَانِ
أَخْلِقَ مِنْ نَسْجِهِ لَكَ فِي الْمَد	حَ جَدِيدٌ بِأَمْهِنِ الْخُلُقَانِ (٤)

١/ الديوان ، ص ٣٢٦

٢/ المصدر نفسه

٣/ المصدر نفسه ، ص ٤٠٩

٤/ الخلقان : جمع الخلق ، أي البالي

وكذا عادة الليالي تخصُّ الـ
لم تزل سائراتُ جودِك بالشأ
فإذا لم تزده مُصرُ كمالاً

فاضل المستحق بالحرمان ِ
م لديه غزيرة التهلانِ
في المني فاحمه من النقصانِ

قال العماد : (فوصل إلى من صلاح الدين عمامة مذهبة ، وكتب يعتذر عن العمامة التي قبلها) (١) ، ولم يكتف صلاح الدين بهذا الشيء بل أرسل أحد رجاله إلى العماد ليحبر خاطره على ما بدر منه . وحينما طلب العماد في أبيات أخرى جارية من سبي الاسطول، لم يتوان صلاح الدين في الأمر ونفذ مطلبه وهياً له جارية جميلة أرسلها إليه بأبهى حلة ، فيقول العماد : (٢)

يؤملُ الملوك مملوكه
تُخرجه من ليل وسواسه
فوحدةُ الغربه قد حركتُ
فوقع اليوم بمطلوبه

تبذل الوحشة بالأنس
بطلعة تشرق كالشمس
سواكن البلبال والمس
مما سبى الأسطول بالأمس

خامساً : المساجلات الإخوانية

قصائد الود لون شعري لما يحدث بين صديقين أحدهما شاعر ، فإذا كان الصديقان شاعرين فإن المودة والمحبة التي تتبلور عند كليهما ثم تنطلق شعراً جميلاً عذبا ، (تعرف بالمساجلات الإخوانية، يحرص فيها كل من الشاعرين على أن يتفق مع صاحبه في البحر والقافية والروي .) (٣)

وللعماد مساجلات شعرية كثيرة منها هذه القصيدة التي كتبها ردا على قصيدتي صديقه الشاعر أبو الفرج العلاء بن علي الواسطي المعروف بابن السوادى ، وقد طلب فيهما من العماد التوسط لدى المتصوفة لإعادة سكنه الذي أخذوه أثر منافرة جرت بينهما .

١/ الروضتين ، ٤٤٧/١

٢/ الديوان ، ص ٢٣٩

٣/ فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، ص ٤٠٣

ويبدو أن العماد لم يستطع القيام بهذه الوساطة ونصحه بمراجعتهم بنفسه
قائلاً : (١)

إِسْمَعْ - هُدَيْتَ - نَصِيحَتِي فَالنُّصْحُ : لِي بِالصَّدَقِ يَشْهَدُ
عَنْدَ وَأَرْضَ عَنْ أَهْلِ الرَّبَا ط وَأَرْضِهِمْ فَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
لَا طِفْهُمْ ، فَالْمَرْءُ يَبْلُ غُ بِالْتَلَطُّفِ كُلِّ مَقْصَدُ

ومن مساجلات العماد هذه القصيدة التي قال في مقدمتها : (دخلت يوماً
بغداد قبل نكبة شرف الدين ظفر بن الوزير عون الدين أبي المظفر ابن
هبيرة فانشدني قصيدة عملها على وزن قصيدة مهيار التي أولها :

بَكَرَ الْعَارِضُ تَحْدُوهُ النِّعَامَى فَسُقِيتِ الْغَيْثَ يَا دَارُ أُمَامَا

وساءلني أن أعمل قصيدة على وزنها ورويتها ، فعملت هذه القصيدة : (٢)

خَطَرْتُ تَحْمِلُ مِنْ سَلْمَى سَلَامَا فَانْتَنِي يَشْكُرُ إِنْعَامَ النُّعَامَى
مُغْرَمٌ هَاجَتْ جَوَاهُ نَسْمَةً يَالَهَا مِنْ نَسْمَةٍ هَاجَتْ غَرَامَا
نَفْحَةً أَذَكَّتْ بِقَلْبِي لَفْحَةً كُلَّمَا هَبَّتْ لَهُ زَادَتْ ضَرَامَا !
عَاتَبْتُ سَلْمَى سُمِيرًا أَمْ تَرَى غَاظَلْتُ بِالرَّوْضِ أَنْفَاسَ الْخُرَامَى

وهي قصيدة طويلة بلغت ثمانين بيتاً ، يمدح فيها ظفر بن الوزير
عون الدين ويفتخر في نهايتها بنظمه وشعره .

وفي الشعر الإخواني غالباً ما تطلق النفوس على سجايها ،
وترفع الكلفة ، فيتسم هذا الشعر بالسهولة والتلقائية ويبتعد عن الاخيلة
الواسعة ، ولعل طبيعة الموقف تقتضي ذلك ، فالشعر موجه من صديق
الي صديق قريب من النفس أليف على القلب ، فلا داعي إذن للتكلف في
الالفاظ والتهويم في الخيال . ومن ذلك قصيدة العماد التي كتبها رداً على

١/ الديوان ، ص ١٢٠
٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٧١

رسالة الشاعر سبط بن التعاويذي في طلب فروة ، وكان العماد متولي
مملكة نور الدين محمود في الشام فقال العماد : (١)

بأبي مُعْتَدِلُ الْقَامِ	ةٍ فِي عِطْفِيهِ نَشْوَهُ
حَاكِمٌ فِي مُهْجِ الْعُشْدِ	أَقْ لَا يَقْبَلُ رِشْنَوَهُ
مَتَّعِدٍ أَوْ مَا يَخْ	شَى مِنْ الْمَظْلُومِ دَعْوَهُ
شِبْهِ رُئِمٍ ، غُصْنُ بَانٍ	بَدْرُ دَجْنٍ ، شَمْسُ ضَحْوَهُ

سادسا : الألغاز

هي من ألوان الفكاهة في الشعر ، وتسمى المحاجاة والتعمية ، (وهو
أن يأتي المتكلم بعدة ألفاظ مشتركة من غير ذكر الموصوف ، ويأتي
بعبارات يدل ظاهرها على غيره وباطنها عليه) (٢) ، عني بها بعض
الشعراء في عصر الحروب الصليبية ، غير أن هذه الظاهرة لم تكن كثيرة
الذبوع ولكنك تعثر عليها في الحين بعد الحين وهو لون من أدب الكنايات
(٣) .

فقد كان العماد يطارح أخوانه الأدباء بالألغاز ، ويتخذها وسيلة للتسلية
والنفك والريضة الذهنية ، وقد صرح العماد بذلك في مطلع إحدى
مقطوعاته فقال : (وكنا سائرين في رفقة من أهل الأدب فعبر بنا مرموق
في صورة ملك اسمه شاه ملك ، فاقترح علي لغز في اسمه فارتجلت) : (٤)

اسمُ محبوبِي سُدَاسِي إِذَا	سَقَطَ الثَّلَاثُ فَعَكْسُ الْكَلِمَةِ
وَإِذَا قُدِمَ ثَانِي شَطْرَهُ	فَهُوَ سُلْطَانٌ لَنَا ذُو عَظْمَةٍ
وَمَتَى يَنْقُصُ ثَانِيهِ فَلَا	نَقْصَ يَبْدُو فِي بِنَاةِ الْمَحْكَمَةِ
عَرَبِيٌّ عَجْمِي نِصْفُهُ	كُلُّهُ مُعْنَى لِمَنْ قَدْ فَهَمَهُ

١/ الديوان ، ص ٤٣٨

٢/ خزانة الأدب وغاية الأرب : ابن حجة الحموي ، ٢ / ٣٤٢

٣/ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، أحمد أحمد بدوي ، ص ١٠٦

٤/ الديوان ، ص ٤٠٣

وللعماد قصيدة أخرى في التلغيز قال في مقدمتها : (وكنت نظمت في
كوز الفقاع لغزا ، وأنشدتها الحكيم أبا العلاء محفوز بن المسيحي بن
عيسى النصراني النيلي الطبيب) ، استهلها بقوله : (١)

ما صورةٌ ما مثُلها صُورَه° كأنها في العُمق مَطْمورَه°
تُطرُّ للري ، ومن ذا رأى مَطْمورةً للري مَطْمورَه°

يعمي العماد فيها ويبيهم ، يريد إختبار صاحبه ، ويقول في خاتمتها :

فيا حَلِيفَ المَأَثَرَاتِ التي أَضَحَتْ لِأَهْلِ الفَضْلِ مَشْهُورَه°
أَنعمْ وَعَجَلْ حَلْ إشْكالها فَهِيَ لَدَى فَضْلِكَ مَأْسُورَه°

لقد اتسم شعر الاخوانيات عند العماد بالرقّة والسهولة والتلقائية
، ودارت معظم إخوانياته حول الصداقة والود والاخاء والمداعبات
والمح والطرائف .

المبحث الثالث

الغربة والحنين

فقد جمع العماد — كما ذكرت مصادر ترجمته — صفات ممتازة منها الوفاء ، والإخلاص والحنين إلى الأوطان والخلان وهي من الصفات الممدوحة لدى العربي ، قال الأصمعي : (دخلت البادية فنزلت على بعض الإعراب فقلت : أفدني ، فقال : إذا شئت أن تعرف وفاء الرجل وحسن عهده وكرم أخلاقه وطهارة مولده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه) (١)

فقد عاش العماد متنقلا بين البلدان ، نزح مع أسرته من أصفهان إلى العراق في أول حياته، وأقام في بغداد وعاش في أحضانها عيشة هنية إلا أنه لم يهنّ بطيب العيش فيها طويلا ، فتربص الخصوم به ورموه بسهام غدرهم ، فخرج منها وحيدا إلى الشام مخلفا أهله وخلانه وراءه وأقام بدمشق ، متطلعا إلى أخبار بغداد متشوقا إلى من فيها ، ويحن إلى ربوعها قائلا : (٢)

فأنا اليوم بالشام وحيدٌ	لِسْنَا البارِق العراقي شائمٌ
لا ودودٌ عليّ وفائي مقيمٌ	ولا وفيٌّ بشرط ودي قائمٌ
مُبْتَغِي قلبي المشوق ببغدا	دَ وجسمي نائي المحل بجاسمٌ
ليت شعري متى يُبشِّرُ عني	أصدقائي فيها بآني قادمٌ؟

وهو بدمشق لا يغيب أهله وخلانه عن مخيلته بل ظل وفيًا لهم ، يدعو لهم بالسقيا والخير والأمن ويأخذه الشوق والحنين إلى وطنه قائلا : (٣)

١/ الديوان ، ص ٤٠ .
٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٦٧
٣/ الديوان ، ص ٤٤٠

يا أخلاي ببغدا وأمنتم نائب الده
د سقيتم كل غنوه رولتم كل حظوه
ما تسليني عن دج لة جيرون وربوه
لا ولا جلق تلهي ني وفيها كل شهوه

وضاقت به الحال في بادئ أمره بدمشق ، إلى أن تعرف إلى القائد البطل نور الدين محمود وتقرّب منه وعينه كاتباً في دولته ، فانصلح حاله ، ولكنه لم ينعم بهذا الخير كثيراً ، فرحل نور الدين إلى الدار الآخرة ، فعادت غربة العماد إلى سابق عهدها ، وعبر عن غربته هذه في مطلع قصيدته التي رثاه بها قائلاً : (١)

تُرى يجتمعُ الشملُ ؟ تُرى العيشُ الذي مرَّ
تُرى من شاغلِ الهمِ تُرى يرجعُ من طيبِ
مريراً بعدهمُ يخلو ؟ فؤادي المبتلى يخلو ؟
زمناني ذلك الفصلُ ولا جَارٌ ولا أهلُ
وهل لي غيركمُ خلُ ؟ تغرّبتُ فلا دارُ
إذا ما احتبس الوبلُ أخلاي ببغداد
وقتلي لكمُ حلُ سقى مغناكمُ دمعي
ب عن شوقي فاستملوا عذابي فيكم عذبُ
وهذا الدمعُ قد أعرَ

فالقصيدة في خمسين بيتاً يشكو فيها الشاعر الوحدة وما يعانيه من ألم وحزن لفراق أهله وأحابيه وبعاده عنهم .

بعد موت نور الدين لم يطب للعماد العيش بدمشق فخرج منها قاصداً العراق ، ومرض في الطريق فعرج على الموصل وأقام بها عدة أيام ، فبلغه بها نبأ خروج السلطان صلاح الدين الأيوبي من مصر قاصداً دمشق ، فطرب العماد لذلك ورجع عائداً إلى دمشق — وكانت له علاقة تربطه بصلاح الدين الأيوبي — فالتقى به في حمص وبارك له ، وتقرّب منه حتى عينه كاتباً في دولته وأصبح ملازماً له في حله وترحاله يقوم لقيامه ويقعد

لَقَعُودَهُ مَبْتَعِدًا بِذَلِكَ عَنِ الْأَهْلِ وَالْأَصْحَابِ ، يَقُولُ فِي ذَلِكَ : (١)

يَوْمًا بَجِيٍّ ٍ وَيَوْمًا فِي دِمَشْقٍ وَبَالَ فُسْطَاطٍ يَوْمًا وَيَوْمًا
بِالْعِرَاقِينَ (٢)
كَأَنَّ جِسْمِي وَقَلْبِي الصَّبَّ مِمَّا خَلَقَا إِلَّا لِيَقْتَسِمَا بِالشَوْقِ وَالْبَيْنِ

وقد كانت رحلاته مع السلطان صلاح الدين تدوم أشهرًا فيزيد ذلك من شوقه وحنينه لأهله وأصدقائه وأحبابه فتفيض قريحته شعرا وجدانيا رقيقا ، ومن ذلك قصيدته التي قالها وقت وصوله إلى مصر ، قال في مقدمتها : (أتشوق فيها الجماعة بالشام وأتندم على مفارقتهم) ، والقصيدة في ثلاثة وثمانين بيتا منها قوله : (٣)

أَحْبَبْتِي إِنْ غَبْتُ عَنْكُمْ فَالْهُوَى دَانَ لِقَلْبٍ بِالْغَرَامِ مُوْلَهُ
أَنْهِيَ إِلَيْكُمْ أَنْ صَبْرِي مَنَتِي بَلْ مَنَتَهُ ، وَالشَّوْقُ لَيْسَ بِمَنَتِهِ
أَمَّا عُقُودُ مَدَامَعِي فَلَقْدَ وَهَتْ وَأَبْتُ عُقُودُ الْوُدِّ مَنِي أَنْ تَهِيَ (٤)
وَلَقَدْ دُهِيتُ بِبَيْنِكُمْ فَاشْتَقْتُكُمْ يَأْمَنْ لِمُشْتَقٍ بَيْنَكُمْ دُهِى
مَازَلْتُ عَنْدَكُمْ بِأَرْخَى عَيْشَةٍ وَبَقِيتُ بَعْدَكُمْ بُعِيشٍ أَكْرَهُ

فقد كان حنينه وشوقه لأهله وأحبابه جذوة لا تخمد وفيض لا ينتهي فيقول: (٥)

فِي شَوْقِكُمْ أَبَدَ الزَّمَانِ تَفَكَّرِي وَبَذَكَرْكُمْ عِنْدَ الْكَرَامِ تَفَكَّرِي
لَوْ قِيلَ لِي: مَا تَشْتَهِي مِنْ هَذِهِ الدِّ نِيَا؟ لَقُلْتُ: سِوَاكُمْ لَا أَشْتَهِي

فقد عبر العماد في هذه القصيدة عن مشاعره أصدق تعبير تجاه بلده التي

١/ الديوان ن ص ٤٢٠

٢/ جي : مدينة قديمة عند أصبهان (معجم البلدان ، ٢ : ٢٠٢)

٣/ الديوان ، ص ٤٤٧

٤/ تهى : تضعف

٥/ الديوان ، ص ٤٤٧

يحبها ، وقد ترك بها أحبابه وأصدقاءه الذين يأملون رجوعه وأهله الذين ينتظرون عودته ليلتئم شملهم .

لقد أحب العماد دمشق وظل وفيالها في بعباده يحن إليها وظلت مناظر الطبيعة وذكرياته الجميلة بها حاضرة في عقله تتدفق من شعره وهو بعيد عنها ، يصور ذلك في إحدى قصائده البالغة ثمانية وتسعين بيتا استعادت ذاكرته فيها صورة خمس وثلاثين موضعا وما أحاط بها من مظاهر الطبيعة الزاهية منها قوله : (١)

وما جنة الخلد إلا دمشق	وفي القلب شوقاً إليها سعي
ميادينها الخضرفيح الرحاب	وسألها العذب صافٍ نمير
وجامعها الرحب والقبة الـ	منيفة والفلك المستدير
وفي قبة النسر لي سادة	بهم للمكارم أفق منير
وباب الفرديس فردوسها	وسكانها أحسن الخلق حور

ويرتبط حنين العماد إلى دمشق ارتباطاً وثيقاً بطبيعتها حتى جعلنا نتساءل هل كان حنينه إلى دمشق وما خلفه فيها من ذكريات أحبته وأصدقائه أم كان بكاء على الطبيعة الجميلة فيها حيث يقول :

وما أنس لا أنس أنس العُبور	على جسر جسرين إني صبور
وكم بتُ ألهو بقرب الحبيب	ب في بيت لها ونام الغيور
فأين اغتباطي بالغوطتين	وتلك الليالي وتلك القصور
لمقترئ مقترئ كقمرها	غناء فصيح وشدو جهير
وأشجار سطرى بدت كالسطو	ر نمقهن البليغ البصير
وأين نظرت نسيم يرق	وزهر يزوق وروض نضير
كان كمائم نوارها	شنوف تركب فيها شذور
ومثل اللآلي سقيط الندى	على كل منشور نورٍ نشير

ويظل حنينه لدمشق متصلاً بأحبابه، فنراه يحمل الراحلين حنينه ووجده
وأشواقه ويلتمس منهم بعث التحية لأحبابه الذين حالت الأيام دون وصالهم
، فيقول : (١)

أيا راكبَ النَّضْوِ يُنْضِي الرِّكَابَ	تسيرُ وخطبُ سُرَاه يَسِيرُ
يَوْمَ دَمَشَقَ وَمِنْ دُونِهَا	تُجَابُ سُهُولُ الْفَلَا وَالْوَعُورُ
وَجَلَقَ مَقْصَدَهُ الْمُسْتَجَارُ	لَقَدْ سَعِدَ الْقَاصِدُ الْمُسْتَجِيرُ
إِذَا مَا بَلَغْتَ فَبَلِّغْهُمْ	سَلاماً تَأْرَجَ مِنْهُ الْعَبِيرُ
وَكُنْ لِي بَرِيداً بَبَابِ الْبَرِيدِ	فَأَنْتَ بِأَخْبَارِ شَوْقِي خَبِيرُ

وقد نظم العماد قصيدة أخرى في حنينه إلى دمشق حينما فارقتها وذهب
إلى مصر وقد ترك بها أهله وأحبابه ، وقال في مقدمتها : (ونظمت في
طريق مصر سنة ٥٧٢ هـ قصيدة مشتملة على ذكر المنازل بالترتيب
وإيراد القريب منها والبعيد) منها قوله : (٢)

هَجَرْتَكُمْ لَا عَنْ مَلَالٍ وَلَا غَدْرٍ	وَلَكِنْ لِمَقْدُورٍ أُتِيحَ مِنَ الْأَمْرِ
وَأَعْلَمُ أَنِّي مُخْطِئٌ فِي فِرَاقِكُمْ	وَعُذْرِي فِي ذَنْبِي وَذَنْبِي فِي عَذْرِي
أَرَى نُوباً لِلدَّهْرِ تُحْصَى وَمَا أَرَى	أَشَدَّ مِنَ الْهَجْرَانِ فِي نُوبِ الدَّهْرِ
أَسِيرُ إِلَى مِصْرَ وَقَلْبِي أَسِيرُكُمْ	وَمِنْ عَجَبِ أَسْرِي وَقَلْبِي فِي أَسْرِي
أَخْلَايَ قَدْ شَطَّ الْمَزَارُ فَارْسَلُوا الْـ	خِيَالَ وَزُورُوا فِي الْكَرَى وَارْبَحُوا أَجْرِي
تَذَكَّرْتُ أَحْبَابِي بِجَلَقِ بَعْدَمَا	تَرَحَّلْتُ، وَالْمَشْتَقُ يُأْنِسُ بِالذِّكْرِ
وَنَادَيْتُ صَبْرِي مُسْتَغِيثاً فَلَمْ يُجِبْ	فَأَسْبَلْتُ دُمْعِي لِلْبُكَاءِ عَلَى صَبْرِي

فقد استهل العماد قصيدته بالحديث عن الهجر عن الوطن والأحباب والأهل
، فيلتاع قلبه لفراقهم ، ويعاتب نفسه ويلومها في هجرهم ، ويلتمس من
خلانه أن يرسلوا خيالهم له في النوم حتى يرتاح قلبه ، وتطوف ذكرى
أحبته بخياله فيأنس بذكرهم في وحدته ويذرف الدموع حرى دونهم .

١/ الديوان ، ص ١٨٧
٢/ المصدر نفسه ، ص ٢٠٢

فقد أحب العماد دمشق حد الوله ، فصعب عليه فراقها ، ويصرح بذلك في هذه المقطوعة التي قالها وهو في طريقه إلى مصر صحبة السلطان صلاح الدين الايوبي سنة ٥٧٢هـ وقد نزل بالفقيع قائلاً : (١)

رَأَيْتَنِي بِالْفَقِيعِ مُنْفَرًا أَضِيعَ مِنْ فُقْعِ قَاعِهَا الضَّائِعِ
بَعْتُ بِمِصْرَ دِمَشْقَ عَنْ غُرَرٍ مَنِي فَيَا غِبْنَ صَفْقَةِ الْبَائِعِ
صَبْرِي وَالْقَلْبُ عَاصِيَانِ وَمَا غَيْرَ هُمُومِي وَأُدْمَعِي طَائِعِي

والعماد كثير التحسر لفراقه دمشق وأحبابه بها ، فحينما فارقها وهو في طريقه إلى مصر صحبة السلطان صلاح الدين، نزلوا بالزرقاء للراحة تذكر العماد دمشق ومن خلفهم وراءه بها، فقال متأسفا ومتحسرا على فراقهم : (٢)

وَلَمْ أُنْسَ بِالزَّرْقَاءِ يَوْمَ ودَاعِنَا أَنَامِلَ تَذْمِي حَيْرَةِ اللَّتَنُومِ
أَعْدْتُكَ يَا زَرْقَاءُ حِمْرَاءَ أَنِّي بَكَيْتُكَ حَتَّى شَيْبَ مَاوُكَ بِالْدَمِ
تَأَخَّرَ قَلْبِي عَنْهُمْ مُتَخَلِّفًا وَخَالَفْتُهُمْ فِي عَزَمَتِي وَالتَّقَدُّمِ
فِيَالَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَعُودُ إِلَيْهِمْ وَهَلْ (لَيْتَ شِعْرِي) نَافِعَ لِلْمَتِيمِ

وكما ذكرنا سابقا من صفات العماد الوفاء والإخلاص والحنين إلى الأوطان والخلان ، فحينما أقام العماد فترة في مصر ألفها وأحب أهلها، وعندما فارقها حن إليها وتشوق الي من فيها وتذكر من سكانها الأحباب والأصدقاء والعلماء والأدباء والكرماء قائلاً : (٣)

لَا أَوْحَشَ اللَّهُ أَنْسِي بِقَرَبِكُمْ وَلَا أَرَانِي فِيكُمْ غَيْرَ إِيثَارِي
وَلَا عَدَمْتُكُمْ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ حَفَاطَ سِرِّي وَأَعَوَانِي وَأَنْصَارِي
يَا سَاكِنِي مِصْرَ فَقَدْ فُقْتُمْ بِفَضْلِكُمْ ذِي الْفَضَائِلِ مِنْ سُكَّانِ أَمْصَارِ

١/ الديوان ، ص ٢٩١
٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٨٣
٣/ المصدر نفسه ، ص ١٩٤

وحيثما عاد العماد إلى أهله بدمشق سنة ٥٧٣ هـ تذكر أحبائه وأصدقاءه
بمصر فنظم مقطوعة يتشوقهم فيها ويتمنى قربهم قائلا : (١)

بمصرَ فيا بُعدَ ما بيننا	تذكرت في جلق داركم
وذلك - والله - كُلُّ المُنَى	وما أتمنى سوى قربكم
عليكم وبرقكم بالسنا	يُدُلُّ نسيكم بالأريج
سلامكم في النوى لا ونى	فحثوا النسيم لإبلاغه
عناني لأشواقكم ما عنا	ودُلُّوا على الدوح قلبي فقد
ومن نال ذلك نال الغنى	وإني فقيرٌ إلى وصلكم

وفي إحدى مقطوعاته يبدي أسفه وندمه على فراق أصدقائه وخلانه
بالقاهرة ويدعوا لهم بالعيشة الكريمة والصحة المستديمة قائلا : (٢)

ومن ينأ عنكم كيف لا يتندم	أبيت على هجرانكم متندما
من الوجد والأشواق فالله يعلم	فإن كنتم لم تعلموا ما لقيته
ومنية قلبي أن تعيشوا وتسلموا	بقيتم وعشتم سالمين من الأذى

١/ الديوان ، ص ٤٠٥

٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٧٩

الباب الثالث

الدراسة الفنية لشعر العماد

الفصل الأول : موسيقى الشعر

الفصل الثاني : التصوير البياني

الفصل الثالث : اللغة والأسلوب

الفصل الرابع : بناء القصيدة

الفصل الأول

موسيقى الشعر: ■

حين حاول القدماء تعريف الشعر، عرفوه بأنه الكلام الموزون المقفى ، حيث يرون الأنسجام الموسيقي في توالي الكلام وخضوعه إلى ترتيب خاص مضافا إلى هذا تردد القوافي وتكرارها أهم خاصية تميز الشعر من النثر (١) .

فالموسيقى تمثل عنصرا مهما من عناصر الشعر بما تتوصل به من وزن وقافية ومن انسجام صوتي بين العناصر اللغوية تظهر في شكل نغمات إيقاعية مؤثرة .

ودرستنا لموسيقى شعر العماد تقوم على جانبين اثنين ، الأول الموسيقى الخارجية وما يتصل بها من أوزان وقواف ، والثاني الموسيقى الداخلية ، وما يتصل بها من جرس لفظي وأدوات تشكيلية .

المبحث الأول :

الموسيقى الخارجية

تتكون الموسيقى الخارجية في الشعر العربي من الوزن والقافية ،
الذين عني بهما الشعر العربي عناية كبيرة ، (فالوزن أعظم أركان حد
الشعر وأولاهها به خصوصية) (٢). وفرق ابن سنان الخفاجي بين الشعر
والنثر بالوزن والتقفية . (٣) . فالوزن له مكانة عظيمة في الشعر مما جعل
بعض النقاد يوجبون تخير الشعراء للاوزان وفقا لموضوعات الشعر
فيقول ابن طباطبا العلوي : (إذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى
الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا وأعد له ما يلبسه إياه) (٤).

١/ موسيقى الشعر العربي : ابراهيم انيس ، دار القلم ، بيروت - لبنان ، الطبعة الرابعة ، ص ٢٧

٢/ العمدة : ابن رشيق ، ١٣٤/٢

٣/ سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي ، شرح وتعليق عبد المتعال الصعيدي ، طبع مطبعة صبيح ، القاهرة
١٩٦٩م ، ص ٢٧٩

٤/ عيار الشعر: ابن طباطبا العلوي ، شرح وتحقيق عباس عبدالستار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة
الاولى ، ص ١١

وأيده حازم القرطاجني من بعده في وجهة نظره ، فربط ما بين أغراض الشعر أوزانه (١). ووافقهما من المحدثين الدكتور عبد الله الطيب الذي أظهر أن

أوزان البحور تختلف تبعاً للأغراض الشعرية وإلا كان أغنى بحروا واحد ووزن واحد (٢).

وإذا نظرنا في الشعر العربي نجد أن الشعراء لم يلتزموا هذا الحكم ، ففي المعلقة مثلاً نجد الشاعر يبيكي ويتغزل ويصف ويفخر ويمدح كل هذا في قصيدة واحدة ، بل في وزن واحد . ويقول إبراهيم أنيس في هذا الخصوص : (ويكفي أن نذكر المعلقة التي قيلت كلها في موضوع واحد تقريباً ونذكر أنها نظمت من الطويل والبسيط والخفيف والوافر والكامل ، ولنعرف أن القدماء لم يتخيروا وزناً خاصاً لموضوع خاص ، بل حتى ما سماه صاحب المفضليات بالمراثي جاءت من الكامل والطويل والبسيط والسريع (٣).

أما الأوزان عند شاعرنا العماد فقد وجدت العناية الكبيرة في نظمه ، ولم يخالف الأوزان العربية المعروفة ، ما عدا وزن الدوبيت . وقد نظم في معظم البحور ولم يلتزم الشاعر بأوزان معينة لأغراض معينة ، بل جاءت أوزانه وفق الحالة الشعرية التي تكتنفه وفي حينها .

١ / منهاج البلغاء وسراج الأدباء : أبي الحسن حازم القرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، ص ٢٦٦

٢ / المرشد ، ١ / ٥٢

٣ / الأسس الجمالية في النقد الأدبي : عز الدين اسماعيل ، مصر ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ١٩٥٥ م ، ص ٣٧٦

والجدول التالي يبين عدد القصائد والمقطوعات التي نظمها على كل بحر وعددها ٢٦٥ قصيدة ومقطوعة .

الرقم	البحر	عدد القصائد	عدد المقطوعات	النسبة المئوية
١	الكامل	٤٣	١٠	٢٠%
٢	الطويل	٢٥	١٢	١٣.٩
٣	البسيط	٢٠	١٠	١١.٣
٤	الخفيف	٢٠	٩	١٠.٩
٥	السريع	١٦	١١	١٠.١
٦	المتقارب	١١	٦	٦.٤
٧	المجتث	٨	٢	٣.٨
٨	الوافر	٧	٢	٣.٤
٩	الرمل	٦	٣	٣.٤
١٠	المنسرح	٥	١	٢.٣
١١	الرجز	٣	١	١.٥
١٢	الهمزج	٢	١	١.١
١٣	المقتضب	١	١	٠.٨
١٤	المديد	١	١	٠.٨

وجاء استخدامه لمجزوءات البحور على النحو التالي :

اسم البحر	عدد القصائد	عدد المقطوعات	النسبة المئوية
مجزؤ الكامل	٤	٤	٣%
مجزؤ الرمل	٤	٢	٢.٣
مجزؤ الرجز	٣	٣	٢.٣
مجزؤ الخفيف	٢	٢	١.٥
مخلع البسيط	٢	٠.٨	٠.٨
مجزؤ المتقارب	١	٠.٤	٠.٤
الجملة	١٨٤	٨١	١٠٠.٠

ومن خلال الجدول السابق يتضح أن العماد قد وفق في تغليب بعض البحور على بعض ، وتركيزه على بحور بعينها ، مثل بحر الكامل الذي كان له النصيب الأوفى في قصائده ، فقد نظم فيه ٥٣ قصيدة ومقطوعة ، يليه بحر الطويل ، وقد نظم فيه ٣٧ قصيدة ومقطوعة ، ثم يليه البسيط وقد نظم فيه ٣٠ قصيدة ومقطوعة ، ثم يليهم الخفيف ، وقد نظم فيه ٢٩ قصيدة ومقطوعة وهذه البحور الأربعة شكلت ٥٦.١ % من قصائد الشاعر.

أما البحور التي أهملها العماد هما بحرا المتدارك ، والمضارع .

وفي إحصائية أجريت على القصائد الحربية الواردة في كتاب الروضتين وعددها مائة وثمان وعشرون قصيدة ، وجد أن بحر الكامل أكثر بحور الشعر استعمالاً في هذه القصائد إذ تكرر استعماله سبعة وثلاثين مرة ، يليه في الاستعمال بحر الطويل الذي تكرر استعماله في ستة وعشرين قصيدة ، أما بحر البسيط فقد تكرر استعماله في خمس وعشرين قصيدة ، يأتي بعد ذلك بحر الخفيف حيث تكرر استعماله في عشر قصائد ... (١). وإذا رجعنا إلى الجدول السابق نجد أن شعر العماد قد وافق هذه الإحصائية ، لأن جل شعره قد ورد في كتاب الروضتين .

ويتضح مما سبق أن العماد اعتمد في أوزانه الشعرية على البحور الطويلة الكثيرة المقاطع فقد تناول بحر الكامل بدرجة عالية بالنسبة للأوزان الأخرى إذ بلغت نسبته ٢٠ % ، وذلك لما يمتاز به من خصائص ، فهو أكثر بحور الشعر جلجلة وحركة ، وفيه لون خاص من الموسيقى يجعله إن أريد به الجد فخماً جليلاً مع عنصر ترنمي خاص ، ويجعله إن أريد به الغزل وما بمجراه من أبواب اللين والرقّة حلوا مع صلصلة كصلصلة الأجراس ، وهو بحر كأنما خلق للتغني به .. فهو فخم جليل إن أريد به الجد ، ولين رقيق إن أريد به الغزل (٢). ومن القصائد التي نظمها العماد في هذا البحر ، قوله متغنيا بانتصارات

١/ الشعر الشامي ، ص ٢٢٠

٢/ المرشد ، ١/ ٢٤٦ - ٢٥٩

صلاح الدين الأيوبي حينما فتح قلعة منبج : (١)

بُشِّرَى الْمَمَالِكِ فَتْحُ قَلْعَةِ مَنْبِجٍ فَلْيَهْنِ هَذَا النَّصْرَ كُلَّ مَتَوَجٍّ
أَعْطَيْتَ هَذَا الْفَتْحَ مِفْتَاحًا، بِهِ فِي الْمَلِكِ يَفْتَحُ كُلَّ بَابٍ مُتَرَجٍّ
وَافَى يَبْشِرُ بِالْفَتْوحِ وَرَاءَهُ فَانْهَضْ إِلَيْهَا بِالْجِيُوشِ وَعَرِجْ

فهذا البحر عروضه صحيحة (متفاعلن) وضربه صحيح (متفاعلن)

ويقول أيضا من هذا البحر : (٢)

وَالْغَصْنُ مَهْزُوزُ الْقَوَامِ كَأَنَّمَا دَارَتْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّمَالِ شُمُولٌ

من بحر الكامل ذوالعروض الأولى الصحيحة (متفاعلن) والضرب الثاني المقطوع (متفائل) .

وقوله : (٣)

دَارٌ عَلَى حَرْبِ الزَّمَانِ لَنَا جَنَحَتْ بِهَا سَلْمَى إِلَى سَلْمَى
مَا لِلْهَوَى أَبَدًا يُلَازِمُنِي فِيهَا ؟ فَهَلْ كَتَبَ الْهَوَى بِاسْمِي؟

من بحر الكامل ذوالعروض الثانية حذاء (فعولن) منقولة عن (متفائل) والضرب الأحذ المضمر (فعولن) .

أما بحر الطويل فيأتي في المرتبة الثانية في شعر العماد حيث نظم فيه شاعرنا ٣٧ قصيدة ومقطوعة ، بنسبة ٩. ١٣ % ، وقد كان القدماء يؤثرونه على غيره وله حق الصدارة في كل ما ينظمون (٤). ومن نظمه فيه قوله : (٥)

١/ الديوان ، ص ١٠٢

٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٣٣

٣/ المصدر نفسه ، ص ٣٩٤

٤/ موسيقى الشعر العربي : ابراهيم انيس ، ص ٩٦

٥/ الديوان ، ص ٢٣٦

عفا الله عنكم عن ذوي الشوق نَفِسُوا

فقد تَلَفَتْ مِنَّا قُلُوبٌ وَأَنْفُسُ

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِي مِنَ الشَّوْقِ مُوسِرٌ؟

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِي مِنَ الصَّبْرِ مُفْلِسٌ؟

فهذه الأبيات من بحر الطويل ذات العروض المقبوضة (مفاعِلن)
والضرب الثاني المقبوض (مفاعِلن)

ويقول أيضا : (١)

أَعْيْزُكُمْ يَا ذَا الْفَضْلِ مِمَّا يَشِينُهُ
وَذَا الْمَجْدِ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِذِي الْمَجْدِ

فهي ذات العروض المقبوضة (مفاعِلن) ، والضرب التام (مفاعِلين)

أما بحر البسيط فيأتي في المرتبة الثالثة من بين البحور التي نظم فيها
العماد ، حيث نظم فيه ثلاثين قصيدة ومقطوعة ، بنسبة بلغت
٣ . ١١ % وهو (بحر لا يخلو من أحد النقيضين العنف أو اللين) (٢) وهو
يفوق الطويل رقة وجزالة لذلك قل في الجاهلية ، كما أن موسيقاه سيالة
وإن كان إيقاعه واضحا (٣) . ومن البسيط قول العماد : (٤)

استوحش القلبُ مذ غبتم فما أنسا وأظلم اليومُ مذ بنتم فما شمسنا
ما طببتُ نفساً ولا استحسنتُ بعدكم شيئاً نفيساً ولا استعذبتُ لي نفساً

فالأبيات من بحر البسيط عروضه تامة مخبونة ، وضربه مخبون مثلها
(فعِلن) ، ونلاحظ في هذه الأبيات روح الخطابة التي يتميز بها بحر

١/ الديوان ، ص ٢٠٢

٢/ المرشد ، ١ / ٤١٤

٣/ موسيقى الشعر العربي : شكري عياد ، ص ٩٢

٤/ الديوان ، ص ٢٢٧

البسيط فهو ذو صبغة إنشائية إذا افترضنا في الطويل صبغة خبرية.

ومن البسيط قول العماد أيضا : (١)

أطاعَ دمعِي ، وصَبْرِي في الغرامِ عَصَى

والقلبُ جَرَعَ من كأسِ الهوى غصصا

وإنْ صفوَ حَيٍّ آتِي ما يَكْدِرُه

إلا اشْتِياقي إلى أحبابي الخلصا

ما أطيبَ العيشَ بالأحبابِ لو وصلُوا

وأسعدَ القلبَ مِنْ بلواه لو خلصا

زَمُوا فؤادي وصبري والكرى معهم

غداةَ بَانُوا وزمُوا للنوى القلصا

فهذه الأبيات من بحر البسيط أيضا عروضه تامة مخبونة وضربه مخبون مثلها (فعلن) ، وقد وجد العماد في هذا البحر ما يلائم أغراضه من إثارة الحزن في النفوس والتذكر والحنين ، (وما يميز هذا البحر من رقة ولين ، ورقة البسيط من النوع الباكي فهي تظهر في باب الرثاء ، وتظهر في كل ما يغلب عليه عنصر الحنين والتحسر على الماضي) (٢).

ويأتي بحر الخفيف تاليا لبحر البسيط في المرتبة ، حيث نظم فيه ٢٩ قصيدة ومقطوعة ، بنسبة بلغت ٩ . ١٠ % ، وهو من البحور الطوال الوافرة النغم ، (وهو من أخف البحور على الطبع وأطلاها للسمع يشبه الوافر لنا ولكنه أكثر سهولة وأقرب انسجاما) (٣)

١/ الديوان ، ص ٢٤٩

٢/ المرشد ١/ ٤١٥

٣/ اصول النقد الادبي : احمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ١٩٦٤م ، ص ٣٢٣

ومن الخفيف قول العماد : (١)

كيف قَلْتُمْ فِي مُقَاتِلَتَيْهِ فَتُورُ وَأَرَاهَا بِلَا فَتُورٍ تَجُورُ
لَوْ بَصَرْتُمْ بِلَحْظِهِ كَيْفَ يُسْبِي قَلْتُمْ ذَاكَ كَاسِرًا لَا كَسِيرُ
مُوتَرُقُوسَ حَاجِبِيهِ لِأَصْمَا عِ فُؤَادِي كَأَنَّهُ مُوتُورُ

فهذه الأبيات من بحر الخفيف ذات العروض الأولى الصحيحة (فاعلاتن) والضرب الأول الصحيح مثلها (فاعلاتن) .

ومن هذا البحر قوله أيضا : (٢)

قَدْ أَضَاءَ الزَّمَانُ بِالْمُسْتَضَى وَارِثُ الْبُرْدِ وَابْنُ عَمِّ النَّبِيِّ
جَاءَ بِالْحَقِّ وَالشَّرِيعَةِ وَالْعَدِّ لَ فِيَا مَرْحَبًا بِهَذَا الْمَجِيِّ !

فهذه الأبيات من بحر الخفيف ذات العروض الثانية المحذوفة (فاعِلن) وضربها محذف مثلها (فاعِلن) .

ويلي الخفيف بحر السريع في المرتبة في شعر العماد ، حيث نظم فيه ٢٧ قصيدة ومقطوعة ، بنسبة بلغت ١٠ ٪ ، وهو بحر يتدفق سلاسة وعذوبة يحسن فيه الوصف وتمثيل العواطف الفياضة وهو قليل في الشعر الجاهلي (٣)

ومن هذا البحر قول العماد : (٤)

بِالْمَلِكِ الْعَمَادِ مُحَمَّدٍ أَنْجَزَتِ الْأَيَّامُ مَوْعُودِي
أَسْكَنَنِي الْإِقْبَالَ فِي ظِلِّهِ وَعَادَ حَظِي مُورِقَ الْعُودِ
مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي ظِلِّهِ سَاكِنًا فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَسْعُودِ

١/ الديوان ، ص ١٧٧

٢/ المصدر نفسه ، ص ٦٤

٣/ اصول النقد الادبي : احمد الشائب ، ص ٣٢٣

٤/ الديوان ، ص ١٣٨

وقوله أيضا : (١)

مَولايَ عِزُّالدينِ فَرَحَ شَه
الدهرَ مَنْ يَرْجُكَ لَا يَخْشَه
تَلْقَاهُ سَمَحَ الكَفِّ دَفَاقَها
طَلَقَ المَحْيَا كَرَمًا بَشَه

من بحر السريع ، عروضه مكسوفة مطوية (فاعلن) والضرب مكسوف مطوي مثلها (فاعلن).

ونظم العماد في بحر المتقارب ١٧ قصيدة ومقطوعة ، بنسبة بلغت ٤ . ٦ % ، ومن ذلك قوله : (٢)

سِوَاكَ لِسَهْمِ العُلَى لَنْ يَرِيشَا فَنَسْأَلُ رَبَّ العُلَى أَنْ تَعِيشَا

فهذه الأبيات من بحر المتقارب عروضها الأولى الصحيحة (فعولن) والضرب صحيح مثلها (فعولن) ، وهو بحر سهل يسير ذو نغمة واحدة ، وأقل ما يقال عنه أنه بحر بسيط النغم مضطرب التفاعيل ، منساب طبلي الموسيقى ويصلح لكل ما فيه تعدد للصفات وتلذذ بجرس الألفاظ وسرد للآحداث في نسق مستمر ، والناظم فيه لا يستطيع أن يتغافل دندنته فهي أظهر شيء فيه ، ولذلك فتجويد الصناعة فيه أمر مهم جدا ، وكثير من الشعراء الفحول يتحامونه لأنه يتطلب اندفاعا وراء النغم كما يندفع التيار في غير ما توقف (٣).

نظم العماد في بحر المجتث عشرة قصائد ومقطوعات ومن ذلك قوله : (٤)

أَسْأَلُ الرِّكَبَ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي فُؤَادِي
وَقَفَّ عَلَيْكُمْ طَرِيفِي فِي حُبِّكُمْ وَتِلَادِي
تَصْبُرِي فِي انْتِقَاصٍ وَلَوْ عَنِّي فِي ازْدِيَادٍ

فهذه الأبيات من بحر المجتث عروضها صحيحة (فاعلاتن) وضربها صحيح مثلها (فاعلاتن)

١/ الديوان ، ص ٤٤٤

٢/ المصدر نفسه، ص ٢٤٢

٣/ المرشد ، ١ / ٣١٢ - ٣١٣

٤/ الديوان ، ص ١٢٧

وللعماد في بحر الوافر تسع قصائد ومقطوعات ، وهو أليّن البحور ، يشتد إذا شددته ويرق إذا رققته ، (وهو بحر مسرع النغمات متلاحقها ، يتطلب من الشاعر أن يأتي بمعانيه دُفعا دُفعا كأنه يخرجها من مضخة ، وأحسن ما يصلح هذا البحر في الاستعطاف والبكائيات وإظهار الغضب وفي معرض الهجاء والفخر والتفخيم في معرض المدح) (١) .

ومن ذلك قول العماد في الفخر والتفخيم في معرض المدح : (٢)

يَمِينُكَ دَأْبُهَا بَذْلُ الْيَسَارِ وَكَفُّكَ صَوْبُهَا بَدْرُ النُّضَارِ
وَأَنْتَ الْبَحْرُ فِي بَثِّ الْعَطَايَا وَأَنْتَ الطَّوْدُ فِي بَادِي الْوَقَارِ
أَعَزَّ الدِّينَ غَيْثُ الْجُودِ غَوْثُ الدِّ وَرَى طُودَ الْعُلَى شَمْسُ النَّهَارِ

فالأبيات من بحر الوافر ذات العروض الأولى المقطوعة (فعولن) والضرب المقطوع مثلها (فعولن) .

وللعماد في بحر المنسرح ست قصائد ومقطوعات ، وهو من البحور قليلة الاستعمال في الشعر العربي ، (وقد شاع المنسرح بين طوائف المرققين في العصر الأموي ، وقل عند شعراء الفخامة ولم يتعاطه طلاب الفخامة والجزالة والفحولة إلا الكميت والطرماح) (٣) . ومن هذا البحر قول العماد : (٤)

أَسْلَمَ لِبَكْرِ الْفُتُوحِ مُفْتَرَعًا وَدُمَ لِمُلْكِ الْبِلَادِ مُنْتَزَعًا
فَإِنْ أَوْلَى الْوَرَى بِهَا مَلِكٌ غَدَا بَعْبِ الْخُطُوبِ مُضْطَلَعًا
إِنْ ضَاقَ أَمْرٌ فَغَيْرُ هِمَّتِهِ لِكَشْفِ ضَيْقِ الْأُمُورِ لَنْ يَسْعَا

فهذه الأبيات من بحر المنسرح ذات العروض الثانية المطوية (مُفْتَعِلُنْ) والضرب المطوي مثلها (مُفْتَعِلُنْ)

١/ المرشد ، ١ / ٣٣٣

٢/ الديوان ، ص ١٩٥

٣/ المرشد ، ١ / ١٧٥

٤/ الديوان ، ص ٢٨٥

وللعماد في الرجز ثلاث قصائد، ومقطوعة واحدة، ومن هذا البحر قوله : (١)

سَلَطَتِ الْمَطْلَ عَلَى نِجَازِهَا وَضَيَعَتْ حَقِي فِي مَجَازِهَا
وَصَالَهَا مِنَ الْحَيَاةِ مُنِيَّتِي مَنْ لِي بِالْفُرْصَةِ فِي انْتِهَازِهَا

فهي ذات العروض الأولى المطوية (متفعِلن) والضرب المطوي مثلها

ونظم العماد في الهزج قصيدتين اثنتين، ومقطوعة واحدة، ومن قصائده فيه، قوله: (٢)

أَهْنِي الْمَلِكَ النَّاصِرَ رَ بِالْمَلِكِ وَبِالنَّصِرِ
وَمَا مَهْدَ مِنْ بُنْيَا نَ دِينَ الْحَقِّ فِي مِصْرَ

فهي ذات العروض (مفاعيلن) والضرب الأول مثلها (مفاعيلن) .

ونظم العماد في بحر المقتضب قصيدة واحدة، ومقطوعة واحدة، ومن قصيدته فيه، قوله : (٣)

قَلَّ فِي الْكِرَامِ لَهْ مُشْبَهَ وَإِنْ كَثُرُوا
هَمَّةٌ مُبَارَكَةٌ فِي الشِّفَا لَهَا أَثَرُ

فهي من بحر المقتضب عروضها مطوية (مفتعلن) وضربها مطوي مثلها .

وللعماد في بحر المديد قصيدة واحدة ومقطوعة واحدة، ومن مقطوعته قوله: (٤)

١/ الديوان ، ص ٢٢٤

٢/ المصدر نفسه ن ص ١٩٧

٣/ المصدر نفسه ، ص ١٧٢

٤/ المصدر نفسه ، ص ٩٨

في فؤادي نارٌ وجنته وبجسمي سُقْمٌ مُقلته
صارَ قلبي فيه مُحترقاً أه من قلبي وحُرقتِه

فهي من بحر المديد ذات العروض الثالثة محذوفة مخبونة (فعِلن)
وضربها مثلها (فعِلن) .

أما مجزوءات البحور ، فقد نظم شاعرنا العماد من مجزوء الكامل
، ومجزوء الرمل ، ومجزوء الرجز ، ومجزوء الخفيف ، ومجزوء
المتقارب ، ومن مجزوء الكامل قوله: (١)

قلبي العليلُ فكيف سَـ و غ وصفُ طرفك بالعليلِ
وأنا المحبُّ المُستها م فـ ما لخصرك والنحول

فهذه الأبيات من مجزوء الكامل عروضه صحيحة (متفاعِلن) وضربه
مرفل (متفاعلاتن)

ومن مجزوء الرمل قوله : (٢)

بأبي مُعتدلُ القا مة في عطفه نشوة
حاکم في مهج العُشـ اق لا يقبلُ رِشوة

فهي ذات العروض الثانية الصحيحة (فاعلاتن) والضرب الصحيح
مثلها (فاعلاتن) .

وهكذا تختلف البحور عند شاعرنا العماد باختلاف المعاني
والأغراض ، ولم يقتصر على بحر بعينه أو بحور معدودة ، لأن شعره قد
اتسع لمعان كثيرة كما رأينا في دراسة موضوعاته ، من مديح وهجاء
ورثاء ووصف وفخر وغيرها ولم يخرج في استخدامه لهذه البحور عن ما
هو مألوف عن نسبة شيوعها في الشعر العربي وإن اختلف بعضها .

١/ الديوان ، ص ٣٥٤

٢/ المصدر نفسه ، ص ٤٣٨

المبحث الثاني القافية

تمثل القافية العنصر الثاني من عناصر الموسيقى الخارجية ، وهي شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر (١) ، ولا يسمى الشعر شعرا حتى يكون له وزن وقافية (٢). وعرف الخليل بن أحمد القافية بأنها : (هي من آخر حرف في البيت إلي أول ساكن يليه من قبله مع حركة الحرف الذي قبل الساكن) (٣) ، وقال الأخفش: (القافية آخر كلمة من البيت) ، ومن الناس من جعل القافية آخر جزء من البيت ، ومنهم من قال البيت كله قافية (٤) ويعرفها الدكتور عبد الله الطيب بأنها : (الحرف الذي يجيء في آخر البيت) (٥) ، ويعرفها ابن رشيق بأنها : (حرف الروي الذي يتكرر في آخر كل بيت من أبيات القصيدة) (٦).

وقد نظم شاعرنا العماد في القوافي كلها الصعبة والسهلة ، وصرح في إحدى قصائده بذلك قائلا : (٧)

وَقَدْ سَهَّلْتُ وَالتَّاءُ أَوْ عُرْمُرْتَقَى فَلَا فَرْقَ عِنْدِي بَيْنَ تَاءٍ وَبَيْنَ ثَا

فقد نظم العماد في كل القوافي من ذلل ، ونفر ، وحوش ، فالقوافي الذلل هي (الباء والتاء والذال والراء والعين والياء المتنوعة بالف الاطلاق والنون في غير التشديد أسهلها جميعا) ، والقوافي النفر وهي : (الصاد ، والزاي ، والضاد ، والطاء ، والهاء الاصلية والواو) والقوافي الحوش هي : (التاء ، والخاء ، والذال ، والشين ، والظاء ، والغين) (٨). أما الميم واللام والكاف والقاف والفاء والجيم والحاء والسين فقد وردت ضمن شرح القوافي الذلل مما يجعلنا نضمها إليها .

١/ المرشد ، ١ / ١٧٥

٢/ العمدة ، ١ / ١١٠

٣/ المرجع نفسه ، ص ١٥١

٤/ المرجع نفسه ، ص ١٥٢ - ١٥٤

٥/ المرشد ، ١ / ١٣

٦/ العمدة ، ١ / ١٥١

٧/ الديوان ، ص ١٠٠

٨/ المرشد ، ١ / ٤٧

والجدول التالي يبين عدد القصائد والمقطوعات التي قالها في كل قافية :

الحروف	عدد القصائد	عدد المقطوعات
الراء تكرر في	٢٠	١٠
اللام ،،	١٤	٩
النون ،،	٨	٥
الذال ،،	٧	٨
الميم ،،	٧	٥
الباء ،،	٥	٩
العين ،،	٥	٥
الفاء ،،	٤	٦
التاء ،،	٤	٥
الضاد ،،	٤	١
الهمزة ،،	٣	٤
السين ،،	٣	٤
الهاء ،،	٣	٣
الشين ،،	٢	٣
الحاء ،،	٢	٢
الجيم ،،	٢	٢
الصاد ،،	٢	١
الزاي ،،	٢	—
الياء ،،	٢	—
القاف ،،	١	٣
الكاف ،،	١	٢
الطاء ،،	١	١
الثاء ،،	١	—
الذال ،،	—	١

فاذا نظرنا في الجدول السابق نجد أكثرما نظم فيه شاعرنا العماد من قوافٍ كان من الذلل ، وأكثرها نظما عنده هي الراء واللام والذال والباء

، ونظم كذلك في القوافي النفر وأكثرها نظماً عنده هي الضاد (أربع قصائد) والهاء (ثلاث قصائد) والصاد والزاي في كل ، قصيدتين ، والطاء والذال في كل ، قصيدة واحدة .

أما نظمه في القصائد الحوش لم يتعد ثلاث قصائد ، قصيدتين في حرف الشين وقصيدة واحدة في حرف الثاء ، وخلت قوافيه من حرف الخاء والظاء والغين .

وعمد شاعرنا العماد إلى استخدام القوافي المطلقة دون المقيدة ، المجردة والموصولة لأجل الحصول على أكبر قدر من الموسيقى والنغم عبرمد الصوت حيث يقول : (١)

أحبة قلبي طال ليلى بعدكم
أسي فمتى ألقى بوجهكم الفجرا

سكنتم فوادي، وهو في نار شوقكم
فهلأ أخذتم فيه من نار ه حذرا

فقدت حياتي مذفقدت لقاءكم
فهل بحياتي منكم نشأة أخرى

لقد عاد أنسي وحشة بفراقكم
كما عاد عرف الدهر بعدكم نكرا

حيث أتى بحرف الروي (الراء) متحركا وموصولا بالالف للحصول على أكبر نغم موسيقي .
و مثل ذلك قوله في قصيدة أخرى : (٢)

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا وتعتاض من ذكراكم وحشتي أنسا
وأسأل عنكم عافيات دوارس غدت بلسان الحال ناطقة خرسا
معاهدكم ما بالها كعهدكم وقد كررت من درس آثارها درسا

١/ الديوان ، ص ١٥٥
٢/ المصدر نفسه ، ص ٢٣٠

وندرت القوافي المقيدة في شعر العمداء فقد وردت في ثماني قصائد فقط
من جملة شعره ، ومن ذلك قوله في مدح الخليفة المقتفي بالله : (١)

أُضْحَتْ ثَقُورُ النَّصْرِ تَبَسُّمٌ بِالظَّفَرِ وَغَدَتْ خِيُولُ النَّصْرِ وَاضِحَةُ الْغُرْرِ
يَا ابْنَ السَّرَاةِ ذَوِي الْعُلَى مِنْ هَاشِمٍ وَالْأَكْرَمِينَ أُولِي الْمَنَاقِبِ مِنْ مُضَرٍ
أَنْتَ ابْنُ عَمِّ الْمَصْطَفَى وَسَمِيهِ أَبْشِرْ، فَإِنَّكَ بَعْدَهُ خَيْرُ الْبَشَرِ!

حيث أتى بحرف الروي (حرف الراء) ساكنا .

ومثل ذلك قوله في قصيدة أخرى : (٢)

بِالْمُسْتَضَى أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ
رَجَعْتُ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى السُّنَنِ

فِي أَرْضِ مِصْرَ دَعَا لَهُ خُطْبَاؤُهَا
وَأَتَتْ لَتَخْطُبَ بِكَرَ خُطْبَتِهِ عَدَنُ

فَالْمَغْرِبُ الْأَقْصَى بِذَلِكَ مَشْرِقُ
وَبِنَصْرِ مِصْرَ مُحَقِّقُ يُمِّنُ الْيَمْنَ

فأتى بحرف الروي (النون) ساكنا .

واستخدم العمداء القافية المؤسسة (٣) من أجل الإيقاع الموسيقي في شعره
ومن ذلك قوله : (٤)

كُنْ عَادِرِي فِي حُبِّهِمْ، لَا عَادِلِي يَا فَارِغًا مِنْ شُغْلِ قَلْبِي الشَّاعِلِ
هَبْ أَنْ سَمِعِي لِلنَّصِيحَةِ قَابِلٌ مَا نَافِعِي، وَالْقَلْبُ لَيْسَ بِقَابِلِ؟
أَخْفَيْتُ سِرَّ الْوَجْدِ خَفِيَّةً عَذْلِي فَتَعَرَّفُوا مِنْ أَدْمُعِي وَمَخَايِلِي

١/ الديوان ، ص ١٥١

٢/ المصدر نفسه ، ص ٤٢٠

٣/ التأسيس : هو ألف هاوية لا يفصلها عن الروي إلا حرف واحد متحرك .

٤/ الديوان ، ص ٣٤٥

ومن أجل الحصول على أكبر نغم موسيقي استخدم القافية المؤسسة
الموصولة بالالف كما في قوله في صلاح الدين حينما عثر فرسه في
الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين : (١)

لا تُكْرَن لِسَابِحٍ عَثَرْتُ بِهِ	قَدَمٌ ، وَقَدْ حَمَلَ الْخُضْمَ الزَّاحِرَا
أَلْقَى عَلَى السُّلْطَانِ طَرْفَكَ طَرَفَهُ	فَهَوَى هُنَاكَ لِلْإِسْلَامِ مُبَادِرَا
سَبَقَ الرِّيحَ بِجَرِيهِ ، وَكَفَفْتَهُ	عَنْهَا ، فَلَيْسَ عَلَى خِلَافِكَ قَادِرَا
ضَعَفْتُ قَوَاهُ إِذْ تَذَكَّرَ أَنَّهُ	فِي السَّرْجِ مِنْكَ يُقَلُّ لَيْثًا خَادِرَا

وكذلك استخدم العماد القوافي المردفة (٢) والمردفة الموصولة
للحصول على النغم الموسيقي ، فمثال المردفة بالالف قوله في فتح القدس
: (٣)

نَصْرٌ أَعَادَ صِلَاحُ الدِّينِ رَوْنَقَهُ	إِجَازُهُ بِبَلِيغِ الْقَوْلِ إِسْهَابُ
أَحْيَا الْهُدَى وَأَمَاتَ الشَّرْكَ صَارْمُهُ	لَقَدْ تَجَلَّى الْهُدَى وَالشَّرْكَ مِنْجَابُ
بِفَتْحِهِ الْقُدْسَ لِلْإِسْلَامِ قَدْ فُتِحَتْ	فِي قَمْعِ طَاغِيَةِ الْإِشْرَاقِ أَبْوَابُ

واستخدم القافية المردفة الموصولة بالهاء المتحركة كما في قوله : (٤)

أَشْتَاقُكُمْ شَوْقَ الظَّمَاءِ إِلَى الْحَيَا	وَأَحْبَبُكُمْ حُبَّ النُّفُوسِ حَيَاتَهَا
عَنْ غَيْرِكُمْ نَفْسِي تُلَازِمُ صَوْمَهَا	وَبَذَكْرُكُمْ أَبَدًا تُدِيمُ صَلَاتَهَا
مَا فَاتَهَا حَظَّ الْأَسَى لِفِرَاقِكُمْ	إِنْ فَاتَهَا مِنْ وَصْلِكُمْ مَا فَاتَهَا

واستخدم كذلك القافية المردفة بالواو كما في قوله يمدح الملك العادل
نور الدين محمود: (٥)

أَسْكَنْنِي الْإِقْبَالَ فِي ظِلِّهِ	وَعَادَ حَظِّي مُورِقَ الْعُودِ
مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي ظِلِّهِ سَاكِنًا	فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَسْعُودِ

١/ الديوان ، ص ١٥٨

٢/ الردف : هو حرف لين ساكن أو حرف مد قبل الروي يتصلان به (ميزان الذهب ، ص ١١٥)

٣/ الديوان ، ص ٧٤

٤/ المصدر نفسه ، ص ٩٩

٥/ المصدر نفسه ، ص ١٣٨

وقال في المردفة بالواو الموصولة بالهاء : (١)

ولو حَفَظْتُ يَوْمَ النُّوَى عَهْدَهَا ما مَطَلْتُ بَوْصَلِكُمْ وُعودها
ما ذا جَنَّتْ قُلُوبُنَا حَتَّى عُدَا في النارِ شَوْقَكُمْ خُلُودها

واستخدم كذلك القافية المردفة بالياء الموصولة بالهاء للحصول على النغم الموسيقي كما في قوله : (٢)

أَصْحَ عَيُونِ الْغَانِيَاتِ مَرِيضُهَا وَأَفْتَكُ الْحَاضِرِ الْحَسَانَ غَضِيضُهَا
تَهْزُ قُدُودَ السُّمْرِ لَلْفَتَكِ سَمْرُهَا وتشهرُ مِنْ أَجْفَانِهَا الْبَيْضَ بَيْضُهَا

لزوم ما لا يلزم :-

يطلق هذا الاصطلاح على القيود التي يلتزمها بعض الشعراء من دون أن تكون الصناعة ملزمة لهم بذلك (٣). ويقول عنه ابن الأثير: (وهو من أشق هذه الصناعة مذهباً ، وأبعدها مسلماً ، وذلك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه) (٤) فقد ألزم العماد نفسه تكرار حرف الدال المكسورة قبل حرف الروي المقيد ، كما في قوله : (٥)

بَانْقِيَادِي لِمَرَادِكْ وَبِصَدْقِي فِي وَدَادِكْ
وَبِسُقْيَاكِ، مِنْ الْحَفِ ظِ، غُهِودِي بَعْدَادِكْ
لَا تُحْمَلْ قَلْبِي الْمَشْ تَقْ أَثْقَالَ بَعَادِكْ
مَاعَلَى الْوَجْدِ فَوَادِي صَابِرًا مِثْلَ فَوَادِكْ

وفي قصيدة أخرى ألزم الشاعر نفسه حرف الزاي الساكن قبل حرف الروي المطلق كما في قوله : (٦)

١/ الديوان ، ص ١٤٣
٢/ المصدر نفسه ، ص ٢٦٩
٣/ المجموع النبهانية في المدائح النبوية : يوسف بن إسماعيل النبهاني ، طبعة دار الفكر بيروت ، د. ت ، ج ٥٠٨/١
٤/ المثل السائر ، ٢٦١/١
٥/ الديوان ، ص ٣٢١
٦/ المصدر نفسه ، ص ٤٠٦

الْحَمْدُ لِلَّهِ فُزْنَا وَلِلْمَظْطِ لِبِ حُزْنِنَا
حُزْنًا السُّرُورَ وَمَاتَ الـ حَسُودٌ غَمًّا وَحُزْنًا
وَعَادَ سَهْلًا مِنَ الْأَ مَرِكْلُ مَا كَانَ حُزْنًا

المبحث الثالث

الموسيقى الداخلية

إذا كان الوزن والقافية هما أساس الموسيقى الخارجية فإن وراء هذه الموسيقى الظاهرة موسيقى خفية تتبع من اختيار الشاعر لكلماته ، وما بينهما من تلازم في الحروف والحركات والكلمات ، وكأن للشاعر آذانا داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة وكل حرف وحركة بوضوح تام ، وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء (١). فالإنسجام الصوتي الداخلي الذي ينبع من التوافق الموسيقي بين الكلمات ودلالاتها حيناً أو بين الكلمات بعضها وبعض حيناً آخريساهم بوضوح في البناء الكلي لموسيقى الشعر (٢).

ومن مظاهر الموسيقى الداخلية عند شاعرنا العماد :

التكرار: -

فالتكرار عنصر موسيقي مهم ، فهو من العناصر التي يقوم عليها رنين البيت بعد الوزن والقافية ، ويستفاد منه في زيادة النغم وتقوية الجرس (٣) والتكرارياتي على نوعين : تكرار لفظي (ويسمى بجرس الألفاظ) وتكرار حرفي (ويسمى بجرس الحروف) .

التكرار اللفظي (أو جرس الألفاظ):-

وهو العناية بحسن الجرس ووقع الألفاظ في السماع ، ومجئ هذا النوع من الشعر يزيد من جمال الموسيقى وذلك لأن الأصوات التي تتكرر في حشو البيت مضافة الي تكرار القافية تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النظم ، مختلفة الألوان يستمتع بها كل من له دراية بهذا الفن (٤).

١/ في النقد الادبي : شوقي ضيف ، ص ٩٧

٢/ قضايا الشعر في النقد الادبي : ابراهيم عبد الرحمن ، بيروت ، دار العودة ، الطبعة الثانية ١٩٨١م ، ص ٣٦

٣/ المرشد ، ١/ ٢٦٨

٤/ موسيقى الشعر ، ص ٥٣

فقد اهتم العماد في اختياره لإلفاظه وحرص على تناسقها وتلازمها
والمجانسة بينها ومن ذلك قوله في رثاء صلاح الدين الأيوبي : (١)

مَنْ لِلْعُلَا مَنْ لِلدَّرِمَنْ لِلْهُدَى	يَحْمِيهِ مَنْ لِلْبَاسِ مَنْ لِلنَّائِلِ ؟
طَلَبَ الْبَقَاءَ لِمُلْكِهِ فِي أَجَلٍ	إِذْ لَمْ يَثِقْ بِبَقَاءِ مُلْكِ الْعَاجِلِ
بَحْرٌ أَعَادَ الْبَرَ بَحْرًا بَرَهُ	وَبَسِيفِهِ فُتِحَتْ بِلَادُ السَّاحِلِ
مَنْ كَانَ أَهْلُ الْحَقِّ فِي أَيَّامِهِ	وَبَعْزُهُ يَرُدُّونَ أَهْلَ الْبَاطِلِ
مَا كُنْتُ اسْتَسْقِي بِغَيْرِكَ وَابِلًا	وَرَأَيْتُ جُودَكَ مُخْجَلًا لِلْوَابِلِ

فالأبيات السابقة تتكرر فيها بعض الألفاظ ، مما يوفر لها انسجاما داخليا وتناسقا في تردد بعض الأصوات المنبعثة عن تكرار لفظة (من) الإستفهامية خمس مرات في البيت الأول ، وكلمة بقاء مرتين في البيت الثاني ، وكلمة بحر مرتين في البيت الثالث ، وكذلك كلمة أهل في البيت الرابع وكلمة وابل في البيت الخامس .

التكرار الحرفي (جرس الحروف) : -

وهي ظاهرة موسيقية تحدث رنيناً موسيقياً داخليا ، وتناغما في حركة الإيقاع الداخلي ، فالعماد يستعمل في تراكيبه كلمات مشتركة في حرف واحد أو حرفين مستغلا موسيقى الحروف ليكسب شعره نغما حلوا وإيقاعا مميزا ، كما في قوله : (٢)

أَغْتَدِي لِلْهُوَى سَلِيْبًا سَلِيْمًا	وَهُوَ سَالٍ مِنَ الصَّبِّ لَبِيَّةٍ سَالِمٍ
سَاحِرٌ طَرْفُهُ وَسَاحٍ ، وَإِنِّي	لَتَنْمِيهِ سَاهِرُ الطَّرْفِ سَاجِمٌ

فالعماد قد كرر حرف السين ثمانين مرات ، تكرر في البيت الأول أربع مرات وفي البيت الثاني مثلها ، والسين من حروف الصفير فتحدث عند النطق بها صفير عالي ، فتزيد من النغم الموسيقي في القصيدة .

وفي قصيدة أخرى يكرر حرف الميم ست مرات ، وكرر حرف السين

١/ الديوان ، ص ٣٤٠

٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٦٤

أربع مرات مما يكسب شعره إيقاعا موسيقيا داخليا حلوا كما في قوله: (١)

مَنْ مَحَا سُنَّةَ الْمَحَاسِنِ بِالْشَّـرِّ رَوَّما زَالَ لِلْمَسَاوِي مُسَاوِمٌ

■ السجع :

هو اتفاق الفواصل في الحرف ، أو في الوزن أو فيهما معا (٢) . وحينما يكون السجع في الشعر يسمى بالمشطر (٣) ، ويسميه صاحب الصناعتين الترصيع (٤)، وهو أن يكون حشو البيت مسجوعا مثل قول العماد في رثاء نور الدين محمود: (٥)

مَسْعُودَةٌ غَدَوَاتُهُ ، مَحْمُودَةٌ رُوحَاتُهُ ، مِيمُونَةٌ ضَحَوَاتُهُ

وكذلك قوله في مدحه تقي الدين عمر : (٦)

مَخَوْفُ السُّطَا ، صَعْبُ الْإِبَا حَسَنُ الثَّنَا

مَرْجِي النَّدَى سَهْلُ الرِّضَا طَيْبُ النَّثَا

■ الجناس :

وهو من ألوان البديع التي اهتم بها شاعرنا العماد ، لما له من علاقة وطيدة بموسيقى الألفاظ إذ إن الجناس قائم على التشابه في الصوت والوزن (٧) ، والجناس هو تماثل الكلمتين في اللفظ والخط والحركة ، واختلافهما في المعنى (٨).

١/ الديوان ، ص ٣٧٠

٢/ فن البديع : عبد القادر حسين ، الطبعة الاولى ، دار الشروق ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ص ١٢٧

٣/ موسيقى الشعر ، ص ٥٦

٤/ الصناعتين ، ص ٤١٦

٥/ الديوان ، ص ٨٧

٦/ المصدر نفسه ، ص ١٠٠

٧/ المرشد ٢/٦٦٣

٨/ العمدة ١/٣٣

ومن ذلك قوله في وصف الزلزلة : (١)

والأعادي جرى عليهم من التد ميرما قد جرى على
قوم عادٍ

فجانس بين كلمتي الأعادي وعاد

وقوله أيضا في مدح صلاح الدين الأيوبي : (٢)

ملك تملك جدّه من جدّه فالمجد مجد والمراح مراحه (٣)

فجانس بين جدّه وجده والمراح ومراحه ، فتكرر ألفاظ بعينها مع اختلاف الحركات يسهم في تغيير النغمة الإيقاعية ، فتلذ الأذان بهذا النوع من الموسيقى .

الطباق :-

وهو الجمع بين الشئ وضده ، فقد أكثر شاعرنا العماد من استخدامه للطباق لا سيما طباق الإيجاب ، مثل قوله في مدح صلاح الدين الأيوبي :
(٤)

إن أظلمت سُدفَةٌ أنرتَ لها أبهى ليالي البدور مُسدِفُها

فطابق بين أظلمت وأنرت أي جمع بين الظلام والضوء .
ومثل ذلك قوله : (٥)

إشراق غرة وجهه في صدغه يُبدي لك الإصباح في إمسائه ٠

١/ الديوان ، ص ١٢٦

٢/ المصدر نفسه ، ص ١١٢

٣/ الجد : الحظ ، المراح الاولى : مكان الرواح وزمانه ، والثانية المرح .

٤/ الديوان ، ص ٣١٠

٥/ المصدر نفسه ، ص ٦٧

حيث طابق بين الصباح والمساء.

ويكثر العماد من استخدامه للطباق ومن ذلك قوله : (١)

تَقِيْمُ فَحِيْنَ تَبْصُرُ مِنْ اَنَاتِي ثَبَاتَ الطَّوْدِ تَسْرَعُ فِي الْفَرَارِ

حيث جمع بين الثبات والفرار

ويتعانق الجناس والطباق في كثير من شعر العماد ، ومن ذلك قوله : (٢)

نَجُو الْبِلَادَ مِنَ الْبَلَاءِ بَعْدَكُمْ فَالْظُّلْمُ بَادٍ فِي الْجَمِيعِ صُرَاخُهُ

ففي البلاد والبلاء جناس غير تام ، وفي عدلكم والظلم طباق إيجاب .
وفي قوله كذلك : (٣)

إِذْ كُلُّ هَاتِفَةٍ وَهَاتِنَةٍ مَشْغُولَةٌ بِالسَّجْعِ وَالسَّجْمِ
فَالْوُرُقُ فِي نَوْحٍ وَفِي طَرْبٍ وَالْوَجْدُ فِي بَوَّاحٍ وَفِي كَتَمٍ

فجانس بين هاتفة وهاتنة ، والسجع والسجم في البيت الأول وجانس بين
بوح ونوح في البيت الثاني واستخدم طباق الإيجاب بين نوح وطرب
وبوح وكتم في البيت الثاني .

المقابلة: -

ومن ظواهر الموسيقى الداخلية التي استخدمها الشاعر المقابلة
وهي:

١/ الديوان ، ص ١٩٦

٢/ المصدر نفسه ، ص ١١٢

٣/ المصدر نفسه ، ص ٤٠١

(إيراد الكلام ثم مقابله بمثله في المعنى أو اللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة) (١). ومن ذلك قول العماد: (٢)

قَدْ عَاشَ فِي الْعِزَّةِ الْقَعَسَاءِ حَامِدُهُ وَمَاتَ جَا حِدُهُ مِنْ ذِلَّةٍ قَعَصَا

فقابل بين عاش ومات ، والعز والذل

ومنها قوله أيضا : (٣)

بِالْجُودِ لِلْمُعْتَفَى حُلُو الْجَنَى سَلْسَاً بِالْبَأْسِ لِلْمُعْتَدِي مُرَ الْإِبَا عَفَصَا

فقابل بين الجود والبأس ، والمعتفي والمعتدي ، وحلو ومر ، والجنى والإباء ، وسلسا وعفصا .

رد العجز على الصدر : -

وسماه المتأخرون التصدير ، وقسمه أبو هلال العسكري إلى ثلاثة أقسام ، فمنه ما يوافق آخر كلمة في البيت آخر كلمة في النصف الأول ، ومنه ما يكون في حشو الكلام ، ومنه ما يقع في حشو النصفين . (٤) وقد استفاد العماد من رد العجز على الصدر في موسيقى شعره الداخلية ، بأشكاله المتعددة ، منها ما يوافق آخر كلمة في البيت آخر كلمة في النصف الأول مثل قوله : (٥)

طَرَدَتْهُمْ فِي الْمُلْتَقَى وَعَكَسَتْهُمْ مُجِيداً بِحُكْمِ الْعَزْمِ طَرْدُكَ وَالْعَكْسَا

ومنها ما يكون في حشو الكلام ، مثل قول العماد : (٦)

زَمُوا فَوَادِي وَصَبْرِي وَالْكَرَى مَعَهُمْ غَدَاةً بَانُوا وَزَمُوا لِلنَّوَى الْقَلَصَا

١/ الصناعتين ، ص ٣٣٧

٢/ الديوان ، ص ٢٥٣

٣/ المصدر نفسه ، ص ٢٥٣

٤/ الصناعتين ، ص ٤٢٩

٥/ الديوان ، ص ٢٣٤

٦/ المصدر نفسه ، ص ٢٤٩

وقوله أيضا : (١)

وطَهَرْتَهُ مِنْ رَجْسِهِمْ بِدِمَائِهِمْ فَأَذْهَبْتَ بِالرَّجْسِ الَّذِي ذَهَبَ الرَّجْسَا

التدوير :-

وقد أكثر العماد من استخدام التدوير في شعره من أجل النغم الموسيقي ، والبيت المدور (هو الذي اشترك شطراه في كلمة واحدة ، بأن يكون بعضها في الشطر الأول وبعضها في الشطر الثاني) (٢) . ومن ذلك قول العماد : (٣)

وَمَنْ كَفَّهُ دِيمَةً مَا تَزَا لُ بِالْعَرَفِ هَامِيَةً هَامَعُهُ

ويكثر العماد من استخدامه حتى في القصيدة الواحدة ، ويأتي به متتابعاً أو مفارقاً كما في قوله : (٤)

مُبْتَغَى قَلْبِي الْمَشُوق بِبَغْدَا	د، وجسمي نائي المحل بجاسم
لَيْتَ شِعْرِي مَتَى يُبَشِّرُ عَنِي	أصدقائي فيها بأنني قادم
مَا لَشَمْلِي بِهَا سِوَى أَمْرِ مُؤَلَا	ي عماد الدين المملوك ناظم
وَاحِدُ الْعَصْرِ، ثَالِثُ الشَّمْسِ وَالْبَد	ر وثاني الحيا بغير مُزاحم
إِنْ يَكُنْ مَانِحاً الْمَرَا حِمَالِجُو	د فبالباس مانع للمحارم

وقد استفاد العماد من التنوين في بعض قصائده بقصد الترتم ، كما في قوله : (٥)

١/ الديوان ، ص ٢٣٢
٢/ قضايا الشعر المعاصر : نازك الملائكة ، منشورات مكتبة النهضة ، الطبعة الأولى ١٩٦٢م ، ص ٩١
٣/ المصدر نفسه ، ٢٩٣
٤/ المصدر نفسه ، ص ٣٦٧
٥/ المصدر نفسه ، ص ٣٦٨

طلعةٌ طُلُقَةٌ ، وِبَاعٌ طَوِيلٌ وَيَدٌ بَسْطَةٌ ، وَثَغْرٌ بِاسْمٍ
وَعَطَايَا غُزْرٌ ، وَغُرَايَادٌ وَسَجَايَا زُهْرٌ ، وَبَيْضٌ عَزَائِمٌ

وقد استخدم العماد في هذين البيتين كذلك التقسيم كسمة من سمات الموسيقى الداخلية (وهو تجزئة الوزن إلى مواقف يسكن عندها المرء أثناء التأدية للفظ البيت ، أو يستريح قليلا) (١).

من كل ما تقدم يتضح أن شاعرنا العماد استطاع أن يستغل كل مقومات الموسيقى الداخلية لتسهم في البناء الكلي لموسيقى شعره .

١/ موسيقى الشعر : إبراهيم أنيس ، ٥٦

الفصل الثاني

التصوير البياني

لعل ما يميز الشعر من غيره من ألوان الفنون الأخرى هو التصوير ، فالصورة لها أهمية بالغة في أي عمل أدبي عامة وفي الشعر بصفة خاصة ، فهي التي تبعث الحياة في القصيدة وتبث فيها الحيوية وتكسيها الجمال وتثير في سامعها وقارئها من الأحاسيس والعواطف ما يسمو به إلى الذرى .

وقد اهتم النقاد والبلاغيون بدراسة الصورة وتحليلها ، وحفل الشعر العربي بها فلا تخلو قصيدة شعرية منها ، وذهب الجاحظ إلى أن الشعر: (صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير) (١) ، فالشعر عند الجاحظ ضرب من التصوير، أما عند الجرجاني فهو تصوير كله ، فيقول : (إن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وإن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار . .) (٢) .

والصورة في النقد الحديث تعني (الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشعراء في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة مستخدماً طاقات اللغة وأمكاناتها في الدلالة والتراكيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفني) (٣) .

فقد زخر أدبنا العربي بالصورة البيانية في كل جوانبها على مر العصور ، ففي العصر الجاهلي تطالعتنا الصورة التشبيهية عند إمريئ القيس في كل إنتاجه الفني حتى وصف بأنه (أحسن طبقة تشبيهها ، ووصف ذو الرمة بأنه أحسن الإسلاميين تشبيهها ، أما في العصر

١/ الحيوان : الجاحظ ، ١٣٢/٣

٢/ دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن الجرجاني) تصحيح محمد رشيد رضا ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، الطبعة السادسة ، ١٩٦٠م ، ص ١٧٠

٣/ الإتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر : عبدالقادر القط ، دار النهضة العربية - بيروت ، ١٩٨٣م ، ص ٤٣٥

العباسي فقد تميزت الصورة الشعرية بالطرفة والرشاقة والتركيب والعمق (١) .

(وفي ظل المواجهة بين المسلمين والصليبيين أخذ الشعراء يتمثلون التراث الشعري القديم من ناحية الصور والتشبيهات والاستعارات ، وظلت الصورة القديمة تستحوذ عليهم وتجذبهم فينهلون من مواردها ويقتطفون من معينها) (٢) .

وإذا نظرنا في ديوان العماد نجده قد استمد كثيرا من صورته من التراث الشعري الموروث وإن إبتكر في بعضها .
ومن الصور التقليدية في شعر العماد صورة الجيش المنصور يتبعه الطير أينما سار طمعا في أن ينال من لحوم أعدائه ، فتزاحم الطير الذي يتبع الجيش الإسلامي في عنان السماء عند العماد يجعل هذه النسور تتدافع فيصدم بعضها بعضا ، فيقول : (٣)

تزاحم فرسانها الضاريات فيصدم فيها النسور النسور

ومن الصور القديمة صورة الجيش المحارب الكثير العدد وتشبيهه بالموج في كثرته وقوة اندفاعه ، فيقول العماد : (٤)

زخرت بهم أمواج أجك في الوغي
غزراً وطم بها عباب طمان

ومن الصور القديمة في شعر العماد صورة جيش العدو وتشبيهه بالسيول في كثرته وقوة إندفاعه ، فيقول واصفا الجيوش الصليبية : (٥)

وجروا جيوشاً كالسيول على الصوى

فاضت غثاء في البطاح ممددا

١ / التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفني : د. عبد الفتاح عثمان ، مكتبة الشباب ، ١٩٩٣ م ،

ص ٨٣

٢ الشعر الشامي ، ٢٧١/١ ،

٣ / الديوان ، ص ١٩٢

٤ / المصدر نفسه ، ص ٤١٤

٥ / الشعر الشامي ، ٣٣٠ / ١

فهو يصف جيوش الأعداء الصليبيين ، فعلى الرغم من كثرتهم العددية واندفاعهم القوي لمقاتلة المسلمين ، إلا أنهم كانوا غثاء وزبدا يتطاير أمام الصمود الإسلامي والمجاهدين المسلمين فلم تغن عنهم كثرتهم شيئاً .
ويرسم صورة تشبيهية أخرى لهذه الجيوش القوية الكثيرة العدد ويشبهاها في قوتها وثباتها بالجمال قائلاً : (١)

أتوا كالجمال أبرمت لإرسالنا فسقتاهم فيها قطيناً مُجدداً

واستمد العماد بعض صورته من التراث العربي ومن ثقافة عصره ومظاهرها فجاءت مزيجاً من الاثنين معا مثل قوله : (٢)

**أوردت مصرَ خيولَ النصرِ عارمةً
ثني الأعنة إقداماً على اللُجْمِ
تمكنَ الرعبُ في قلبِ العدوِ بها
تمكنَ النارُ بالإحراقِ في الفحمِ**

فهو يصف خيول صلاح الدين وسرعتها في الغارة على الأعداء فمجرد أن يروها يسري الرعب في نفوسهم ، ويتمكن منهم كما تتمكن النار بالإحراق في الفحم .

ولما كان الغزاة الصليبيون يستهدفون الدين الإسلامي والمقدسات الإسلامية ، فقد ربط العماد النصر الذي يحرزه المسلمون على الصليبيين بالنصر الذي أحرزه المسلمون على المشركين في عهد النبوة ، فيقول حينما فتح صلاح الدين القدس : (٣)

بفتحِ القدسَ للإسلامِ قد فتحتُ ففي موافقةِ البيتِ المقدسِ للـ والصخرِ والحجرِ الملتومِ جانبهُ نفى من القدسِ صلباناً كما نفيتُ	في قمعِ طاغيةِ الإشراكِ أبوابُ بيتِ الحوامِ لنا تيةً وإعجابُ كلاهما لإعتمادِ الخلقِ محرابُ من بيتِ مكةَ أزالاً وأنصابُ
--	---

١/ الشعر الشامي ، ١ / ٣٣٠

٢/ الديوان ، ص ٣٨١

٣/ المصدر نفسه، ص ٧٥

وربط العماد أحداث عصره في صورهِ بالتراث الإسلامي قائلا : (١)

آية أثرت ذوي الشرك بالهتد
والأعادي جرى عليهم من التد
ولقد حاربوا القضاء فأمضى
ك وأهل الإيمان بالإرشاد
مير ما قد جرب على قوم عاد
حكمه فيهم بغير جلال

فقد صور الهلاك والتدمير الذي حدث لهؤلاء الفرنج من جراء الزلزلة التي حدثت سنة ٥٦٥ هـ وشبهه بالهلاك والدمار الذي وقع للامم الأخرى التي كذبت الرسل (قوم عاد) .

وكثيرا ما صور العماد أحداث عصره الحربية ، ومن ذلك هذه اللوحة الفنية الرائعة التي تصور مقتل أورناط عشية موقعة حطين ، فتعج بالحركة والحياة وتنقل القارئ إلى ميدان المعركة ليرى بعينه مجرى الأحداث ومناظر القتال قائلا : (٢)

رأيت فيهم عظيم الكفر مُحترقاً
مُغفراً خده والأنف قد تَعَسَا
ياظهر سيفٍ برى رأس البرنس فقد
أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص إذ طار ذاك الرأس في دمه
كأنه ضفدع في الماء قد غطسا
ما زال يعطس مزكوماً بغدرته
والقتل تسميت من بالغدر قد عطسا

فهو يصور في البيت الأول ما قد آل إليه هذا القائد المغرور من ذل وإحتقار، ثم يصور لنا مشهد قتله على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي ، فإذا بسيف الحق يستل فيقذف برأس الطاغية بعيدا عن جسمه .
وتشبيه المقاتل الشجاع بالأسد صورة مألوفة في الشعر العربي القديم ، أخذها العماد وأضاف إليها أبعادا جديدة ، فانظر إليه يقول في مدح صلاح الدين الأيوبي : (٣)

١ / الديوان ، ص ١٢٦

٢ / المصدر نفسه ، ص ٢٢٩

٣ / الشعر الشامي ، ١ / ٢٧٧

أهوى إليهم صلاح الدين مُفترساً وهو الغضنفرُ أعدى ظفره الظفر
أملى عليهم فصاروا وسط كفه كسرب طير حواها القاتصُ الذكر

فقد رسم صورة لصلاح الدين وقد لازمه النصر والفوز ، فلا يدخل معركة إلا كان النصر حليفه ، وإذا خرج على أعدائه أحاط بهم الخوف والرعب كسرب من الطير أحاط بهم أحد الجوارح الفاتكة .

ومن الصور القديمة في شعر العماد أيضا صورة المرأة ، فقد ربط معالم جمالها بمظاهر الطبيعة ، فشبه قدها بالغصن المياد ، وجهها بالشمس ورشاقتها بخفة الغزال ، ومن ذلك قوله : (١)

وجنتها الوردية في إحمراها
وقدّها البانة في اهتزازها
شمس الضحى في الحسن لم تضاهيها
بدر الدجى في التم لم يوازها

ومن الصور القديمة في شعر العماد صورة الخمر ومجالسها ودنانها وسقاتها ، فهي لا يشربها إلا الكرماء وأفاضل الناس ، ويشربونها بكرا ، يقول العماد : (٢)

وتملها غراء جامعة لكم
في النعت بين تمدح وتمده
يهتز ذوالحسن لجلوة حسنها
وتجل عن تحسين كل مزهزه
أفواه أهل الفضل ناطقة لها
بالفضل إن قيسَتْ بشعر الأفوه
صهباء تودع سامعيها نشوة
وتعير عارف المسك للمستنكه

وقد استمد العماد بعض صورهِ من الطبيعة ومن البيئة المحيطة به ومن ذلك قوله في وصف ثمرة المشمش : (٣)

١/ الديوان ، ص ٢٢٥

٢/ المصدر نفسه ، ص ٤٥٤

٣/ المصدر نفسه ، ص ٣٣٠

حُلِيَّ تَبَرٍّ عَلَى عَرَائِسَ أَغْدٍ صَانٍ تَشْكُتُ مِنْ قَبْلِهَا عَطَلَا

فقد صور هذه الثمرة الحمراء وهي معلقة على أغصان شجرتها قبل أن تقطع ، فيشبهها بالذهب المعلق بأعناق العرائس فيزيدهن جمالا وحسنا . واستمد العماد بعض صوره من ملاحظاته الدقيقة في الطبيعة ، فيقول : (١)

كالماء : بَانَ الظِّلُّ مَعْكُوساً بِهِ فَبَدَتْ مَكَانَ الرُّؤْسِ مِنْهُ أَخَامِصُ

فيصور إنعكاس الصورة في الماء .

ومن الصور التي استقاها من مظاهر عصره صورة تصدع الزجاج حين اصطدامه ، فيقول العماد في مدح الخليفة المستنجد : (٢)

أَمَّا الطَّغَاةُ فَقَدْ وَسَمَتْهُمْ وَوَصَمَتْهُمْ بِالذُّلِّ وَالرُّغْمِ
بَيْنَ الزَّجَاجِ تَصَدَّعُوا شُعْباً صَدَّعَ الزَّجَاجَ لَوْ قَعَةَ الصِّدْمِ

وقد ابتكر العماد صورة جديدة في شعره ، ومن ذلك قوله : (٤)

وَالْحَمَائِمُ فِي الْأَسْحَارِ أَدْعِيَةٌ
مَرْفُوعَةٌ شُفِعَتْ مِنْهَا بِتَأْمِينِ
خَافَتْ عَلَى الرُّوْضِ مِنْ عَيْنِ مِطْوَقَةٍ
أَضَحَّتْ تَعُوذُهُ مِنْهَا بِيَاسِينِ

فصور هذه الحمائم وهي خائفة على الروض من الحسد (من عين المطوقة) فتعوذه منها بسورة يس . وتتكرر هذه الصورة الجديدة المبتكرة في شعره ، ومن ذلك قوله : (٥)

وَرَقُّهَا فِي مَنَابِرِ الْأَيْكِ مِنْهَا وَاعْظَاتٌ مِنْ شَأْنِهَا التَّذْكِيرُ

١/ الديوان ، ص ٢٥٧

٢/ المصدر نفسه ، ص ٤٠٠

٣/ الزجاج الأولى (بكسر الزاي) جمع الزجاج وهي الحديد التي أسفل الرمح

٤/ الديوان ، ص ٤٣٣

٥/ المصدر نفسه ، ص ١٧٩

فيشبهه حمائم هذه الروض وهي على الأشجار وشجو صوتها كأنها وعاظ
على المنابر تعظ للتذكير .
فمما سبق نلاحظ أن صور العماد بسيطة ليس فيها غموض ولا تعقيد ،
ولا تحتاج إلى عمق تفكير ، والخيال فيها ليس ببعيد عن الحقائق ويشرك
الخيال عنده بصدق العاطفة وحرارة المشاعر ، ويعتمد في صوره على
التشبيه والاستعاره والكناية وهي أهم مباحث علم البيان التي سنتناولها
بالتفصيل .

المبحث الأول :

التشبيه

التشبيه عنصر مهم من عناصر التصوير، لا تنأى الإجادة فيه إلا لمن توافرت له أدواته من لفظ ومعنى وصياغة وسمو خيال ورهافة حس .
(والتشبيه هو مشاركة أمر لآخر في معنى) (١) (والتشبيه يزيد المعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً ، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ولم يستغن أحد منهم عنه) (٢)
حفل ديوان العماد بالصور التشبيهية التي استمدتها من التراث ومن مشاهد الحياة التي ألفها ورآها في بيئته ، ومن ذلك قوله : (٣)

وأنتَ البحرُ في بثِّ العطايا وأنتَ الطودُ في بادئِ الوقارِ

فيشبه الممدوح بالبحر في الجود والكرم ، وبالجبل في الرزانة والحلم ، وهي من الصور القديمة في الشعر العربي .
وفي قصيدة أخرى يشبه العماد ممدوحه في جوده وكرمه بالمطر (الحيا) ، وفي علو المكانة والرفعة بالشمس والبدر ، وهي أيضاً من الصور القديمة في الشعر العربي فيقول : (٤)

واحدُ العصرِ ثالثُ الشمسِ والبدر رِوثاني الحيا بغيرِ مُزاحمٍ

١/ الإيضاح في علوم البلاغة : القزويني ، ص ٢٤٨

٢/ الصناعتين ، ص ٢٦٥

٣/ الروضتين ، ١/ ٧١٣

٤/ الديوان ، ص ٣٦٧

ومن الصور التشبيهية التي استقاها من بيئته صورة البساتين تتوسطها
جداول المياه فيقول العماد : (١)

وللبساتين أنهارٌ جداولُها تستنُّ في الجري أمثالَ الثعابينِ

فقد شبه جداول المياه المتعرجة وسط هذه البساتين بالثعابين المتحركة .
ومن الصور التي استمدها العماد من بيئته أيضا تشبيه الريح المنطلقة
نحو صدور الأعداء بالثعابين الجارية فيقول : (٢)

كَانَ لِدَانٍ سُمْرُهُمْ أَفَاعٌ تَصْرِفُهَا الْقَسَاوِرُ فِي الْعَرِينِ

ويتخذ العماد صورته من الطبيعة قائلا : (٣)

تَأْلَقُ بَرْقٌ مِنْ تَهَامَةٍ لَامِعٍ يُبَشِّرُ أَنَّ اللَّهَ لِلشَّمْلِ جَامِعٌ
يَحَاكِي خَفَوقَ الْقَلْبِ مِنْ خَفَوقِهِ فَهَلْ رَاعَهُ مِثْلِي مِنَ الْبَيْنِ رَائِعٌ

وقد يكثر العماد من صورته التشبيهية في القصيدة الواحدة حتى لا يكاد
يخلو بيت من التشبيه ، ومن ذلك قوله في وصف البساتين : (٤)

وقد تَرَأَتْ بِهَا الْأَشْجَارُ تَحْسُبُهَا صَفُوفَ خَيْلٍ صَفُونٍ فِي الْمِيَادِينِ
وَالْخِلَافَ لِإِظْهَارِ الْخِلَافِ عَلَى أَتْرَابِهِ وَرَقٌّ شَبَهُ السَّكَاكِينِ
وَكُلُّ غُصْنٍ بِعَصْفِ الرِّيحِ مُمْتَحِنٌ كَأَنَّهُ عَاقِلٌ مُبْلَى بِمَجْنُونِ
لِلْأَقْحَوَانِ تَغُورُ الْغَانِيَاتِ كَمَا لِلنَّرْجِسِ الْغُضِّ الْحَاطِ أَلَمَهَا الْعَيْنِ
وَالْبِنَفْسِ خَالَ الْعِذَارِ إِذَا مَا الْخَطُّ بِالْخَالِ حَاكِي عَطْفَةِ النُّونِ
وَالْوَرْدُ خَذُّ مِنْهُ لِتَوْرِيدِهِ فِي خَجَلٍ وَالْغُصْنُ قَدْ تَتْنِيهِ مِنْ اللَّيْنِ
وَالنَّسِيمِ وَلَوْعٌ بِالْغَدِيرِ فَمَا يَزَالُ مَا بَيْنَ تَفْرِيكِ وَتَغْصِينِ

فقد استعان العماد في إبراز صورته التشبيهية في هذه القصيدة بكثير من
أدوات التشبيه ، فقد استخدم في البيت الأول أداة التشبيه (تحسب) وهي

١/ الديوان ، ص ٤٣٣

٢/ المصدر نفسه ، ص ٤٢٧

٣/ المصدر نفسه ، ص ٢٨٩

٤/ المصدر نفسه ، ص ٤٢٧

فعل ، وفي البيت الثاني استخدم أداة التشبيه (شبه) وهي فعل أيضا ، وفي البيت الثالث استخدم أداة التشبيه (كأن) وهي حرف ، أما في البيت الرابع فاستخدم التشبيه البليغ ، وفي البيت الخامس استخدم أداة التشبيه (حاكى) وهي فعل وفي البيت السادس استخدم التشبيه البليغ .

فقد أعجب العماد بالرياض المنتشرة في عصره ، وشكلت صورته التشبيهية التي استمدتها من الرياض أعلى نسبة في شعره ، ومن ذلك قوله : (١)

وكتيبةٌ مثل الرياض كأنما	راياتها منشورةٌ أزهارُ
وكأنما خُضرُ البيارق للقتا	ورقٌ وهاماتُ العداة ثمارُ
وكمائمُ الأعماد عن زهرِ الظبي	فتقت فكل صقلية نوارُ
وعلى شعاعِ الشمس لمع حديدُها	يبدو كما يعلو اللجين نزارُ

فالعماد يصف لنا هذه الكتيبة من الجيش ، راياتها منشورة وبيارقها خضراء ، هذه الجيوش كثيرة العدد ووافرة العتاد من السيوف والرماح ، فأطلق العماد لخياله العنان ليصورها لنا في تشبيهات بعيدة عن ميدان القتال وينقلنا بخياله إلى روضة غناء .

ويبدو أن معين العماد الرياض والمروج ينتج منه صورته الحربية ويعرضها للمشاهدين ، ومن ذلك قوله يصف جيش صلاح الدين : (٢)

لله جيشٌ بالمروجِ عرضتهُ	أسدُ العرينِ رجالهُ ورماحهُ
ومن الحديدِ سوابغاً أبدائهُ	ومن المضاءِ عزائماً أرواحهُ
روضٌ من الصُفرِ البنودِ وحمرها	والبيض يُزهي وردُه وأقاحهُ

وقد يكثر العماد من تشبيهاته حتى في البيت الواحد ، وكثيرا ما يلجأ إلى توالي التشبيهات للمشبه الواحد ، ومن ذلك قوله في مدح الخلفاء العباسيين : (٣)

كشموس الضحى كمثل بدور الـ تم كالسحب كالنجوم الزهرـ

١/ الديوان ، ص ١٦٤
٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٩

ويقول في قصيدة أخرى مدح بها عماد الدين بن رئيس الرؤساء : (١)

كالشمس في آرائه كالغيث في آلائه كالصبح في لآلائه

وأكثر العماد من التشبيه البليغ في شعره ، ومن ذلك قوله : (٢)

راحة أم سحابة وبنان أم غمام وأنحل أم بحور؟

ويقول أيضا : (٣)

هو الشمس أفلاكه في البلاد ومطلعه سرجه والسرير

وقوله أيضا : (٤)

جنودك أملاك السماء وظنهم عداتك جن الأرض في الفتك لا الإنسا

وفي صورة تشبيهية بليغة يرسم العماد صورة انتصار القائد شيركوة على الإفرنج حينما فتح مصر ، فيقول : (٥)

وسال بحر نجيع في مقام وغي به الحديد غمام والدم المطر
أنهرت منهم دماء بالصعيد جرى منها إلى النيل في واديهم نهر

فهو يصور المعركة وما استخدم فيها من كثرة سلاح، ويبالغ في وصفها ويقول انها حجبت أشعة الشمس ، وصور شدة الضرب والطعن الذي تتطاير منه الدماء كأنها مطر ويبالغ في وصف غزارة هذه الدماء وكثرتها حتى سالت نهرا .

١/ المصدر نفسه، ص ٧٠

٢/ المصدر نفسه ، ص ١٨٠

٣/ الديوان ، ص ١٩٠

٤/ المصدر نفسه ، ص ٢٣١

٥/ المصدر نفسه ، ص ١٧١

وقد أكثر العماد من استخدامه لتشبيه التمثيل ، ومن ذلك قوله : (١)

وليلي من طول ما أشتكى كليل الدليغ من الحربش (٢)

فهو في بعاد أحبته وأصدقائه يصور ما ينتابه من آلام الجوى ونار الفراق وكثرة الأرق ، ويشبه حاله هذه بحال شخص لدغته أفعى كبيرة في تجرع مرارة الآلام والسهر .

ويقول أيضا : (٣)

تفادُ بدأماءِ الدماءِ ملوكهم أسارى كسفنِ اليمِ نطتُ بها القلسا (٤)

يصور العماد اسرى حطين وهم يشقون طريقهم إلى خيمة السلطان صلاح الدين الأيوبي وسط برك الدماء ، ويشبههم بسفن مثقلة تشق طريقها وسط عباب البحر .

وفي صورة تشبيهية أخرى يصور العماد سرعة خيول المجاهدين وشجاعة من عليها ، فتثير الرعب في قلوب الأعداء الصليبيين مجرد أن يروها وتضعف قواهم ، فتسحقهم هذه الجيوش الإسلامية وتتمكن منهم ، فيشبه صورتهم هذه بصورة تمكن النار بالإحراق في الفحم ، فيقول : (٥)

تمكنَ الرعبُ في قلبِ العدوِ بها تمكنَ النارُ بالإحراقِ في الفحمِ

وتتكرر هذه الصورة عنده في قصيدة أخرى ، فيقول : (٦)

**وأنتَ مَنْ وقعتَ في الكفرِ هيبته وفي ذويه وقوعَ النارِ في الحطبِ
وحين سرتَ إلى الكفارِ فانهزموا نصرتَ نصرَ رسولِ اللهِ بالرعبِ**

١/ الديوان ، ص ٢٤٦

٢/ الحربش : الأفعى الكبيرة

٣/ الديوان ، ص ٢٣٥

٤/ / الدأماء : البحر ، نط : شد ، القلس : الحبل الضخم

٥/ الديوان ، ص ٣٨١

٦/ المصدر نفسه ، ص ٨١

فالعماد يشبه صورة هيئة القائد أسد الدين شيركوه والمسلمين في نفوس أعدائهم الكفار الصليبيين ، فقد فزعوا وهرعوا من قوة المسلمين وبأسهم – حين فتح مصر – فاصبحوا كالحطب أمام النار لا حول ولا قوة لهم أمام قوة المسلمين وجبروتهم .
واستخدم العماد كذلك التشبيه الضمني في صورته التشبيهية ومن ذلك قوله في وصف ثمرة المشمش : (١)

حُلِيْ تَبَرٍ عَلَى عَرَائِسَ أَغْدٍ صَانٍ تَشَكَّتْ مِنْ قَبْلِهَا عُطْلَا

فيشبه هذه الثمرة الحمراء المعلقة على أغصانها قبل أن تقطع بالذهب المعلق بأعناق العرائس فيزيدهن جمالا وحسنا على جمالهن .

المبحث الثاني

الاستعارة

الاستعارة ضرب من المجاز يقوم على نقل العبارة مما وضعت له إلى شيء آخر لا يطابقه ، ويعرفها أبو هلال العسكري بأنها : (نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة الى غيره لغرض) (١) ، ويعتبرها ابن رشيق القيرواني أفضل المجاز فقال عنها : (الاستعارة أفضل المجاز .. وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها) (٢) .

وإذا نظرنا في ديوان العماد نرى أن شعره قد حفل بكل أنواع الاستعارات من تصريحية ومكنية ، ونلاحظ أن الاستعارة المكنية كانت الأكثر ورودا في شعره وذلك لما تتسم به من خاصيتي التشخيص والتجسيم .

الاستعارة المكنية :

اهتم العماد بالاستعارة المكنية إهتماما بالغا ، وبنى عليها مجموعة من صوره ، لما لها من قدرة على الإيحاء والتصوير متمثلة في التشخيص والتجسيم ، وذلك بخلع مظاهر الحياة على الجمادات ، وتجسيم مظاهر الوجد والشوق وإبرازها في صورة المحسوسات ، مما يترك أثرا على النفس البشرية لتتجاوب معها ، ويتجلى ذلك في قوله : (٣)

كم بكتُ أعيُنُ الليالي فعاتتُ وهي اليومَ ضاحكاتُ المباسمُ

فقد شخص الليالي وجعلها تبكي مرة ، وتضحك مرة أخرى

١/ الصناعتين ، ص ٢٩٥

٢/ العمدة ، ١/ ٢٦٨

٣/ الديوان ، ص ٣٦٩

ويقول أيضا : (١)

بَكَتُ الصَّوَارِمُ وَالصَّوَاهِلُ إِذْ خَلَتْ
مِنْ سَلِّهَا وَرَكُوبِهَا غَزَوَاتُهُ

فقد شخص الصوارم وجعلها تبكي .

ويستمد العماد كثيرا من صورهِ الاستعارية من الطبيعة قائلا : (٢)

وَإِذْ تَكْتُبُ الْأَنْدَاءُ فِي شَجَرَاتِهِ وَأوراقِهَا إِمْلَاءَ وَرَقِ طَيُورِهِ

فقد شخص هذه الأنداء وجعلها تكتب ، وجعل الطيور تملي .

ويقول أيضا في وصف روضة غناء : (٣)

لَهَا مِنْ ثُغُورِ الْأَقْحَوَانِ تَبَسُّمٌ وَتَنْظَرُ مِنْ أَحْدَاقِ نَرْجِسِهَا النَّجْلُ

فقد شخص أزهار الأقحوان وجعلها تبسم ، وجعل النرجس ينظر

ويقول أيضا : (٤)

وَلِللَّوْرِ خَذٌّ لِلْحَيَاءِ مُورِدٌ وَلِلْبَانِ قَدْ جِيْدُهُ أَبَدًا يَعْطُو

فقد جعل للورد خذا .

١/ الديوان ، ص ٨٩

٢/ المصدر نفسه ، ص ٢١٨

٣/ المصدر نفسه ، ص ٣٦٠

٤/ المصدر نفسه ، ص ٢٨٠

واستخد م العمداد في صورته التجسيم ومن ذلك قوله : (١)

تمضي عزائمه في قتل عاشقه
عمداً ويطلب في تعذيبه الرخصا

فقد جسد هذه العزائم في صورة محسوسة تذهب لقتل عاشقه .

ويقول أيضا : (٢)

أحيا الهدى وأمات الشرك صارمه
لقد تجلى الهدى والشرك منجبا

فقد جسد الهدى والشرك في صورة كائن حي محسوس يموت ويحيى .

ويقول أيضا : (٣)

وناديت صبري مستغيثاً فلم يجب
فاسبلت دمعى للبكاء على صبري

فقد جسد الصبر في صورة إنسان يُنادى ويُستغاث .

الاستعارة التصريحية :

الاستعارة التصريحية هي ما صرح فيها بلفظ المشبه به ، أو المستعار منه .

وإذا نظرنا إلى أسلوب الاستعارة التصريحية في شعر العمداد نلاحظ أن

١/ الديوان ، ص ٢٥١

٢/ المصدر نفسه ، ص ٧٥

٣/ المصدر نفسه ، ص ٢٠٤

غالب صوره مستمدة من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس ومن ذلك تشبيه الممدوح بالبحر قائلاً : (١)

ولقد وردتُ فناءً بحرٍ للندى أغني به عن أنهرٍ وجداولٍ

ويقول في ذات المعنى في قصيدة أخرى : (٢)

لا تتكرن لسابحٍ عثرتُ به قدمٌ وقد حملَ الخضمُ الزاخرا

فقد شبه الممدوح بالخضم الزاخرا وهو البحر

وقد يشبه الممدوح بالليث في صورته الاستعارية ومن ذلك قوله : (٣)

ضعفتُ قواه إذ تذكر أنه في السرج منك يقلُّ ليثاً خادراً

وفي صورة استعارية أخرى يشبه المجاهدين بالأسود قائلاً : (٤)

غداة أسود الحربٍ مُعتقلو القنا

أساودُ تبقي من نُحورِ العدا نهسا (٥)

ومن صورته الاستعارية الجميلة قوله : (٦)

وترى لآليء ثغره منظومةً ولديه لؤلؤ عبرتي مَنثورا

فشبهه أسنان محبوبته البيضاء بالآليء وحذف المشبه ، وفي الشطر الثاني شبه قطرات دموعه على خديه بالؤلؤ وحذف المشبه .

١// الديوان ، ص ٣٤٧

٢/ المصدر نفسه ، ص ١٥٨

٣/ المصدر نفسه ، ص ١٥٩

٤/ المصدر نفسه ، ص ٢٣٤

٥/ نهسا : مصدر نهس ، أي تبقي أن تهشمه بمقدم أسنانها وتنتفه نتقا

٦/ الديوان ، ص ١٦٢

المبحث الثالث

الكناية

هي (أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ، ويجعله دليلا عليه) (١) .
وإذا نظرنا في شعر العماد نجده قد استخدم اساليب الكناية الثلاثة المعروفة ، وهي كناية عن صفة وكناية عن موصوف وكناية عن نسبة .

أولا : الكناية عن صفة

فقد تعددت اساليبها وتباينت معالمها في شعر العماد ، فكنى عن صفة الكرم ، والشجاعة ، وشرف النسب وطهارته ، والندم ، والذل والهوان ، والعدل ، والرزانة ، وسرعة الخيل .

ومن صوره الكنائية عن صفة الكرم قوله : (٢)

أَيَادِيهِ غُرٌّ وَهِيَ غَيْرُ مُغْبَةٍ وَإِحْسَانُهُ غَمْرٌ وَلَيْسَ لَهُ غَمْطٌ (٣)

فقوله (أياديه غر) كناية عن صفة الكرم

ويقول في قصيدة أخرى كناية عن صفة الكرم أيضا : (٤)

جزيل العطايا وافر الفضل وارف الـ

ظلال طويل المآثرات عريضها

ويقول عن كرم الممدوح أيضا : (٥)

١/ دلائل الإعجاز ، ص ٥٧

٢/ الديوان ، ص ٢٧٨

٣/ القمط : غمط النعمة غمطا : لم يشكرها

٤/ الديوان ، ص ٣٤٧

٥ كَرَمٌ سَابِغٌ وَجُودٌ عَمِيمٌ وَندى سائِغٌ وَفَضْلٌ غَزِيرٌ

ويقول العماد في قصيدة أخرى كناية عن كرم الممدوح وكثرة أفضاله عليه بأنه مطوق عنقه بهذا الكرم : (١)

أَمْطُوقَ الْأَعْنَاقِ مِنْ أَفْضَالِهِ نِعْمًا تَسَامَتْ عَنْ سُؤَالِ السَّائِلِ

ويكنى عن صفة الشجاعة بقوله : (٢)

يَا غَالِبَ الْغُلَبِ الْمُلُوكِ وَصَائِدَ الْ صَيْدِ اللَّيْثِ وَفَارِسَ الْفَرَسَانِ
يَا سَالِبَ التَّيْجَانِ مِنْ أَرْبَابِهَا حُزَّتِ الْفَخَارَ عَلَى ذَوِي التَّيْجَانِ

فكنى عن شجاعة الممدوح بقوله (غالب الملوك ، وصائد الليث ، وفارس الفرسان ، وسالب التيجان من أربابها) .

وفي صورة كناية أخرى يبين شجاعة الممدوح وأثر شخصيته وقوته في نفوس أعدائه قائلا : (٣)

هَزَمَ الْعِدَا قَبْلَ الْلِقَاءِ بِرَعْبِهِ فَغَدَوْا بِأَمِّ فِي الشَّقَاوَةِ هَابِلِ (٤)

وفي صورة كناية طريفة يبرز العماد ما ساد من عدل وأمن في عهد نور الدين محمود قائلا : (٥)

بِبَاسِكَ الْبَيْضِ وَالطَّلَى إِصْطَحَبْتُ
وَبَعْدَكَ الذَّنْبُ وَالطَّلَا رَتَعَا

١/ الديوان ، ص ٣٤٩

٢/ المصدر نفسه ، ص ٤١٠

٣/ المصدر نفسه ، ص ٣٤٩

٤/ هبلته أمه : ثكلته، فهي هابل

٥/ / الديوان ، ص ٢٨٦

ففي قوله (ببأسك البيض والطلّى إصطحبت) كناية عن الأمن وعدم الحرب ووضع السلاح ، وقوله (الذئب والطلا رتعا) كناية عن سيادة العدل الذي نعم به جميع الناس ، ويبالغ العماد في وصفه فيجعل الذئب وأولاد الظباء تنعم بهذا العدل وترتع مع بعضهما في موضع واحد .

ويقول العماد كناية عن صفة الذل : (١)

شكا اليكبنو الإسلام يُتمهم فقمت فيهم مقام الوالد الحذب

فالشطر الأول كناية عن صفة الذل والهوان الذي أصاب الأمة الإسلامية في أيام الحروب الصليبية قبل تولي البطل أسد الدين شيركوه لقيادة الجيش الإسلامي .

ويقول أيضا كناية عن صفة الذل : (٢)

لما أبت هاماتهم سجودها لله أضحى للظبي سـ جوها

فقوله (أضحى للظبي سجودها) كناية عن الذل ويصور العماد سرعة خيول صلاح الدين الأيوبي في صورة كنائية رائعة ، قائلا : (٣)

حوافر خيل ودت الصيدأنها تكحل منها بالغبار لدى النفس

فهي خيل سريعة تدرك الصيد الذي يتمنى أن يفلت منها .

وفي قصيدة أخرى يصور العماد رحيل أحبته ووداعهم قائلا : (٤)

**وقفنا وحادينأنا يحث وناقتي تزم ولاحينا لمغرنا مغر
وكل بنان فوق سن لنادم وكل يد فوق التريبة والنحر**

١ الديوان ، ص ٨٠

٢ / المصدر نفسه ، ص ١٤٣

٣ / المصدر نفسه ، ص ٢٦٦

٤ / المصدر نفسه ، ص ٢٠٦

فقله (كل بنان فوق سن لنادم) وقوله (وكل يد فوق التريبة والنحر)
كناية عن صفة الندم .

وكنى عن شرف أصل الخليفة المقتفي بالله العباسي قائلا : (١)

يابن السراة ذوي العلى من هاشم والأكرمين أولي المناقب من مضر
أنت ابن عم المصطفى وسميه أبشر فأنتك بعده خير البشر

فهو ينسبه إلى هاشم جد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ينسبه إلى قبيلة
مضر ، وهو ابن عم المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وسميه ، وأي نسب
أشرف من هذا وأظهر .

ويقول العماد كناية عن صفة الرزانة : (٢)

ما بالهن زهذذ اليوم فيه وقد أفاده الشيب تجريبا وثقل حصى

فقله (ثقل حصى) كناية عن صفة الرزانة .

وفي صورة كناية جميلة يبين العماد ما آل إليه المجتمع في ذلك الزمان
قائلا : (٣)

ربى الزمان بنيه شر تربية فالجهل ذو بطنة والفضل قد خمضا

فقد ارتفعت مكانة الجهلاء وانحطت منزلة الفضلاء

ثانيا : الكناية عن موصوف

ومثلما استخدم العماد أسلوب الكناية للتعبير عن الصفة كذلك استخدمها
للتعبير عن الموصوف ومن ذلك قوله : (٤)

١/ المصدر نفسه ، ص ١٥١

٢/ الديوان ، ص ٢٥١

٣/ المصدر نفسه ، ص ٢٥١

٤/ المصدر نفسه ، ص ١٧٩

بنتُ كَرَمٍ تَجْلَى عَلَى ابْنِ كَرِيمٍ وَجْهُهُ مِنْ شُعَاعِهَا مُسْتَتِيرٌ

فقوله (بنت كرم) كناية عن موصوف وهي الخمر

ويقول في قصيدة أخرى : (١)

نُؤْمَلُ فِي دَارِ الْفَنَاءِ بَقَاءَنَا وَنَرْجُو مِنَ الدُّنْيَا صَدَاقَةَ مَاقَتِ

(دار الفناء) كناية عن الدنيا ، (ماقته) كناية عن الموت

ويقول في قصيدة أخرى : (٢)

زَارَتْ بَنِي الْأَصْفَرِ الْبَيْضُ الَّتِي لَقِيتُ
حُمْرَ الْمَنَايَا بِهَا مَرْفُوعَةُ الْحُجُبِ

فقوله (بني الأصفر) كناية عن الإفرنج ، وقوله (حمر المنايا) كناية عن موصوف وهو الموت
ويقول أيضا (٣) :

يَا أَسَدًا يَحْمِي عَرِينَ الْعَلَى نُهِتَ جَمْعَ الشَّمْلِ بِالشَّبْلِ

فقوله (يا أسدا) كناية عن موصوف وهو صلاح الدين الأيوبي ، وقوله (بالشبل) كناية عن موصوف وهو عثمان بن صلاح الدين.

ثالثا : الكناية عن نسبة

ومن صور الكناية عن النسبة قوله : (٤)

هَذَا - أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - قَصِيدَةٌ غَرَاءُ تَقْصِدُ قُبَّةَ الْمَلِكِ الْأَعْرُ

١ / الديوان ، ص ٩٣

٢ / المصدر نفسه ، ص ٨٠

٣ / المصدر نفسه ، ص ٣٥٣

٤ / المصدر نفسه ، ص ١٥١

فنسب هذه القصيدة إلى القبة ولم ينسبها إلى الممدوح مباشرة .
وقوله في مدح الملك الكامل : (١)

مُعْطَرَّ عَرْفُهُ عَرْفًا وَمَكْرَمَةً مَخْمَرٌ طِينُهُ بِالطَّهْرِ وَالطَّيْبِ

فقوله (مخمر طينه بالطهر والطيب) فقد نسب أصله الطاهر الطيب
الشريف إلى الطينة التي خلق منها .
وينسب العماد سيوف صلاح الدين الأيوبي إلى الهند قائلًا في وصف
المعارك : (٢)

لما انتشى الهامُ من كأسِ النجيعِ بهِ
غنى المُهْنَدُوالخطيُّ قد رَقَصا

١/ الديوان ، ص ٨٣
٢/ المصدر نفسه ، ٢٥٥

الفصل الثالث

اللغة والإسلوب

المبحث الأول : اللغة

اللغة هي وسيلة لحمل الرؤى والتعبير عن الفكر والشعور، واللغة في الشعر ليست ألفاظا لها دلالة ثابتة جامدة ولكنها لغة انفعال مرنة. (١) بل أميز ما فيها هذه المرونة التي تجعلها متجددة دائما بتجدد الإنفعالات. (٢) وقد اهتم القدماء والمحدثون باللفظ باعتباره عنصرا فعالا في العمل الأدبي سواء كان في الشعر أو النثر، فابن رشيق يرى أن : (للشعراء الفاظا معروفة وأمثلة مألوفة لا ينبغي للشاعر أن يعدوها ولا أن يستعمل غيرها) (٣). ويربط ابن رشيق بين اللفظ والمعنى بقوله : (اللفظ جسم روحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته) (٤). وقد أسس عبدالقاهر الجرجاني نظرية النظم على فكرة الارتباط العضوي بين المعاني والألفاظ . فالشعر الجيد هو الذي يلائم فيه صاحبه بين اللفظ والمعنى بحيث لا يطغى جانب على جانب ، فلا يصبح لفظيا ولا رمزيا خالصا (٥).

والقارئ لشعر العماد يجد هذه المواءمة بين اللفظ والمعنى واضحة في شعره ، فهو في أشعاره الحماسية يحشد لها الألفاظ القوية الجزلة الدالة على الحرب وأدوات القتال حشدا واضحا تضيفي القوة والحماسة ، وتصور هول المعارك وقوتها فيقول : (٦)

وَرُبَّ مُعْتَرَكٍ رَحِبَ الْفُضَاءِ بِهِ
أُضْحَى عَلَى مَسْعَرِيهِ ضَيْقًا لَقِصَا (٧)

١ / الاسس الجمالية في النقد الأدبي : عز الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧٤ م ، ص ٣٩٩

٢ / النقد الأدبي : أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٦٣ م ، ص ٦٧

٣ / العمدة ١٢٨ / ١

٤ / المرجع نفسه ١٢٤ / ١

٥ / في النقد الأدبي : شوقي ضيف ، دار المعارف القاهرة ١٩٧٧ م ، ص ١١٣

٦ / الديوان ص ٢٥٥

٧ / اللقضا : الضيق

لَمَّا انتَشَى الهَامُ مِنْ كَأْسِ النَجِيعِ بِهِ

غَنَى الْمُهَنْدُ وَالْخَطِيُّ قَدْ رَقَصَا

وَالْكُمَاةَ عَلَى أَهْوَالِهَا نَهَمٌ

نَامَ كَأَن بَهَا نَحْوَ الرِّدَى لِعَصَا^(١)

وَالْحَرْبُ عَضَتْ بِأَنْيَابِ لَهَا عَصْلٌ

الْصَفُّ أَحْكَمُ مِنْ أَضْرَاسِهَا لِعَصَا^(٢)

وَالْبَيْضُ فِيهِ بِقَدِ الْبَيْضِ مَاضِيَةٌ

وَالسَّمَرُ تَخْتَرِقُ الْمَازِيَةَ الدُّلُصَا^(٣)

فتأمل هذه الألفاظ ، الكُماة ، الردى ، الحرب ، البيض (بكسر الباء)
السيوف ، والبيض (بفتح الباء) الخوذ ، السمر (السهام) المهند ،
والخطي ، والسهام ، وكأس النجيع (الموت) ، وأهوال الحرب ومعترك
، مسعريه ، فكلها ألفاظ تدل على الحرب والقتال ، واستمع الي الصوت
القوي في البيت الأخير (والبيض فيه بقْد البيض . . .)
ويصور في البيت الأول هول المعركة وكيف أن هذه الأرض الواسعة قد
ضاقت على هؤلاء الأعداء .

ويكثر العماد من ذكر ألفاظ الحروب وأدواتها في مدائحه التي تغنى

١ / الكُماة : الشجعان ، واللَّعص : النهم في الأكل والشرب جميعا
٢ / عَصْل : جمع أعصل وهو الأعرج ، واللَّصص : تقارب الأضراس
٣ / المَازِيَة : الدروع ، والدلص : الملس اللينة واحدها دلاص

فيها بانتصارات المسلمين فيقول حينما فتح صلاح الدين الأيوبي القدس (١):

حطّطت على حطين قدر ملوكهم ونعم مجال الخيل حطين لم تكن غداة أسود الحرب مُعْتَقِلُو الْقَنَا أتوا شُكْسَ الأخلاق خُشْنًا فَلَيَنْتَ طردتهم في الملتقى وعكستهم كسرتهم إذ صحّ عزمك فيهم بواقعة رجت بها الأرض جيشهم	ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا معاركها للجرد ضرساً ولا دهساً أساود تبغي من نُحُورِ العدا نهساً حُدُودُ الرقاق الخشن أخلاقها الشُكْسَا مُجِيدَا بِحُكْمِ العزم طردك والعكسا ونكستهم إذ صار سهُمُهُمْ نَكْسَا دماراً كما بُسِتَ جبالُهُمْ بَسَا(٢)
--	---

فانظر إلى المترادفات حطّطت قدر ملوكهم ، ولم تبق من أجناسهم ، دماراً، بسا ، كلها بمعنى القتل والفناء ، وكذلك الترادف بين طردتهم وعكستهم ، وكسرتهم ، ونكستهم ، كلها بمعنى الهزيمة والفرار . وفي ألفاظ قوية يصور العماد هول المعركة وقوة وشجاعة المسلمين في البيت الأخير (بواقعة رجت بها الارض ...) فالعماد قد عمد الي استخدام الألفاظ القوية الفخمة الجزلة التي تناسب المعاني التي عبرت عنها . ويقول ابن الأثير عن جزالة الألفاظ : (ولست أعني بالجزل من الفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجهية البداوة ، بل أعني بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع) (٣)

أما القصائد التي تغزل فيها العماد ، فقد استخدم فيها الألفاظ الرقيقة والمعاني السهلة ويتجلى ذلك في قوله : (٤)

أطاعَ دمعِي وصبري في الغرامِ عَصَى

والقلبُ جرعٌ من كأسِ الهوى غَصَا

١/ الديوان ص ٢٣٤
٢/ أي فتنت وصارت كالهباء المتطاير في الهواء
٣/ المثل السائر ، ١٧٢/١
٤/ الديوان ص ٢٤٩

وإن صفو حياتي ما يُكدره

إلا اشتياقي إلى أحابي الخلصا

ما أطيب العيش بالأحباب لو وصلوا

وأسعد القلب من بلواه لو خلصا

زموا فؤادي وصبري والكرى معهم

غداة بانوا وزموا للنوى القلصا

وقفت أتبعهم وقلبي يسايرهم

وأرسل الدمع في آثارهم قصصا

ومقلة طاماً قرّت برؤيتهم

أضحى السهاد لها من بعدهم رمصا

ففي أسلوب عذب رقيق يظهر الشاعر مواجده ، فهو في حنين دائم لأحبته وفي لوحة من فراقهم يذرف دونهم العبرات ، فأنظر الي الكلمات : أطاع دمعى ، وصبري عصى ، صفو حياتي ، ما أطيب العيش ، وأسعد القلب ، زموا فؤادي وصبري والكرى - وقفت أتبعهم ، قلبي يسايرهم ، وأرسل الدمع ، والسهر الدائم، فكلها ألفاظ رقيقة لينة تحكي حال الوجد والشوق والحنين .

وإذا تمعنا في لغة شعر العماد نجده قد بعد عن استعمال اللغة العامية وألألفاظ الحوشية ، وحفل ديوانه بألفاظ مألوفة ليدل بها على معان مطروقة معروفة ، فحوى شعره مادة غزيرة من ألفاظ وأسماء وكلمات الطبيعة الأرضية والسماوية ، ففي الطبيعة الأرضية ورد كثير من أسماء البساتين والرياض والحدائق وأسماء الأزهار والورود مثل النرجس والياسمين والجلنار والأقحوان ، وأسماء الأشجار والثمار مثل الأترج والنارنج والمشمش ، وتناول الحديث عن المياه فذكر نهر النيل ونهر بردى ونهر العاص ودجلة والفرات ، وفي الطبيعة السماوية وردت ألفاظ

السحب والأمطار والغيث والوسمي والبروق والثريا والفرقد
والبدرو والهلال والشمس والنجوم والليل والنهار . وأكثر من ذكر الحيوان
في شعره فذكر من الطيور — الحمام والورقاء والقمري — وذكر من
الحيوانات الأخرى الناقة (الهوجاء والأدمة والعود) والفرس والكلب
والذئب والأسد ، ومن الحشرات ذكر الذباب والبعوض والبق والبرغوث ،
وقد حوى شعره كثيراً من أسماء المواقع والأماكن والقلاع والحصون ،
فذكر بغداد ودمشق والقدس ومصر وموقعة حطين وموقعة دمياط وقلعة
منبج وحصن مخاضة الأحزان ، وحوى ديوانه كذلك أسماء بعض
الأماكن التي ردها تقليداً لشعراء البادية الأقدمين فذكر العذيب ونجد
وكاظمة ، وذكر كذلك الرسم والطلل وردد أسماء النساء التي وردت في
الشعر القديم فذكر نغمى ، وسلمى ، وأسماء ، ونعم ، وأكثر في شعره
كذلك من ذكر أسماء آلات الحرب وأدواتها فذكر السيف ، والحسام
، والبيض (السيف) والدروع ، والقوس والسهام ، والقنا والسمر ،
ووصف المرأة بأوصاف حسية كثيرة فذكر الخصر ، والأرداف ،
والثنايا ، والخدود ، والوجنات ، والشفاه ، كما ذكر الألفاظ المعنوية مثل
الصون ، والعفاف ، والبعاد ، والفراق ، والهجر ، والصدود ، والنوى ،
والوداع ، والبكاء ، والأسى ، والشوق ، والهوى ، كما ضمن شعره ألفاظ
الخمير ومجالسها وأوقاتها ، فذكر الخمر ، والصهباء ، والعقار ، والسلاف
، والدمام ، والراح ، والندماء والكأس ، والذن ، والقدح .

وتأثرت اللغة العربية في عصر الحروب الصليبية بثقافة الغزاة
الصليبيين — فاللغة العربية ككل اللغات تتأثرت وتأثر في اللغات الأخرى
فتأخذ منها بعض ألفاظها وتمدها ببعض الألفاظ ، تخضع للمؤثرات
الحضارية وتتصل بالثقافات الأجنبية — (١) وتسربت إليها كثير من الألفاظ
التي ترتبط بالدين المسيحي فضمنها العماد لغة شعره ، ومن ذلك قوله
يمدح صلاح الدين الأيوبي حينما فتح القدس : (٢)

وَعَادَتْ لِبَيْتِ اللَّهِ أَحْكَامُ دِينِهِ فَلَا بَطْرَكَ أَبْقَيْتَ فِيهَا وَلَا قَسَا
وَقَدْ شَاعَ فِي الْآفَاقِ عَنْكَ بَشَارَةٌ بَأَنَّ آذَانَ الْقُدْسِ قَدْ أَبْطَلَ النِّقْسَا

١/ التيارات الأجنبية وأثرها في الشعر العربي : عثمان موافي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ،

١٩٧٦م ، ص ٣٥٣

٢/ الديوان ، ص ٢٣٢

فالألفاظ البطريك ، والقس ، والناقوس، كلها ألفاظ ترتبط بالدين المسيحي .
وذكر العماد كثيرا من القاب وأسماء قادة الصليبيين وطوائفهم وفرقهم
في لغته الشعرية ، فذكر القمص والبرنس والداوي وفليب والهنفري ،
فيقول : (١)

قَمَصَتْ قَمُوصَهُمْ رِدَاءً مِنْ رَدَى وَقرُنْتَ رَأْسَ بَرْنِسِهِمْ بَسْنَانِ

ويذكر أقوى فرقهم ، الداوية والإسبتار فيقول : (٢)

وَأُهْدِ إِلَى الْإِسْبَتَارِ الْبَتَارِ وَهْدِ السَّقُوفَ عَلَى الْأَسْقَفِ

وذكر العماد في لغته الشعرية كذلك كثيرا من أسماء المدن والمعارك
والحصون التي دارت حولها رعى الحروب الصليبية واشتق منها أسماء
وأفعالا تتناسب مع المعنى الذي يريد التعبير عنه ، فأمد اللغة بكثير من
الألفاظ الجديدة ومن ذلك قوله عن معركة حطين : (٣)

سَحَبْتَ عَلَى الْأُرْدَنِ رُدْنًا مِنَ الْقَتَا رُدْنِيَّةً مُلْدًا وَخَطِيَّةً مُلْسَا
حَطَطْتَ عَلَى حَطِينٍ قَدَرَ مُلُوكُهُمْ وَلَمْ تُبْقِ مِنْ أَجْناسِ كَفَرِهِمْ جُنْسَا

فقد كرر لفظ حطين (أسم الموقعة) واشتق من حطين الفعل حططت ،
واشتق من الاردن ردنا وردينية .
ويتلذذ العماد بتكرار لفظ حطين في أكثر من موضع، ومن ذلك قوله: (٤)

يَا يَوْمَ حَطِينٍ وَالْأَبْطَالُ عَابِسَةٌ وَبِالْعَاجَاةِ وَجْهُ الشَّمْسِ قَدْ عَبَسَا

ويقول أيضا : (٥)

وَنَعَمْ مَجَالُ الْخَيْلِ حَطِينٌ لَمْ تَكُنْ مَعَارِكُهَا لِلْجُرْدِ ضَرْسًا وَلَا دَهْسًا

١/ الديوان ، ص ٤١١

٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٠٤

٣/ المصدر نفسه ، ص ٢٣٤

٤/ المصدر نفسه ، ص ٢٢٩

٥/ المصدر نفسه ، ص ٢٣٤

المبحث الثاني :

الاسلوب

يختلف الاسلوب من شخص لآخر، ومن كاتب لكاتب ، ومن شاعر لشاعر، وذلك بحسب البيئة التي يعيش فيها ، والمجتمع الذي يحيط به وبحسب العوامل النفسية والمكونات الثقافية ، فالشاعر الذي يعيش في الصحراء والبادية يختلف في أسلوبه عن شاعر المدينة والحضر .
وشاعرنا العماد من الشعراء الذين عاشوا في المدن في كنف الملوك والقواد، وكان كاتب الديوان في عهدي الملك العادل نور الدين محمود والبطل صلاح الدين الأيوبي ، بجانب ذلك فقد جمع أشعار كثير من شعراء عصره في كتابه الخريدة ، فكان طبيعيا أن يشيع في أسلوبه السهولة والرقّة وتتسم عباراته باللين، ومعانيه بالوضوح ، فلا يعتمد في أسلوبه إلى استعمال الغريب والمهجور من الألفاظ ، فلا تجد في معانيه غموضا أو إلتواء ، ولا تحس فيها تكلفا وبعدا أو عمقا فلسفيا .
وقد عمد العماد في كثير من قصائده إلى استخدام الاسلوب الخطابي المباشر، خاصة في قصائده الحماسية والمادحة التي تناول فيها الثناء على الأبطال والقواد المجاهدين ، فمن ذلك قوله مهنئا القائد شيركوه بتقلد الوزارة بمصر سنة ٥٦٤هـ : (١)

بالجد أدركتَ ما أدركتَ لا اللَّعبِ كم راحةٍ جُنيتَ من دوحةِ التَّعبِ
يا شيركوةُ بنَ شاذي الملكِ دُعوةٌ مَن نادى فعَرَفَ خَيرَ ابنِ بخيرأب

ومال العماد كذلك إلى استخدام الأسلوب الخطابي غير المباشر ، فاستخدم اسلوب القصة أو الحوار والإنطاق وذلك لطرد الملل ونفي السأم عن القارئ ومن ذلك قوله : (٢)

تقولُ: إلى مصرَ تسيرُ تعجِّباً وما ذا الذي تبغي ومَن لكَ في مصرَ ؟
تُبددُ في سَهْلٍ من العيشِ شَمْلنا وتنظُمُ سِلَكَ العيشِ في المسلكِ الوعرِ

١/ الديوان ، ص ٧٩

٢/ المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧

فَقُلْ أَيْمًا عُرِفَ حَدَاكَ عَلَى النُّوَى
وَمَنْ فَارَقَ الْأَحْبَابَ مُسْتَبَدَّلاً بِهِمْ
فَقُلْتُ: مَلَاذِي النَّاصِرُ الْمَلِكُ الَّذِي
فَقَالَتْ: أَقْمُ لَا تَعْدِمِ الْخَيْرَ عِنْدَنَا
فَقَالَتْ: صَلَاحُ الدِّينِ؟ قُلْتُ: هُوَ الَّذِي
وَمَنْ ضَلَّةٍ أَنْ تَطْلُبَ الْعُرْفَ بِالنَّكَرِ
سِوَاهُمْ فَقَدْ بَاعَ الْمَرَابِجَ بِالْخُسْرِ
حَصَلْتُ بِجِدْوَاهِ عَلَى الْمُلْكِ وَالنَّصْرِ
فَقُلْتُ: وَهَلْ تُغْنِي السُّوَاقي عَنِ الْبَحْرِ
بِهِ صَارَ فَضْلِي عَالِي الْحِظِّ وَالْقَدْرِ

ففي أسلوب قصصي حوارى يصور الشاعر ما دار بينه وبين زوجته
حينما قرّر أن يسافر إلى مصر لخدمة الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي .
وقد استخدم العماد في أشعاره كثيراً من الألفاظ الجانبية التي تحمل
دلالات وإيحاءات مختلفة ، غير مكثف بمعناها المعجمي ، فأغنى معانيه
، وقد اتخذ لذلك أساليب صرفية ونحوية عدة ومن ذلك استخدامه
للضمائر وأفعال الأمر وأدوات النداء والاستفهام والتوكيد والتعجب
والتمني والترجي .
فمن الظواهر التي استخدمها العماد النداء بأدواته المختلفة ، وقد يحشد
أدوات النداء حشداً كما في قوله يمدح القاضي الفاضل : (١)

يَا أَوْحَدَ الْعَصْرِ الَّذِي بَزَّ الْوَرَى
يَا أَفْضَلَ الْفَصْحَاءِ، بَلْ يَا أَفْصَحَ الْـ
يَا حَالِيًّا بِالْفَضْلِ حُلِّ تَفْضُلًا
فَضْلًا بِغَيْرِ مَشَاكِهِ وَمَشَاكِلِـ
بَلْغَاءٍ مُنْفَرِدًا بِغَيْرِ مَسَاجِلِـ
مَنْيَ بِجِدِّكَ جَيِّدَ خَطِّ عَاطِلِـ

واستخدم النداء ليدلّل به على قرب القادة والولاة من قلبه ، ومن ذلك
قوله مخاطباً عماد الدين بن المظفر حينما أعتقل بالديوان بعد مقتل ابن
هبيّرة : (٢)

أَبْنِي الْمَظْفَرَ مَا يَزَالُ مَظْفَرًا رَاجِيكُمْ أَبَدًا بَنِيْلَ رَجَائِهِ

وقوله يهنئ صلاح الدين بـرجوع ابنه من الشام : (٣)

يَا أَسَدًا يَحْمِي عَرِينَ الْعُلَى هَنِيئَ جَمْعِ الشَّمْلِ بِالشَّبْلِ

١/ الديوان ، ص ٣٤٣

٢/ المصدر نفسه ، ص ٧٠

٣/ المصدر نفسه ، ص ٣٥٣

ويخاطب العماد الجمادات ويعاملها معاملة العقلاء لما لها من أهمية خاصة عنده ومن ذلك قوله : (١)

يايَوْمَ حَطينَ والأبطالُ عابِسةٌ
وبالعجاجةِ وجهُ الشمسِ قد عَبَسا
يا ظَهَرَ سيفِ بَرى رأسَ البرنسِ فقد
أصابَ أعظمَ مَنْ بالشركِ قد نجسا

واستخدم الشاعر كذلك صيغ الاستفهام كمظهر اسلوبي في أشعاره بمعناه الحقيقي أو بمعانيه الأخرى ومن ذلك قوله في رثاء صلاح الدين الأيوبي : (٢)

مَنْ للعلی ، مَنْ للذرى ، مَنْ للهدى يحميه، مَنْ للبأس، مَنْ للنائلِ
مَنْ للفرنج ، مَنْ لأسر ملوكها مَنْ للهدى ، يبقي فكاك أسيره

وقد يستخدم الاستفهام بمعانيه الأخرى كما في قوله : (٣)

أو هل بلوغ مقاصدي بقصائدي ؟ أم هل قبول وسائلتي برسائلي ؟
أم قد كفى سبباً الي درك المنى صدق الولاء وحسن ظن الآمل ؟

فالاستفهام هنا مقصود به التمني ، فالشاعر يتمنى أن يبلغ مقصده ويجد حظه في التقرب إلى الملك العادل نور الدين محمود .

ويستخدم العماد أدوات التمني والترجي متحسرا على شبابه وأوقاته وفرصه في الهوى التي ضاعت قائلا : (٤)

١/ الديوان ، ص ٢٢٩

٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٤٠

٣/ المصدر نفسه ، ص ٣٤٩

٤/ المصدر نفسه ، ص ٢٥٠

وَحَبَذَا فُرْصٌ لِلدَّهْرِ مَمْكَنَةٌ وَالْدَّهْرُ مِنْ لَمْ تَزَلْ أَوْقَاتُهُ فُرْصَا
لَهْفِي عَلَى غُنْفُوانِ الْعَمْرِ كَيْفَ مَضَى عَنِّي وَشَيْكاً وَمَا تَمَّ لِي نَقْصَا

ومن الأساليب الأخرى التي استخدمها العماد اسلوب التوكيد ، فلجأ إلى القسم ليؤكد به ما يريد إثباته من معاني كما في قوله : (١)

حَلَفْتُ بِرَبِّ مَكَّةَ وَالْمُصَلَّى وَثَاوِي تَرْبَ طَيِّبَةَ وَالْغَرِيِّ (٢)

فهو يحلف بالله عز وجل وبالرسول صلى الله عليه وسلم وبالإمام علي كرم الله وجهه .
وفي قصيدة أخرى يستخدم لفظ القسم نفسه (أقسمت) ليدل على التوكيد فيقول في مدح الملك العادل نور الدين محمود : (٣)

يَا وَاحِداً فِي الْفَضْلِ غَيْرَ مُشَارِكٍ أَقْسَمْتُ : مَا لَكَ فِي الْبَسِيطَةِ ثَانٍ

ويستخدم نون التوكيد الثقيلة في قوله : (٤)

وَلَيْنَ جَفَانِي الدَّهْرُ فِي أَحْدَاثِهِ فَلَأَصْبِرَنَّ عَلَى فَظِيعِ جَفَائِهِ

كما اعتمد العماد على التوكيد بالقصر ، ومنه ما يجيء بالنفي وإلا كما في قوله : (٥)

وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالْغُصُونِ يُدْ الرَّدَى تُقَرِّبُ مِنْهَا كُلَّ عَوْدٍ لِنَاحَتِ

واستخدم العماد اسلوب التعجب كما في قوله في رثاء نوال الدين : (٦)

١/ الديوان ، ص ٤٥٨
٢/ ثاوي ترب طيبة : الرسول صلى الله عليه وسلم ، وثاوي الغري ، سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والغري أحد أسماء النجف ،
٣/ الديوان ، ص ٤١١
٤/ المصدر نفسه ، ص ٦٩
٥/ المصدر نفسه ، ص ٩٣
٦/ المصدر نفسه ، ص ٢١٢

ما أكثر المتأسفين لفقد مَنْ قَرَّتْ نواظرهم بفقد نظيره !

وقوله في قصيدة أخرى : (١)

قال : ما أطيب أيام الصبا ! قلت : ما أطيبه لو كان داما !

ومن الأساليب الأخرى التي استخدمها العماد الأمر بمعانيه المختلفة ،
ومن ذلك الأمر الحقيقي كما في قوله مخاطبا أبناء صلاح الدين الأيوبي
بعد موته : (١)

وردوا موارد عدله وسماحه لترد عن نهج الشّمتِ شماتته
والأمر المقصود به الدعاء، كما في قوله مخاطبا صلاح الدين الأيوبي :
(٢)

فسروا فتح القدس وأسفك به دماء متى تجرها ينظف
وأهد إلى الإس بثار البثار وهد السقوف على الأسقف

وأكثر العماد في أشعاره من استخدام كم الخبرية ليفيد التكثير والتفخيم
ومن ذلك قوله : (٣)

كم قد أقمت من الشريعة معلماً هو منذ غبت معرض لدثوره
كم قد أمرت بحفر خندق معقل حتى سكنت الحد في محفوره
كم قيصر للروم رمت بقصره إرواء بيض الهند من تاموره

ويقول أيضا عن إنجازات الملك العادل نور الدين محمود : (٤)

١/ الديوان ، ص ٣٧٢

١/ المصدر نفسه ، ص ٩٢

٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٠٤

٣/ المصدر نفسه ، ص ٢١٤

٤/ المصدر نفسه ، ص ٤١١

كم بكر فتح ولدته ظباك من حرب لقمع المشركين ع وان
كم وقعة لك في الفرنج حديثها قد سار في الآفاق والبلدان
كم مُصعب عسر المقادة قدته نحو الردى بخزائم الخلان

ومن الأساليب الأخرى التي استخدمها العماد في أشعاره :

الاقتباس :-

وهو أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن الكريم والحديث الشريف لا على أنه منه (١)

فقد شككت العلوم الدينية جانباً مهماً في ثقافة العماد ، كان قوامها حفظ القرآن ودراسة الحديث النبوي وسبق أن أوردنا أنه كان أستاذاً للمدرسة النورية (العمادية) ، فكانت ثقافته الدينية هذه زادا غنيا وموردا عذبا لشعره ، فاستمد كثيراً من معاني القرآن الكريم والحديث النبوي وعباراتهم في أشعاره ، خاصة في قصائده الحماسية التي تصدت بالكلمة الشجاعة للغزو الصليبي.

وقد اقتبس العماد كثيراً من معاني القرآن الكريم في شعره ، ومن ذلك قوله من قصيدة يصف فيها ما أوقعه المقاتلون المسلمون بالصليبيين عند المخاضة قرب طبرية : (٢)

وجعلت في أعناقهم أغلالهم وسحبتهم هوناً على الأذقان

فقد إستمد معنى بيته من قوله تعالى : (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي الي الأذقان فهم مقمحون) (٣)

وقوله من قصيدة أنشدها صلاح الدين الأيوبي وقد تسلم قلعة حمص : (٤)

١/ الايضاح في علوم البلاغة : (الغزويني) جلال الدين محمد عبدالرحمن ، شرح وتبويب علي ابو ملجم ، الطبعة الثانية ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ١٩٩١م ، ص ٣٤٢

٢/ الديوان ، ص ٤١١

٣/ سورة يس ، آية ٨

٤/ الديوان ، ص ١٩٤

ويومُ الفرنج إذا ما لقوك عبوسٌ، بزعمهم، قمطيرُ

أخذه من قوله تعالى : (إنا نخافُ من ربنا يوماً عبوساً قمطيراً) (١)

وقوله حينما وصف ما ألحقه المسلمون بالصليبيين يوم حطين : (٢)

بواقعةٍ رَجَتْ بها الأرضُ جيشَهم دماراً كما بُسَتْ جبالُهم بساً

يستحضر العماد في هذا البيت قوله تعالى : (وبست الجبال بسا) (٣)

ولم يقتصر العماد على استخدام بعض معاني السور في شعره ، بل تعداها إلى الأيات فاستمد منها كلمات وفقرات وجمل ، فأدخلها بنصها الصريح أو بتغيير طفيف كيما تتلائم مع الوزن والشطر والشعر، ومن ذلك قوله : (٤)

فاشكر الله حين أولاك نصراً فهو (نعم المولى ونعم النصير)

فعجز البيت نص من قوله تعالى : (وأن تولوا فاعلموا إن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) (٥).

وقول العماد من قصيدة مدح بها نور الدين محمود : (٦)

سفائنُ الآمالِ من جُودهٍ قد استوتْ منا على الجُودي (٧)

١/ سورة الانسان ، آية ١٠

٢/ الديوان ، ص ٢٣٤

٣/ سورة الواقعة ، آية ٥

٤/ الديوان ، ص ١٨٢

٥/ سورة الانفال ، آية ٤٠

٦/ الديوان ، ص ١٣٨

٧/ الجودي موضع ، وقيل جبل بالجزيرة استتعت عليه سفينة سيدنا نوح عليه السلام

فَعَجَزَ الْبَيْتَ أَخْذَهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (.. وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) (١)

وقول العماد : (٢)

وَقَدْ عَرَفَ الْفَرَنْجُ سَطَاكَ لَمَّا رَأَوْا آثَارَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ

فَعَجَزَ الْبَيْتَ قَدْ وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) (٣)

وقد استخدم العماد مصطلحات علم الحديث في شعره ، فقال مفتخرا بنسب الأيوبيين : (٤)

أَسَانِيدُ السِّيَادَةِ عَنْ غُلَاهِمٍ مَغْنَعَةٌ مُصَحَّحَةُ الْمَتُونِ

فاقتبس من علم مصطلح الحديث ثلاثة اصطلاحات وهي : العننة ، والتصحيح والتمتن .

الضمين :-

هو أن يُضْمَنَ الشعر شيئاً من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء (٥) .

وعند وقوفنا على ديوان العماد لاحظنا أنه بما أوتي من ثقافة أدبية قوامها إطلاعه على علوم الفقه والحديث والسيرة النبوية وقصص

١ / سورة هود ، آية ٤٤

٢ / الديوان ، ص ٢٩

٣ / سورة التكاثر ، الآية ٧

٤ / الديوان ، ص ٤٢٧

٥ / الايضاح في علوم البلاغة : الخطيب الغزويني (جلال الدين بن محمد بن عبد الرحمن) ، تحقيق ودراسة د. عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب جامعة الأزهر ، طبعة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ، ص ٤٧٢

الانبياء ، وحفظه للقرآن الكريم وموروث التراث العربي ، ضمن قصائده
غير قليل من أشعار أسلافه القدامى ، ومن ذلك قوله : (١)

وَهَزَمَتْهُمْ بِالرَّأْيِ قَبْلَ لِقَائِهِمْ (والرأي قبل شجاعة الشجعان
(٠)

فقد ضمن عجز بيته مطلع قصيدة أبي الطيب المتنبي : (٢)

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

وقول العماد : (٣)

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب كم راحة جنيت من دوحة التعب

ضمنه معنى قول أبو تمام : (٤)

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وقول العماد : (٥)

(لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها) فالحزم عندي: قطع الرأس كالذنب

فالبيت في الأصل لأبي أذينة ابن عم الأسود بن المنذر بن النعمان (٦)

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا

١/ الديوان ، ص ٤١٣

٢/ ديوان المتنبي : عبد الرحمن البرقوقي ، الناشر دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، ١٤٠٠هـ —

١٩٨٠م ، ٣٠٧/٢

٣/ الديوان ، ص ٧٩

٤/ ديوان أبو تمام ، شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده ، دار المعارف — القاهرة ، د. ت. المجلد

الأول ، ص ٤٠

٥/ الديوان ، ص ٨١

٦/ المختصر في أخبار البشر : عماد الدين إسماعيل أبي الفداء ، المطبعة الحسينية المصرية ، الطبعة الأولى

، د. ت. ٧١/١.

وقول العماد : (١)

أخفتَ الشُّركَ حتَّى الذَّعرَ منهم يُرى - قبل الولادة - في الجنينِ

أخذه من قول أبي نواس : (٢)

واخفتَ الشُّركَ حتَّى أنه لتخافكَ النطفَ التي لم تُخلَقْ

وقول العماد : (٣)

ولكنَّ تتركُ في الغرامِ ملامهُ كيلا يزيدَ اللومُ في إغرائهِ

أخذه من قول أبي نواس : (٤)

دَعْ عنكَ لومي فإنَّ اللومَ إغراءٌ وداوني بالتي كانتْ هي الداءُ

وقول العماد في وصف الحمى : (٥)

وزائرةٌ وليسَ بها حياءٌ وليسَ تزورُ إلا في النهارِ

نظمها العماد متأثراً بقصيدة المتنبي المشهورة : (٦)

وزائرتي كأن بها حياءٌ فليس تزورُ إلا في الظلامِ

وقول العماد : (٧)

في بأسٍ عمروٍ في بسالة حيدرٍ في نطقٍ قسٍ في تقى سلمان

١/ الديوان ، ص ٤٢٩

٢/ ديوان أبي نواس ، دار صادر بيروت ، د. ت. ، ص ٤٥٢

٣/ الديوان ، ص ٦٦

٤/ ديوان أبي نواس (الحسن بن هاني) ، حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالي ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٣م ، ص ٦

٥/ الديوان ، ص ١٩٦

٦/ ديوان المتنبي : عبد الرحمن البرقوقي ، ٢٨٦/٤

٧/ الديوان ، ص ٤١٨

ضمنه قول أبو تمام : (١)

أقدامُ عمروٍ في سماحةِ حاتمٍ في حلمٍ احنفٍ في ذكاءِ إياس

واقْتَبَسَ العماد من الأمثال قوله : (٢)

وَعُدْنَا في الرعاعِ فلا في الـ عير ندعى ولا في النفير

إِقْتَبَسَهُ من المثل السائر (لا في العير ولا في النفير) (٣)

وقول العماد : (٤)

تبغي بقرعِ عصاِ التقرعِ لي رَشدا

كما يُنبأ ذو حلمٍ بقرعِ عصا

هذا البيت يشير إلى المثل (إن العصا قرعت لذي الحلم) (٥) ، ويضرب لمن إذا نبه إنَّبه وأصله ، أن حكما من حكام العرب عاش حتى اهتر ، فقال لابنته : إذا أنكرت من فهمي شيئا عند الحكم فاقري لي المجن بالعصا لأرتدع .

وأحيانا يرمز العماد في تضمينه الي معرفته باللغة ، ومعرفته بمخارج الحروف كقوله : (٦)

يَخْفِي الزمانُ سُنايَ في إظلامِهِ إخفاءً أُلْثَغَ سِينِهِ في ثائِهِ

١/ ديوان أبي تمام ، ص ١١٤

٢/ الديوان ، ص ٢٠٩

٣/ مجمع الأمثال: لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، د.ت. ٢٢٣/٢ .

٤/ الديوان ، ص ٢٥٢

٥/ مجمع الأمثال : الميداني ، ٦٢/١

٦/ الديوان ، ص ٦٨

ويضمن العماد أشعاره كثيرا من قصص السيرة النبوية ، فقد اعتبر العماد شاور وتعاونيه مع الصليبيين لا يقل عن دور بني قريظة وبني النضير في مساندة كفار قريش في عدوانهم على الرسول صلى الله عليه وسلم إبان غزوة الخندق ، ويقرنه بفرعون مصر في ظلمه وطغيانه قائلا : (١)

لَاذَ بِالنَّيْلِ شَاوِرٌ مِثْلَ فِرْعَوْنَ نَ فَذَلَ الْلَاجِئُ وَعَزَّ الْعَبُورُ
شَارَكَ الْمُشْرِكِينَ بَغْيًا وَقَدَمًا شَارَكْتُهَا قَرِيطَةً وَالنُّضِيرُ

وضمن شعره كذلك بعض قصص الأنبياء ، ومن ذلك قوله يمدح نور الدين محمود : (٢)

وَإِنْ بَغَى جَالُوتُهَا ضَلَالَةً فَأَنْتَ فِي إِهْلَاكِهَ دَاوُدُهَا

فجالوت: جبار إتكل على قوته وقامته ، وتدجج بزرد الحديد ، وطلب للمبارزة واحدا من بني اسرائيل فلم يجسر على مقاومته إلا داود النبي الذي نازله وقتله (٣) .

لقد عني العماد بتخير الفاظه ولائم بينها وبين المعاني التي استمدتها من التراث إضافة إلى ما اكتسبه من البيئة التي عاش فيها ، وقد أشار في أكثر من مناسبة الى اهتمامه بالألفاظ والمعاني ومن ذلك قوله مفتخرا بأشعاره : (٤)

جَمَعْتُ لَفْظًا ، وَمَعْنَى شَائِقًا بَعْدًا فِي الْحُسْنِ مَرْمَى وَمَرَامًا
هِيَ رَاحٌ كَيْفَ حَلَّتْ عَجَبًا وَهِيَ سَحَرٌ كَيْفَ مَا كَانَتْ حَرَامًا

وقوله أيضا في مدح أبي الفضل عبد الله بن الوزير : (٥)

١/ الديوان ، ص ١٨١

٢/ المصدر نفسه ، ص ١٤٥

٣/ قصص الأنبياء : للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير ، دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ، ص ٤٧٨ .

٤/ الديوان ، ص ٣٧٥

٥/ المصدر نفسه ، ص ٣٦٠

إِلَيْكَ سَرْتُ مِنِّي مَطَايَا مَدَائِحٍ مِنْ الشُّكْرِ وَالْإِحْمَادِ مَوْقِرَةَ الْحَمْلِ
تَهْذِبَ مَعْنَاهَا بِصَقْلِي لَفْظَهَا كَمَا بَانَ أَثَرُ الْمَشْرِفِي لَدَى الصَّقْلِ

الفصل الرابع

بناء القصيدة

حظي بناء القصيدة العربية باهتمام كثير من أهل الأدب ونقاد العربية ، فوقفوا عند مطلعها ، والانتقال والتخلص من مطلع القصيدة الى الغرض الذي يصبوا اليه الشاعر ، كما وقفوا عند خاتمتها وهم في كل ذلك يحددون الطريقة ، والسبيل الذي ينبغي للشاعر أن يتبعهما في بناء القصيدة .

والحديث عن بناء القصيدة يقودنا إلى أن نفصل القول ونبسطة في هذه القضايا الثلاث التالية:-

المبحث الأول:

مطلع القصيدة :-

اهتم النقاد العرب اهتماما كبيرا بمطلع القصيدة ، واعتنوا به عناية فائقة، وذلك لأن الشعر كما يقول ابن رشيق (قفل أوله مفتاحه ... وحسن الافتتاح داعية الإنشراح ومطية النجاح ..) (١) . فقد كان العرب حريصين على جودة المطلع ، لأنه أول ما يطرق السمع من الكلام ، ويكون له أثر في نفس سامعه، فإن كان الإبتداء لائقا بالمعنى الوارد توافرت الدواعي على استماعه (٢). ويقول القزويني : (وأحسن الإبتداءات ما ناسب المقصود ، ويسمى براعة الاستهلال) (٣). واعتبر ابن قتيبة القصيدة العربية الجاهلية منهجا ونموذجا يسير عليه الشعراء من حيث مقدمتها الطللية أو الغزلية ، ووصل ذلك بالمديح (٤) .

ومطالع القصائد عند العماد تختلف من قصيدة لأخرى منها :

-
- ١/ العمدة ٢١٧ / ١
٢/ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ابن لأثير (أبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصلي) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، صيدا - بيروت ، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م ، ج ٢ ، ص ٢٢٤
٣/ الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٤٨٥
٤/ الشعر والشعراء : لابن قتيبة ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦ م ، ١ / ٧٥ .

المقدمة الطللية :-

افتتح العماد بعض قصائده بالمقدمات الطللية وحاكى بها الشعراء الأقدمين، في الاحتفاظ بالعناصر البدوية ، وبأسماء الأماكن البدوية ، وقلدهم في رسم الصور والتشبيهات ، ومن قصائده التي استهلها بالوقوف على الأطلال سينيته التي تأثر فيها بسينية البحتري المشهورة (١) . فيقول العماد : (٢)

وطعاض من ذكراكم وحشتي أنسا غدث بلسان الحال ناطقة خرسا وقد كررت من درس آثارها درسا	أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا وأسأل عنكم عافيات دوارس معاهدكم ما بالها كعهدكم
---	---

فهو يقف إزاء ديار محبوبته الدارسة ، متسائلاً ، كعادة الشعراء الجاهليين
عن أحبته ، ولكن لا مجيب .

وفي مقدمة طللية أخرى يقف العماد على الأطلال يبكي ويستبكي ،
ويطمع في زيارة طيف أحبته ليلاً ، حتى يشفي قلبه ، ولكنه بات بعد
فراقهم مسهداً أرقاً ، لأمل حتى في زيارة الطيف ليخفف عنه ما هو فيه ،
ويزرف دونهم الدموع حراً ، ويعتب على هذا اللائم الذي يلومه على
حبه قائلاً : (٣)

صَبُّ لَتَذْكَارِ أَهْلِ الْجَزَعِ ذُو جَزَعٍ أَطَاعَهُ دَمْعُهُ وَالصَّبْرُ لَمْ يُطْعِ
وَكَانَ يَطْمَعُ فِي طَيْفٍ يُلْمُ وَقْدَ بَانَ الرُّقَادُ فَمَا فِي الطَّيْفِ مِنْ طَمَعٍ
يَا لَأَنَّمَا يَدْعِي نُصْحَ الْمَحَبِّ وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُ وَجْدَهُ سَمْعاً وَلَمْ يَدْعِ

١/ (صنت نفسي عما يندس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس)
ديوان البحتري ، شرح وتقديم حنا الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ —
١٩٩٥ م ، المجلد الثاني ، ص ١٨ .
٢/ الديوان ، ص ٢٣٠
٣/ المصدر نفسه ، ص ٢٩٢

وكثيراً ما كان العماد يذكر في مقدمات قصائده أسماء بعض أماكن
البادية ، على عادة الشعراء الجاهليين ، فذكر نجد ، والعذيب ، وكاظمة ،
كما في قوله يذكر نجداً : (١)

رعى الله نجداً ، إذ شكرنا بقربكم
قصارَ ليالي العيش بين قصوره

ويذكر العذيب قائلاً : (٢)

ما كان أعذب بالعذيب لدى الصبا

عِشاً أَمِنْتُ فَنَاءَهُ بِفَنَائِهِ

إِذْ كَاسَمَهُ مَاءُ الْعُذَيْبِ وَأَهْلُهُ

فِي الْعِزِّ تَحْسُدُهُمْ نَجُومُ سَمَائِهِ

ومن المعاني القديمة في الشعر العربي التي ردها العماد في مقدمته
الطللية الدعاء لديار المحبوبة بالسقيا ، فيقول : (٣)

سَقَى صَوْبُ الْحَيَا تَلْعَاتِ نَجْدٍ وَحَيَا بِالْحَمَى تِلْكَ التَّلَالَا

ومن المعاني القديمة التي تطرق إليها العماد واستهل بها بعض قصائده
ذكر رياح الشمال ، والدعوة بالسقيا لديار محبوبته قائلا : (٤)

بِاللَّهِ يَا رِيحَ الشَّمَالِ تَحْمَلِي مَنِي التَّحِيَّةِ نَحْوَ ذَاكَ الْمَنْزَلِ
خَفِي عَلَيَّ حَمْلَ السَّلَامِ وَخَفِي عَنِ قَلْبِ صَبِيٍّ
بِالصَّبَابَةِ مَثْقَلٍ ِ

١ / الديوان ، ص ٢١٨

٢ المصدر نفسه ، ص ٦٦

٣ / المصدر نفسه ، ص ٣٣٢

٤ / المصدر نفسه ، ص ٣٥٢

حتى يقول :

سقياً لأحبابٍ تبدلَ وُدْهم بَعْدِي ولم أنقضْ ولم أتبدل
يا راكباً يطوي الفلا مستعجلاً هَيَجَتْ أحراني فلا تستعجل
أقفلت بابَ مسرّتي وفتحتَ من دمعي وحزني كل بابٍ مقفل
عرجٌ وعُجٌّ نحو الحمى سقي الحمى أعدلُ فليس عن الحمى من معدل

مزج العماد المعاني القديمة في بعض قصائده بما أملتة عليه بيئته
الحضرية فدعى لديار أحبته (في العراق) بالسقيا قائلاً : (١)

سقى الله العراق وساكنيه وحياءُ حيا الغيثِ الهتون

المقدمة الغزلية :-

افتتح الشعراء الجاهليون كثيراً من قصائدهم بالمقدمات الغزلية ،
وتحدثوا فيها عن الفراق والرحيل وما يتركه من أثر في نفوسهم من
حسرة وشوق ولهفة ، سرعان ما تفد على خواطرهم ذكرياتهم الجميلة
الحلوة التي كانوا يلتقون فيها بأحبتهم ، فيبادلونهم إعجاباً باعجاب وشوقاً
بشوق .

فالمقدمة الغزلية تعد من أهم العناصر الأساسية التي درج الشعراء
على افتتاح قصائدهم بها على مختلف العصور ، وللشعراء في ذلك
مذاهب شتى ، فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال وتوقيع البين
والإشفاق منه ، وصفة الطلول والحمول والتشوق بحنين الابل ولمع
البروق ومرالنسيم ... أما أهل الحاضرة فيأتي أكثر تغزلهم في الصد
والهجران والواشين والرقباء ومنعة الحرس والابواب ، وفي ذكر
الشراب والندامى والورود والبساتين والرياض ... (٢)

وإذا انتقلنا إلى شاعرنا العماد فإننا نجده قد حافظ إلى حد ما على

٣٦

١/ الديوان ، ص ٤٢٣

٢/ العمدة ٢٢٥/١

التقاليد التي أرساها الشعراء من قبله في إفتتاح كثير من قصائده بالمقدمات الغزلية ، وانتهج نهجهم في كثير من الأساليب والصور المعهودة ، وإن خرج في بعض الأحيان على تلك التقاليد القديمة، متبعاً مسلك شعراء عصره وما أملت عليه البيئة الحضرية الجديدة ، فمزج الغزل بوصف مناظر الطبيعة وذكر الخمر ومجالسها ووصف السقاة ومجالس اللهو وغيرها من العناصر الجديدة ، فكان العماد بذلك يزاوج بين العناصر الموروثة والعناصر المستحدثة .

وإذا نظرنا في شعر العماد نجد المقدمة الغزلية قد إتخذت شكلين مختلفين : الأول هو ما سلك فيه مسلك الشعراء العذريين ، فتغزل فيه غزلاً عذرياً عفيفاً ، يصف فيه شدة تعلقه بالمحوبة وما يعانيه من تباريح الشوق والآلام والصبابة ، وما يكابده من عذاب البين وهجر المحبوبة وصدها عنه ، ويصف خضوعه وتذللها إليها . أما الشكل الثاني فهو ما إتجه فيه إلى الغزل الصريح ، فوصف محاسن المحبوبة ومفاتنها الجسدية وهو اللون السائد والغالب في مقدماته الغزلية ، ومن أمثلة ذلك في فواتح قصائده قوله : (١)

جفونُ البيضِ أم بيضُ الجفونِ	وسُمرُ الخطِ أم هيفُ الغصونِ
قيانُ ناظراتٍ عن نصولِ	أحدتُ غربها أيدي القيونِ
مريضاتُ المعاطفِ والتثني	سقيماتُ اللواحظِ والعيونِ
سوافرُ، مشرفياتُ التجلي	سواحرُ مشرقياتُ الجفونِ
حللن ببابلٍ وحللن سحرأ	عقودَ عقولنا بيدِ الجفونِ
سلبن القلبَ حين سكن فيه	منحنَ غرامه بعد السكونِ

فهو يتغزل بجارية ، ويصفها بأنها رشيقة القوام ساحرة الطرف لينة المعاطف ، ناعسة العيون ، سلبت قلبه بسحرها الأخاذ وبجمالها الفاتن .

ولشاعرنا العماد كثير من القصائد التي نظمها في المدح وفي أغلب الأحيان يفتتحها بمثل هذا الغزل الحسي الصريح ، ومن ذلك مطلع

قصيدته التي مدح بها السلطان صلاح الدين الأيوبي قائلا : (١)

سَلَطْتَ الْمَطْلَ عَلَى نَجَازِهَا	وَضِيعَتْ حَقِي فِي مَجَازِهَا
وَصَالَهَا مِنَ الْحَيَاةِ مُنِيَّتِي	مَنْ لِي بِالْفُرْصَةِ فِي انْتِهَازِهَا
وَجَنَّتْهَا الْوَرْدَةُ فِي أَحْمَرَارِهَا	وَقَدَّهَا الْبَانَةُ فِي إِهْتِرَازِهَا
شَمْسُ الضُّحَى فِي الْحَسَنِ لَمْ تُضَاهِهَا	بَدْرُ الدُّجَى فِي التَّمِّ لَمْ يَوَازِهَا

أما القصائد التي افتتحها بالغزل العذري العفيف فهي قليلة مقارنة بالمقدمات التي استهلها بالغزل الحسي الصريح ، ومن أمثلة قصائده التي بدأها بالغزل العفيف قوله : (٢)

لَا تَفَنِّ مِنْ فَرَقِ الْفِرَاقِ الْأَدْمَعَا	فَهِيَ الشُّهُودُ عَلَى الْغَرَامِ الْمَدْعَى
وَاسْتَبَقَ صَبْرَكَ مَا اسْتَطَعَتْ فَإِنَّهُ	عَوْنٌ لِقَلْبِكَ إِنَّ هُمَا ثَبَتَا مَعَا
قَلْبٌ أَصَابَتْهُ الْعَيُونُ ، وَلَمْ يَزَلْ	مِنْ مَسِيهَا بِالْهَاجِسَاتِ مَرَوَعَا
مَا بَالُهُ قَدْ صَدَّ عِنْدَ صُدُودِهِمْ	عَنِّي ، وَلَمَّا وَدَّعَوْنِي وَدَّعَا
وَمِنَ التَّحْيِيرِ أَنَّنِي أَبْصَرْتُهُ	فِي ظَنُّهُمْ ، وَسَأَلْتُ عَنْهُ الْأَضْلَعَا
أَصْبَحْتَ إِذْ شَيَّعَتْهُمْ لثَلَاثَةٌ :	صَبْرِي ، وَغَمْضِي ، وَالْفَوَادِ مُشَيَّعَا

في هذه الأبيات يصف العماد أشواقه الجامحة وما يعانيه من لوعة، إثر فراق أحبته ، ويطلب من عينيه أن تزرِف العبرات عبرة بعد عبرة دون توقف ، فهو ملتحاح وفي حيرة من أمره ، حين وداع أحبته، فقد ودع معهم صبره ونومه وقلبه .

وكثيرا ما كان العماد يذكر البرق في شعره ، وما يخلفه من أثر في نفسه ، فيجتز ذكريات الهوى والشوق لأحبه ومن ذلك قصيدته التي

١/ الديوان ، ص ٢٢٤

٢/ المصدر نفسه ، ص ٢٨٧-٢٨٨

استهلها بقوله : (١)

تَأْلُقُ بَرْقٌ مِنْ تِهَامَةٍ لَامِعٍ يَبْشُرُ أَنْ اللَّهَ لِلشَّمْلِ جَامِعُ
يَحَاكِي خَفُوقُ الْقَلْبِ مِنْ خَفُوقِهِ فَهَلْ رَاعَهُ مِثْلِي مِنَ الْبَيْنِ رَائِعُ
لَقَدْ طَالَ لَيْلِي لِإِنْتَظَارِ صَبَاحِكُمْ فَهَلْ لَتَبَاشِيرِ الصَّبَاحِ طَلَائِعُ

ومن مقدماته الغزلية التي ذكر فيها العذول قصيدته الميمية التي استهلها
بقوله : (٢)

رَسَمْتُ عَلَى لَذِكِ الرَّسَمِ أَنِي أَقَاسِمُهُ ضَنْيَ الْجَسَمِ
دَارٌّ عَلَى حَرْبِ الزَّمَانِ لَنَا جَنَحْتُ بِهَا سَلْمِي إِلَى سَلْمِي
مَا لِلْهُوَى أَبَدًا يَلَازِمُنِي فِيهَا ؟ فَهَلْ كُتِبَ الْهُوَى بِاسْمِي ؟
يَا صَاحِ ! تَعَذُّنِي عَلَى شَغْفٍ مَا زَالَ يَعْذُرُنِي لَهُ خَصْمِي (٣)

فهو يقف على آثار ديار محبوبته الدارسة ، ويسمي هذه المحبوبة
سلمى على نهج الشعراء القدامى ، ويجتر ذكريات الهوى بأحبه
ويسكب دونهم العبرات ، ويطلب من العاذل ألا يلومه لأن خصمه يعذره
في ذلك .

وتحدث في مقدماته الغزلية أيضا عن الرقباء ، قائلا : (٤)

لِظَبَاءٍ كَاطِمَةٍ مُقَابِلَتِي غِيظُ مِنَ الرُّقَبَاءِ بِالْكَظَمِ

ومن قصائده التي استهلها بالهجر قوله : (٥)

١/ الديوان ، ص ٢٨٩

٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٩٤

٣/ شغفه الحب شغفا : أحرق قلبه ، وقيل أمرضه

٤/ الديوان ، ص ٣٩٦

٥/ المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣

هَجَرْتَكُمْ لَا عَنْ مَلَالٍ وَلَا غَدْرٍ وَلَكِنْ لِمَقْدُورٍ أُتِيحَ مِنَ الْأَمْرِ
وَأَعْلَمُ أَنِّي مَخْطِئٌ فِي فِرَاقِكُمْ وَغُدْرِي فِي ذَنْبِي وَذَنْبِي فِي غُدْرِي
أَرَى نُوبًا لِلدَّهْرِ تَحْصَى وَمَا أَرَى أَشَدَّ مِنَ الْهَجْرَانِ فِي نُوبِ الدَّهْرِ

ويكثر العماد من القصائد التي استهلها بالهجرومن ذلك قوله : (١)

قَضَى عَمْرَهُ فِي الْهَجْرِ شَوْقًا إِلَى الْوَصْلِ
وَأَبْلَاهُ مِنْ ذِكْرِ الْأَحِبَّةِ مَا يُبْلِي

وَكَانَ خَلَى الْقَلْبَ مِنْ لَوْعَةِ الْهَوَى
فَأَصْبَحَ مِنْ بَرْحِ الصَّبَابَةِ فِي شَغْلِ

مقدمة وصف الظعن والفراق والرحيل :-

كانت مقدمة الظعن من المقدمات الأساسية في القصائد الجاهلية ، وهي تتضاءل في قصائد الشعراء المخضرمين الإسلامية وتتحول إلى مقدمة فرعية (٢). وتكاد تختفي عند الشعراء المتأخرين الذين تأثروا بواقع بيئاتهم الحضريّة الجديدة وأعرضوا عن مثل هذه المقدمات التقليدية إلا في النذر اليسير عندما يستبد بهم الحنين إلى الماضي .
وقد إفتتح شاعرنا العماد بعض قصائده بوصف الظعن والفراق والرحيل ، ولكنها قليلة جدا في شعره ، ومن ذلك قصيدته التي استهلها بقوله : (٣)

أَطَاعَ دَمْعِي ، وَصَبْرِي فِي الْغَرَامِ عَصَى
وَالْقَلْبُ جَرَعَ مِنْ كَأْسِ الْهَوَى غَصَصَا

١/ الديوان ، ص ٣٥٥
٢/ مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام : حسين عطوان ، الطبعة الاولى ، دار الجيل بيروت ، ١٩٨٧م ، ص ٥٣
٣/ الديوان ، ص ٢٤٩

ما أطيبَ العيشَ بالأحبابِ لو وصلوا
وأسعدَ القلبَ من بلواه لو خلا !
زَمُوا فُؤادي وصبري والكرى معهم
غداةَ بَأنوا، وزمُوا للنوى القلصا
وقفتُ أتبعهم قلبي يسايرهم
وأرسلُ الدَمعَ في آثارهم قَصصا
ومقلة طالما قَرَّتْ برويتهم
أضحى السهادُ لها من بعدهم رمصا

ففي هذه الأبيات يصف الشاعر أحزانه وأشواقه فهو جزع ملتاع ، متالم أشد الألم عند فراق أحبته ورحيلهم ليس له سوى أن يزرع الدموع في آثارهم ، ويتتبعهم من بعيد ببصره ، وقلبه قد سار معهم ، ويفارق النوم عينه ويصبح مسهدا مسهرا .

ومن مقدماته الغزلية التي رسم فيها صورة الفراق ورحيل الأحبة ، قوله : (١)

لَمَّا أَصَابَ الصَّابَ فِي الشَّهْدِ	شَهِدَ الْوَدَاعَ فزاده ألماً
يَشْكُو صَدَى وَيُشَاكُ مِنْ صَدِ	رَحْلُوا وَقَلْبِي فِي رَحَالِهِمْ
نَفْسِي ، وَقَلْتُ خَدِي عَلَى خَدِي (٢)	أَلْقَيْتُ عِنْدَ مَسَارِ عَيْسِهِمْ
لِلْبَيْنِ مِنْ حَدْوٍ عَلَى حَدِ	نَادَيْتُ حَادِيَهُمْ بَعَيْسِكَ قَفْ
مَمَّا بَدَا لِلْبَيْنِ مِنْ بُدِ	رَفَقاً بِعَيْسِهِمْ أَمَّا لَهُمْ
جَلْدِي الضَّعِيفَ الْآسَ بِالْهَدِ	فَأَهْدَأُ - هُدَيْتَ - فَمَذْ حُدُوتَ رَمُوا

فالشاعر يرسم مشهد الوداع وما يكابده من ألم ، وشدة شوق حين رحيل أحبته ، فنراه جزعا لا يطيق هذا الرحيل وينادي حاي عيسهم أن يقف ويتخلى عن هذا الرحيل ، وفي عبارة رقيقة يطلب من حادي العيس أن

١/ الديوان ، ص ١٣١

٢/ الخدو : الحداء

يترفق بأحبه فيقول (رفقا) إذا لم يكن هنالك خلاف للبين ، ثم يبين أثر هذا الفراق على نفسه وقلة صبره .

المقدمات الجديدة : -

كان للحياة الحضرية الجديدة التي طرأت على البلاد العربية والإسلامية ، ولدعوة بعض الشعراء للعزوف عن القديم ومسيرة الواقع الحضاري الجديد ، كل ذلك كان إيذانا بمولد معان وأفكار جديدة .
وشاعرنا العماد مثلما افتتح بعض قصائده بالمقدمات التقليدية على نهج الأقدمين ، ساير شعراء عصره في استهلال قصائده ببعض المقدمات الجديدة التي تعكس تأثره بالبيئة الحضرية ، مثل مقدمة وصف الطبيعة ، ووصف المدن ، ومقدمة التهئة ، ومقدمة الحنين والشوق إلى الوطن ، ومقدمة قصائد الجهاد .

مقدمة وصف الطبيعة : -

إن مقدمة وصف الطبيعة هو خير ما يعكس تأثر شاعرنا العماد ببيئة الشام ومناظرها الخلابة وطبيعتها الأخاذة ، فهو لا يستطيع أن يغيب عنها، فقال في وصف دمشق قصيدة بلغت خمسة وأربعين بيتا استهلها بقوله : (١)

أَهْدَى النسيمُ لنا رِيَا الرياحين
أُم طَيْبَ أَخلاقٍ جِيرانِي بجيرونِ
هَبَّتْ لنا نَفْحَةً في جَلقٍ سَحَرًا
بَاَحَتْ بِسرٍ مِنَ الفردوسِ مكنونِ

وفاح بالعَرْفِ من أرجائها أَرْجُ
نالَ المسرةَ منه كُلُّ محزونٍ

إلي أن يقول :

دمشقُ عندي لا تُحصَى فضائلُها
عداً وحصراً ويُحصَى رَمْلُ يَبْرينِ

وما أرى بلدةً أخرى تماثلُها
في الحسنِ من مصرَ حتى مُنتهى الصينِ

ونظم قصيدة أخرى في وصف الشام ، ووصف مدنها بالترتيب حينما سار من الشام الى مصر ، في قصيدة بلغت واحدا وخمسين بيتا، وأوضح ذلك قائلا : (ونظمت في طريق مصر سنة ٥٧٢ للهجرة قصيدة مشتملة على ذكر المنازل بالترتيب ، وإيراد البعيد منها والقريب ...) (١). حيث استهلها بقوله : (٢)

هجرتكم لا عن ملالٍ ولا عُدْرٍ ولكن لمقدورٍ أتيج من الأمرِ

مقدمة الشوق والحنين إلى الوطن والأحباب :

ذكرنا من قبل أن شاعرنا العماد عاش متنقلا بين العراق والشام ومصر ، لذا كثيرا ما كانت تهتاجه الذكريات ، ويستبد به الشوق والحنين إلى وطنه الشام حيث مرابع الأهل والأحباب والأصدقاء ، وقد استهل

١/ الديوان ، ص ٢٠٢
٢/ المصدر السابق، نفس الصفحة

الشاعر بعض قصائده يصف فيها نزوعه وحنينه إلى وطنه ، منها هذه المقدمة : (١)

أجيرانَ (جيرونَ) مالي مجيرُ ومالي سوى طيفكم زائرُ وما كنتُ أعلمُ أني أعي إلى ناسٍ (باناس) لي صَبوةٌ يزيدُ اشتياقي وينمُ و ، كما ومن (بردى) برْدُ قلبي المشوق	سوى عطفكم فأعدلوا أو فجوروا فلا تمنعوه إذا لم تزوروا شُ بَعْدَ التفرُّقِ إني صَبور لها الوجدُ داعٍ وذكري مُثيرُ (٢) (يزيدُ) يزيدُ و (ثوار) يثور (٣) فها أنا من حره مُستجيرُ (٤)
--	--

وهو في هذه الأبيات يهتاجه الشوق إلى وطنه الشام ، وذكرياته مع أحبته وأصدقائه في مدن الشام المختلفة فيذكرها واحدة تلو الأخرى ، فذكر دمشق أي (جيرون) و باناس ، ويتذكر أيامه بنهري يزيد و ثوار ، ويتذكر نهر بردى .

وفي مقدمة أخرى يأخذه الشوق ويعز عليه فراق وطنه وأحابيه ، فحينما فارق دمشق في صحبة صلاح الدين إلى القاهرة وهو في الطريق حن إلى أحابيه وأصدقائه واشتاق إلى وطنه ودياره فأخذه الشوق أيما مأخذ وطافت بخياله ذكرياته ، فذكر المنازل بالترتيب وأورد منها البعيد والقريب قائلا : (٥)

تذكرتُ أحابي بخلق بعدما أخلاي فقري في التناي اليكُم وناديتُ صبري ممتغيئاً فلم يجبْ ولما قصدنا من دمشق غباغبا	ترحلتُ ، والمشتاقُ يأنسُ بالذكرِ بحقِ غناكم بالتداني أرحموا فقري فأسبلتُ دمعي للبكاء على صبري وبتنا من الشوقِ الممضِ على الجمرِ (٦)
---	--

١/ الديوان ، ص ١٨٥

٢/ باناس من أنهار دمشق (معجم البلدان ١ : ٣٣٠)

٣/ يزيد و ثوار : نهران بدمشق (معجم البلدان ٢ : ٨٦ ، ٥ : ٣٣٦)

٤/ بردى : أعظم أنهار دمشق (معجم البلدان ١ : ٣٧٨)

٥/ الديوان ، ص ٢٠٤

٦/ غباغب: قرية في نواحي دمشق

نزلنا بصحراء الفقيع وغودرت فواقع من فيض المدامع في الغدر
(١)

ونهنهت بالفوار فور مدامعي ففاضت وباحت بالمكتم من سري (٢)
سرينا الى الزرقاء منها، ومن يصب أواماً يسر حتي يرى الورد أو يسر
أعدتك يا زرقاء حمراء أدمعي فقد مزجت زرق الموارد بالحمرة
وسود هومي سودت بيض أزمني فيومي بلا نور وليلي بلا فجر
تذكرت حمام القصير وأهله وقد جرت بالحمم في البلد القفر
وبالقريتين القريتين ، وأين من مغاني الغواني منزل الأدم والعفر
وردنا من الزيتون حسمى وأيلة ولم نسترخ حتي صدرنا الي صدر
(٣)

فهو يذكر دمشق ، وغباب ، والفقيع ، والفوار ، والزرقاء ، وحمم
القصير ، والقريتين ، والزيتون ، وحسمى ، وأيلة ، و صدر .
ويستمر في ذكر المنازل والأماكن حتي بلغت القصيدة واحدا وخمسين بيتا

مقدمة القصائد الحماسية : —

فقد دعى بعض شعراء المواجهه إلى ترك المقدمات التقليدية
في شعرهم ، وأعلنوا أن الوقوف على الأطلال والتشبيب بالنساء لم يكن
له معنى في هذا الوقت الذي تكتوي فيه الأمة العربية الإسلامية بنيران
الحروب الصليبية ، فدعوا الي ترك تلك المقدمات والبدء مباشرة بوصف
المعارك وتصوير ما يدور في ساحاتها .

ومن يستعرض قصائد الحماسة في هذا العصر يدرك إهمال المقدمات
الغزلية والطللية إلا القصائد التي قلد فيها أصحابها الشعراء القدماء
وتناولت عددا من الموضوعات لا حادثة بعينها أو كان هدف الشاعر من
صياغتها المدح أولا وآخرا ، وفي ثنايا المدح تأتي الإشادة بوقائع
الممدوح وانتصاراته على الصليبيين ووصف شجاعته ، وغير ذلك من
الموضوعات (١).

وقد اختلفت مقدمات القصائد الحماسية وتباينت فافتتح بعض الشعراء
قصائدهم بالحديث عن النصر الذي حققه القائد وبيان أهميته في مجال
حماية الدين وإعزازه وتثبيت أركانه ، وفي هذا يستهل العمد إحدى
قصائده في مدح نور الدين بالتغني بالنصر الذي أحرزه على الفرنج في

حوران سنة ٥٨٦ هـ فيقول: (١)

عُقِدَتْ بِنَصْرِكَ رَايَةَ الْإِيمَانِ وَبَدَتْ لِعَصْرِكَ آيَةُ الْإِحْسَانِ
يَا غَالِبَ الْغُلَبِ الْمُلُوكِ وَصَائِدَ الدِّمَارِ صَيْدَ اللَّيْثِ وَفَارِسَ الْفَرَسَانِ
يَا سَالِبَ التَّيْجَانِ مِنْ أَرْبَابِهَا حُزْتَ الْفَخَارِ عَلَى ذَوِي التَّيْجَانِ

وحينا فتح صلاح الدين الأيوبي قلعة بعلبك هنا العماد بقصيدة استهلها
بالتغني بالنصر قائلا : (٢)

بِفَتْوحِ عَصْرِكَ يَفْخَرُ لِاسْلَامٍ وَبِنُورِ نَصْرِكَ تَشْرِقُ الْأَيَّامُ
وَبِفَتْحِ قَلْعَةٍ بِعَلْبِكَ تَهْدَبُ هَذِي الْمَمَالِكُ وَاسْتِقَامُ

الشام

ومن المقدمات الجديدة في هذا العصر، ذكر نتيجة المعركة ،
أو الاستبشار بالنتيجة المرتقبة وبيان أن النصر لم يأت بسهولة ويسر، ومن
ذلك افتتاحية القصيدة التي هنا بها العماد القائد أسد الدين شيركوه لما
استقل بوزارة مصر : (٣)

بِالْجِدِّ أَدْرَكْتَ مَا أَدْرَكَتْ لَا اللَّعِبِ
كَمْ رَاحَةٌ جُنَيْتَ مِنْ دُوْحَةِ التَّعَبِ
يَا شِيرْكُوَةَ بْنَ شَاذِي الْمَلِكِ دَعْوَةَ مَنْ
نَادَى فَعَرَفَ خَيْرَ ابْنِ بَخِيرِ أَبِ

وقوله في مقدمة أخرى يمدح بها أسد الدين شيركوه : (٤)

بَلَّغْتَ بِالْجِدِّ مَا لَا يَبْلُغُ الْبَشَرُ وَنَلْتَ مَا عَجَزَتْ عَنْ نَيْلِهِ الْقُدْرُ
يَهْتَدِي لِلَّذِي أَنْتَ أَهْتَدَيْتَ لَهُ وَمَنْ لَهُ مِثْلُ مَا أَثَرْتَهُ أَثَرُ!

١/ الديوان ، ص ٤١٠

٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٧٧

٣/ المصدر نفسه ، ص ٧٩

٤/ المصدر نفسه ، ص ١٦٩

وحمّد بعض الشعراء في مطالع قصائدهم قادة الجهاد وبينوا وجوب طاعتهم وامتنال أوامرهم ومن ذلك مطلع قصيدة العماد التي قالها في مدح الخليفة الناصر لدين الله في فتح القدس: (١)

ورثتُ مِنْ سَلَفِي رَقِي لَطَاعَتِهِ وَذَلِكَ الرِّقُّ لِلْأَسْلَافِ أَحْسَابُ
مَا كَانَ لَوْلَا الرِّضَا وَالسُّؤْلُ مِنْهُ لَنَا خَصْبٌ وَمَحَلٌّ وَإِجْدَاءٌ وَإِجْدَابُ

وفي مطلع قصيدة أخرى يقول العماد: إن عليه فروض شكر لصالح الدين الأيوبي ، في قصيدته التي مدحه بها حينما تسلم الملك بمصر : (٢)

بِالْمَلِكِ النَّاصِرِ اسْتَنَارَتْ فِي عَصْرِنَا أَوْجُهُ الْفَضَائِلِ
عَلَيَّ مِنْ حَقِّهِ فَرُوضٌ شُكْرًا لِمَا جَادَ مِنْ نَوَافِلِ

ومن المقدمات التي استحدثها شعراء المواجهه في عصر الحروب الصليبية البدء بتهنئة القادة بالنصر والدعاء لهم ، ويرتبط ذلك بالاستهلال بالبشرى ، كقول العماد يهنئ نور الدين محمود بفتح قلعة منبج : (٣)

بُشْرَى الْمَمَالِكِ فَتَحُ قَلْعَةَ مَنْبَجٍ فَلْيَهْنِ هَذَا النَّصْرَ كُلُّ مَتَوَجٍ
أَعْطِيَتْ هَذَا الْفَتْحَ مِفْتَاحاً بِهِ فِي الْمَلِكِ يَفْتَحُ كُلَّ بَابٍ مُتَرَجٍ
وَافِي يُبَشِّرُ بِالْفَتْوحِ وَرَاءَهُ فَانْهَضْ إِلَيْهَا بِالْجِيوشِ وَعَرَجِ
أَبْشُرُ فَبَيْتُ الْمَقْدَسِ يَتْلُو مَنْبَجاً وَلَمَنْبِجٍ لِسِوَاهُ كَالْأَنَمِ وَذَجِ

ومن الصور الجديدة للمقدمات التي تناسب موضوع النصر، استهلال القصيدة بالحمد والتكبير، ومن ذلك مطلع قصيدة العماد التي قالها حينما

١/ الديوان ، ص ٧٤

٢/ المصدر نفسه ، ص ٣٢٤

٣/ المصدر نفسه ، ص ١٠٢

تسلم نور الدين محمود الموصل وعاد منصوراً : (١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ فُزْنَا وَالْمُطَالِبِ حُزْنَا
حُزْنَا السُّرُورَ وَمَاتَ الْ- حَسُودُ غَمًّا وَحُزْنَا

وهكذا تعددت بدايات القصائد الحماسية عند العماد ، وتنوعت وتباينت في أساليبها ومعانيها ، ومع ذلك لم تختف القصائد ذات المقدمات الغزلية والطللية في شعره ، بل ظلت تلك القصيدة ذات المقدمة التقليدية تشد شعراء المواجهة بين حين وآخر فيطلقون لأنفسهم معها العنان .

المبحث الثاني التخلص والخروج

حسن التخلص هو خروج الشاعر من المقدمة إلى موضوع القصيدة بطريقة بارعة ، لا يشعر فيها السامع بمفاجأة الانتقال من المقدمة إلى الموضوع ، ويقول عنه الحموي : (هو أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه ، بتخلص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا دقيق المعنى ، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني ، لشدة الممازجة والإلتئام والإنسجام بينهما حتى كأنهما افرغا في قالب واحد) (١) .

وحسن التخلص ينقسم إلى قسمين : قسم أجاد فيه الشعراء فربطوا بين المقدمة وموضوع القصيدة فسمي بحسن الخروج (٢) . أو بالتخلص والتوسل (٣) . وقسم لم يعتن الشعراء بأن يربطوا بين المقدمة وموضوع القصيدة ، فعدها البلاغيون عيبا من عيوب القصيدة ، وسموه طفرا وانقطاعا (٤) . وسمي اقتضابا. يقول القزويني : (وقد ينتقل من الفن الذي شبب الكلام به إلى ما لا يلائمه ، ويسمى ذلك الاقتضاب) (٥)

وإذا نظرنا في شعر العماد نجده قد اعتنى بحسن التخلص وأجاد فيه ، ومن ذلك قوله في إحدى قصائده التي مدح بها صلاح الدين الأيوبي وهو على بعلبك مطلعها : (٦) .

عفا الله عنكم ، مالكم أيها الرهطُ
قسطتم، ومن قلب المحب لكم قسطُ

وبعد المطلع استرسل العماد في النسب ، الذي استغرق ثمانية عشرة بيتا ، أحسن الشاعر الخروج إلى المدح قائلا :

١/ خزانة الأدب ، ٣٢٩/٢
٢/ البديع : ابن المعتز ، طبع مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة ، سنة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٠ م ، ص ١٠٩
٣/ خزانة الادب ، ٣٢٩/٢
٤/ العمدة ١/ ٢١٠
٥/ الإيضاح في علوم البلاغة : الغزويني ، ص ٢٨٨
٦/ الديوان ، ص ٢٧٦

يُلازِمُ قلبي في الهوى القبضُ مثُلما

يُلازِمُ كفَ الناصرِ المَلِكِ البَسْطُ

وطفق الشاعر يمدح صلاح الدين ويشيد بفتوحاته . ومثل هذا التخلص كثير في شعر العماد ومن ذلك قصيدته التي قالها في مدح الملك العادل نور الدين محمود ، ووصف فيها ما أحدثه الزلزال بديار الفرنج التي مطلعها : (١)

هل لعاني الهوى من الأسرِ فادٍ أو لساري ليل الصبابة هادٍ
قوي الشوق فاستقاد دموعي ووهي الصبر فاستقال فؤادي

فقد استهلها بمقدمة تقليدية تحدث فيها عن هواه ، وتيهه في ليل الصبابة ، وتحدث العماد بعد هذا المطلع عن الهجر والوصال ، والقرب والبعد ، ونسيم الأحباب والاشتياق ، والتجلد ، واستغرق ذلك ستة عشرة بيتا ، تخلص بعدها إلى المدح بقوله :

أتمنى في الشّام أهلي ببغدا د، وأين الشّام من بغداد
ما إعتياضي عن حُبهم يعلمُ الله له تعالى، إلا بحُب الجهادِ
واشتغالي بخدمة المَلِكِ العا دل محمود، الكريم الجوادِ

ومضى يمدحه ويشيد بخصاله ، ويمجد بطولته في جهاد الفرنج .

وقوله كذلك يمدح نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي ، ويهنئه

برجوع ابنه صلاح الدين وأخيه شيركوه من مصر ، بقصيدة مطلعها(١)

يَوْمُ النُّوَى لَيْسَ مِنْ عُمْرِي بِمَحْسُوبٍ

وَلَا الْفِرَاقُ إِلَيَّ عَيْشِي بِمَنْسُوبٍ

فقد استهلها بمقدمة تقليدية ، تحدث فيها عن البعاد والفراق وذكرياته الجميلة حينما كان قرب محبوبه ، وهذا الفراق لم يكن بيده وإنما كان مكرها عليه ، واستغرقت هذه المقدمة ثلاثة أبيات فقط تخلص بعدها الي المدح قائلاً :

أَرْجُو إِيَّابِي إِلَيْكُمْ ظَافِراً عَجَلاً

فَقَدْ ظَفَرْتُ بِنَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبٍ

أما القسم الثاني الذي لم يحسن فيه شاعرنا العماد الخروج أو التخلص من المقدمة إلى الموضوع مباشرة دون تمهيد ، فهو قليل جدا في شعره ، ومن ذلك القصيدة التي كتبها على لسان صلاح الدين إلى شمس الدولة توران شاه قائلاً : (٢)

صَبُّ تَوَلَّى حَالَتِيهِ فِي الْهَوَى جَلْدٌ لَهُ عَاصٍ ، وَدَمْعٌ طَيِّعٌ
ذُو نَازِرٍ رُبْعِ الْكَرَى فِي جَفْنِهِ خَالٌ وَحَوْضُ الدَّمْعِ مِنْهُ مُتَرَعٌ
مَوْلَايَ شَمْسَ الدَّوْلَةِ الْمَلِكِ الَّذِي شَمْسُ السِّيَادَةِ مِنْ سَنَاهُ تَطْلُعُ

أرأيت هذا التخلص المفاجئ ، الذي خرج به الشاعر من بعاد أحبته وما تركه في نفسه من أثر سيء ، فهو بعدهم مسهد قلق يذرف الدموع باستمرار لفراقهم ، ثم ينقلنا مباشرة وبدون تمهيد إلى موضوعه الأساسي وهو مدح الملك شمس الدولة بقوله (مولاي شمس الدولة) .

١/ الديوان ، ص ٨٣

٢/ المصدر نفسه ، ص ٢٩٠

المبحث الثالث

خاتمة القصيدة

اهتم النقاد بخاتمة القصيدة ونهايتها ، مثلما اهتموا بالإبتداء والتخلص ، وعناية النقاد بالخاتمة ترجع إلى أهميتها باعتبارها آخر ما يطرق الأذان فيظل صداها عالقا بالنفس . وقد نبه أبو هلال العسكري الشعراء إلى تحسين خواتيمهم فقال : (ينبغي أن يكون آخري بيت قصيدتك أجود بيت فيها وأدخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها) (١). ويقول ابن رشيق : (.. وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون آخره قفلا عليه) (٢) . وسمي انتهاء لأنه آخر ما يعيه السمع ويرتسم في النفس. (٣) وعند استقرارنا لنهايات العماد ، وجدنا أنها قد اتخذت أشكالا متعددة ، وأنماطا متباينة ، فهو غالبا ما يختتم قصائد المديح بالفخر بأدبه وشعره ، أو الدعاء للممدوح بطول العمر ، أما قصائده الأخرى فقد تنوعت خواتيمها فمثلا في الرثاء غالبا ما يختتم بالدعاء بالسقيا لقبر المرثي ، ونجد من نهايات العماد الجميلة قصيدته التي مدح بها الخليفة المقتفي والتي مطلعها : (٤)

أَضَحَتْ ثُغُورُ النَّصْرِ تَبَسُّمٌ بِالظَّفَرِ

وَعَدَتْ خِيُولُ النَّصْرِ وَاضِحَةَ الْغُرْرِ

يختتمها بالفخر بأدبه قائلا :

هَـذِي — أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ — قَصِيدَةٌ
غَرَاءُ تَقْصِدُ قِبَةَ الْمَلِكِ الْأَعَزِّ
حَسَنَاءُ يَهْدِيهَا وَلِيٌّ مُخْلِصٌ
لَكُمْ الْوَلَاءَ فَأُولَاهَا حُسْنَ النَّظَرِ
صُورٌ تَقُومُ بِهَا مَعَانٍ مِنْكُمْ
إِنَّ الْمَعَانِيَ زَايِنَاتٌ لِلصُّورِ

١/ الصناعتين ، ص ٤٣٣

٢/ العمدة ، ٢٣٩/١

٣/ الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٤٨٨

٤/ الديوان ، ص ١٥١

دَقْتُ لِمَعْنَى السِّحْرِ، إِلَّا إِنَّهَا
رَاقَتْ وَرَقَتْ مِثْلَ أَنْفَاسِ السَّحَرِ

وقصيدته التي مدح بها الخليفة المستنجد بالله يختمها أيضا بالفخر بشعره
قائلا: (١)

بَأْبَهَجٍ مِنْ شَعْرِ مَدْحَتِكُمْ بِهِ
وَمَعْنَاكُمْ مَسْتَوْدَعٌ فِي ضَمِيرِهِ
وَمَا حَقَّ هَذَا الشَّعْرَ لَا لَجْرِيرِهِ
وَقَدْ سَارَ فِي الْآفَاقِ جَيْشُ جَرِيرِهِ (٢)

وقصيدته التي مدح بها الخليفة المستنضئ بالله ختمها أيضا مفتخرا بشعره
قائلا: (٣)

وَمَا كُلُّ شِعْرِ مِثْلَ شِعْرِي فَيَكُمُ
وَمَنْ ذَا يَقِيسُ الْبَازِلَ الْعَوْدَ بِالنَّقْضِ (٤)
وَمَا عَزَّ حَتَّى هَانَ شِعْرُ ابْنِ هَانِيٍّ
وَالسُّنَّةُ الْغَرَاءُ عِزٌّ عَلَى الرَّفْضِ
(٥)

ويختم العماد بعض قصائده بالدعاء للممدوح ، ومن ذلك قوله في قصيدة
مدح بها الملك العادل نور الدين محمود قائلا: (٦)

فَابِقَ لَنَا يَا مَلَكًا ، بِقَاوِهِ
فِي نِعْمَةٍ جَدِيدَةٍ سَعَوْدُهَا
فِي كُلِّ عَامٍ لِلرَّعَايَا عِيدُهَا
وَدَوْلَةٍ سَعِيدَةٍ جَدُودُهَا

١/ الديوان ، ص ٢٢٢
٢/ جرير الاولى : جرير بن عطية الشاعر الأموي المشهور المتوفى سنة ١١٠هـ
٣/ الديوان ، ص ٢٦٨
٤/ البازل: الجمل في تاسع سنيه ، والعود : المسن، النقض : المهزول من السير ناقة أو جملا.
٥/ ابن هاني : هو الشاعر محمد بن هاني الأزدي الأندلسي المتوفى سنة ٣٦٢هـ (وفيات الاعيان ٤: ٤٢١)
٦/ الديوان ، ص ١٤٦

وفي قصيدة أخرى يدعو للممدوح بدوام النصر والملك قائلا : (١)

دام نصر الهدى بمُلك بني العباس حتى يكون يوم الحشر

وفي قصيدة أخرى يختم قصيدته بالدعاء للممدوح بطول العمر كما في قوله : (٢)

رُزقت عمراً طويلاً ما طال للدهر عمرُ

ويختم مرثيته التي نظمها في نور الدين محمود بالدعاء له بالسقيا ، وأن يسكنه الله في جنات عليين مع الشهداء قائلا : (٣)

حَيَاكَ مَعْتَلُ الصَّبَا بنسيمه وسقَاكَ مُنْهَلُ الحَيَا بدرُ وره
وسكنت عليين في فردوسه حلف المسرة ظافراً بأجوره

أما قصائده الحماسية غالباً ما يختمها بحث القادة على فتح القدس ومجاهدة الصليبيين الغزاة وملاحقتهم ، ومن ذلك قوله حاثاً صلاح الدين الأيوبي على فتح القدس : (٤)

فسِرْ وأفتح القدس وأسفك به دِمَاءً متى تُجرها يُنظف
وخلص من الكفر تلك البلاد يخلصك الله في الموقف

وفي قصيدته التي هُنا بها صلاح الدين الأيوبي حينما فتح قلعة منبج ختمها أيضاً بحثه على فتح القدس قائلا : (٥)

١/ الديوان ، ص ٢٠٢

٢/ المصدر نفسه ، ص ١٧٦

٣/ المصدر نفسه ، ص ٢١٦

٤/ المصدر نفسه ، ص ٣٠٤

٥/ المصدر نفسه ، ص ٣٧٧

فتمل فتحك وأقصّد الفتح الذي بحصوله لفتوحك الإتمام

وقصيدته التي هناء بها صلاح الدين الأيوبي بالملك ، ختمها بحثه على مجاهدة الصليبيين وفتح القدس قائلاً : (١)

فصّبوا على الإفرنج سوطَ عذابها
بأن تقسيموا ما بينها القتل والأسرا
ولا تهملوا البيت المقدس واعزموا
على فتحه غازين وافترعوا البكرا

ومجمل القول إننا نعتقد إن العماد قد وفق في خواتيمه ، فلم يخرج فيها عن مقاييس الجودة التي حددها النقاد .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد .

تناولت في أطروحتي هذه (العماد الأصبهاني شاعرا)، فجاءت الدراسة في مقدمة وثلاثة أبواب ، وخاتمة .

شملت المقدمة دواعي البحث وأهدافه وأهميته والمنهج الذي اتبعته في البحث وأهم المصادر التي أفادت منها الدراسة .

جاء الباب الأول بعنوان (عصر الشاعر وحياته) ، تطرق الفصل الأول منه إلى عصر الشاعر ، من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية .

حيث كان لضعف الخلافة العباسية وتفككها إلى دويلات متناحرة فيما بينها ، أثره الواضح في نجاح الغزو الصليبي ، واحتلال الغزاة للأراضي العربية الإسلامية ، وقد ساعدتهم في ذلك الحالة الاقتصادية المتردية التي مرت بها الأمة الإسلامية من النكبات الطبيعية ، زلازل وقحط وأوبئة مهلكة أما الفصل الثاني : تناولت فيه حياة العماد من حيث اسمه ومولده وأسرته وتعليمه وثقافته وصفته ووفاته وآثاره .

تناول الباب الثاني الموضوعات الشعرية في ديوان العماد ، وجاءت في فصلين ، الفصل الأول : الموضوعات التقليدية وهي المديح والثناء والفخر والهجاء والغزل والوصف والحكمة والاستعطاف .

فقد استحوذ المدح معظم ديوان العماد ، وتلاه الوصف من حيث الكثرة ثم جاءت الموضوعات الأخرى بشكل أقل في الديوان . وقد مجد العماد في معظم مدائحه قادة وأبطال الجهاد في الحروب الصليبية .

وجاء الفخر مبعوثا في قصائده ، ولم يستقل الفخر بقصيدة واحدة من قصائده ، ولم يفخر العماد بنفسه أو بأبائنه ، وإنما يفخر دائما بقوة الروح الجماعية الإسلامية .

المراثي في ديوان العماد قليلة جدا ، رثى بها قادة وأبطال الحروب الصليبية ، وقد ضاعت معظم أشعاره التي قالها في الرثاء .

ترفع العماد عن الهجاء ، فلم ترد له قصيدة أو مقطوعة في الهجاء ، ولم يهج أحدا غير الغزاة الصليبيين ، فرماهم في بعض قصائده بأقبح الصفات التي اشتهروا بها مثل الخداع والنفاق والجبن وخيانة العهد والهلع وغيرها من الصفات .

يحتل الغزل في ديوان العماد مكانا بارزا ، فقد استهل به معظم قصائده ، وأفرد عددا من القصائد والمقطوعات للغزل الخالص ، وتناول الغزل بكل معانيه ، فتحدث عن الغزل الحسي والغزل العذري ، ونهج في غزله نهج الأقدمين فتغنى بذكر أطلال أحبته في وادي العذيب والقضا ونجد والحمى وكاظمة ، وذكر من أسماء النساء سلمى ونعمى وليلى ونعم وعلوة وأم عمرو ومن الفنون التي برز فيها العماد وأجاد فن الوصف ، وقد اهتم فيه بوصف الطبيعة وما بها من رياض وأزهار وأنهار ، ونهج في وصفه نهج من سبقوه وجاراهم في بعض قصائدهم ، فأنت صورته وتشبيهاته مألوفة وإن أتى في بعض صورته بالجديد المبتكر .

الفصل الثاني : الموضوعات المستحدثة :

وبه شعر الحماسة وهو من أكثر الأغراض شعرا في ديوان العماد ، وقد نادى في شعره الحماسي إلى الوحدة العربية الإسلامية ، واستثار فيه حماس المجاهدين وحثهم فيه على القتال والتضحية بأنفسهم في سبيل الله ، وحث فيه القادة والأبطال على مقاومة الفرنج وتطهير بيت المقدس واسترداد سائر البلاد الإسلامية من أيديهم .

وقد نظم العماد في شعره الحماسي ، (الرباعيات) وهي أناشيد تمجد الجهاد وترغب فيه على السنة بعض القادة ، لاستنفار المسلمين واستثارة هم المحاربين للغزو والتضحية في سبيل الله .

ومن الموضوعات المستحدثة التي تناولها العماد في شعره الاخوانيات ، وقد دارت معظم اخوانياته حول الصداقة الحقة والود والاخاء والملح والطرائف .

الغربة والحنين : لقد عاش العماد متنقلا بين أصبهان والعراق والشام ومصر ، وكان لهذه الأماكن أثرها على نفسه ، فنظم شعرا صادقا أبان فيه حنينه وشوقه لأهله وأصدقائه وأحبابه في هذه الأماكن ، فتارة يحن إلى دمشق وأخرى يتشوق إلى العراق وهكذا .

الباب الثالث : الدراسة الفنية لشعر العماد

الفصل الأول : موسيقى الشعر، وقد حوى الموسيقى الخارجية (الوزن والقافية) ، لم يخالف العماد الأوزان العربية المعروفة إلا وزن الدوبيت ، ونظم في معظم البحور، يتصدرها بحر الكامل ثم الطويل والبسيط والخفيف والسريع .. وأهمل العماد بحر المتدارك والمضارع .
أما من ناحية القوافي فنظم في كل أنواع القوافي إلا أن معظم ما نظم فيه من القوافي الذلل .

الموسيقى الداخلية تتمثل عنده في التكرار والجناس والطباق ورد الصدور إلى الأعجاز وغيرها .

أما الفصل الثاني تناولنا فيه الصورة البيانية ووظائفها ومصادرهما ، فقد استمد العماد معظم صورته من التراث الشعري ومن بيئته ، مستخدماً في ذلك عناصر تشكيل الصورة البيانية وهي التشبيه والاستعارة والكناية ، وقد أتت صورته التشبيهية في المرتبة الأولى من بين صورته البيانية .

الفصل الثالث : اللغة والإسلوب ، فقد تباينت لغة العماد بين الرقة والسهولة والفخامة ، مستخدماً اللغة الجزلة مترفعاً عن الألفاظ الحوشية واللغة الرخيصة المبتذلة .

تنوعت أساليبه بين النداء والتمني والتوكيد والاعتباس والتضمين .
الفصل الرابع : بناء القصيدة ، فقد ألم العماد بالعديد من ألوان المقدمات منها الطللية والغزلية ووصف الظعن ووصف الطبيعة .

وقد وفق العماد في تخلصه وخواتيم قصائده ولم يخرج فيها عن مقاييس الجودة التي حددها النقاد .

وأخيراً أوصي بأن يجد هذا الديوان اهتماماً خاصاً من الدارسين لما فيه من شعر رصين ومادة خصبة للدراسة .

أرجو أن يشرح هذا الديوان شرحاً وافياً حتى تسهل دراسته ، خاصة أنه تناول حقبة مهمة من تاريخ الأمة الإسلامية .

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية

فهرس الأشعار

فهرس الأعلام

فهرس المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

أولا : فهرس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية

الرقم	الآية	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
١	ياأيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم	النساء	٥٩	٥٦
٢	إنما المشركون نجس	التوبة	٢٨	١٦٠
٣	إن أكرمكم عند الله أتقاكم	الحجرات	١٢	١٦٥
٤	إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الأذقان فهم مقمحون	يس	٨	٢٥٦
٥	إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا	الإنسان	١٠	٢٥٧
٦	وبست الجبال بسا	الواقعة	٥	٢٥٧
٧	وإن تولوا فأعلموا إن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير	الأنفال	٤٠	٢٥٧
٨	واستوت على الجودي	هود	٤٤	٢٥٨
٩	ثم لترونها عين اليقين	التكاثر	٧	٢٥٨

الرقم	الحديث	رقم الصفحة
١	لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى	١٦٦

ثانيا : فهرس الأشعار

الرقم	قافية الهمزة	اسم الشاعر	رقم الصفحة
١	دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ودأوني بالتى كانت هي الداء	أبو نواس	٢٦٠
	قافية الباء		
١	تولى الجهل وانقطع العتاب ولاح الشيب وافتضح الشباب	أبي الرجاء حامد	٢٩
٢	السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب	أبو تمام	٢٥٩
٣	لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنتَ شهما فاتبع رأسها الذنبا	أبوأذينة	٢٥٩
	قافية السين		
١	صنت نفسي عما يندس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس	البحثري	٢٦٥
٢	إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم احنف في ذكاء إياس	أبو تمام	٢٦١
	قافية القاف		
١	وأخفت الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تُخلق	أبو نواس	٢٦٠
	قافية الميم		
١	وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام	المتنبي	٢٦٠
	قافية النون		
١	يا أبا الفضل لما تأخرت عنا فأسأنا بحسن عهدك ظنا	العزیز أحمد بن حامد	٢٩
	قافية الياء		

٢٥٩	المتنبي	هو أول وهي المحل الثاني	الرأي قبل شجاعة الشجعان	١
-----	---------	-------------------------	-------------------------	---

ثالثاً: فهرس الأعلام

الرقم	العلم	رقم الصفحة
١	أبو تمام	٢٥٩، ٧٢ ، ٢٦١
٢	أبو طاهر السلفي	٣٦
٣	أبو عبد الله الفراوي	٣٠
٤	أبو القاسم بن الحصين	٣٠
٥	أبو المعالي الوركاني	٣١
٦	البحثري	٧٢
٧	الأبيوردي	٣٣
٨	الأحنف بن قيس	٩١
٩	أسامة بن منقذ	٢١
١٠	أسد الدين شيركوة	٦٨ ، ٧٩ ، ٨٩
١١	الأفوه	١٤٥
١٢	ابن الأحمر التميمي	٣٢
١٣	ابن الأخوة الشيباني	٣٠
١٤	ابن تيمية	١٧
١٥	ابن الخشاب	٣٦
١٦	ابن الرزاز البغدادي	٣٦
١٧	ابن شداد	٢١
١٨	ابن عسرون	٧١ ، ٢٠
١٩	ابن الفارض	١٧
٢٠	ابن هاني	١٠٣
٢١	تاج الدين أبو اليمن الكندي	٧١
٢٢	الحافظ السلفي	٢٠

٢٣	الحاكم بأمر الله الفاطمي	٨
----	--------------------------	---

الرقم	العـلـم	رقم الصفحة
٢٤	حسان بن ثابت	١٠٢ ، ١٦٦
٢٥	الحيص بيص	٣٢
٢٦	الخندي	٣١
٢٧	زكي الدين المنذري	٣٧
٢٨	سحبان بن زفر الوائلي	٧٢
٢٩	سنجر بن ملكشاه	١٣٩
٣٠	السهروردي	٢٤
٣١	شاور بن مجير السعدي	١٠١
٣٢	الشهرزوري	٣٣
٣٣	صلاح الدين الأيوبي	٦٧ ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٣٣
٣٤	طمآن	١٧٢
٣٥	عماد الدين بن عضد الدولة	١٥٢
٣٦	عمرو بن عبدود	٦٢
٣٧	عون الدين بن هبيرة	٢٠
٣٨	القاضي أبي بكر الأرجاني	٣٢
٣٩	القاضي الفاضل	٧٢ ، ٢١
٤٠	قس بن ساعدة الأيادي	٧٢
٤١	قطب الدين النيسابوري	٢٠
٤٢	المتنبي	٢٥٩ ، ١٤٦ ، ٢٦٠ ،
٤٣	المستضي بأمر الله	٥٦ ، ٥٤
٤٤	المستنجد بالله	٥٣ ، ٥٢ ، ٣٣
٤٥	المظفر تقي الدين عمر	١٧١ ، ٩٩ ، ٧٠
٤٥	المقتفي لأمر الله	٥٢ ، ٥١ ، ٣٢
٤٦	الناصر لدين الله	٥٨ ، ٥٧
٤٧	نجم الدين الأيوبي	٣٣
٤٨	نور الدين محمود	٨٣ ، ٧٩ ، ٦٠ ، ٥٨

رابعاً: فهرس المصادر والمراجع

أولا القرآن اكريم
ثانيا : الحديث الشريف

- ١/ الإتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر: د. عبدالقادر القط ، دار النهضة العربية - بيروت ، ١٩٨٣م.
- ٢/ الأدب في العصر الأيوبي : د. محمد زغلول سلام ، دارالمعارف مصر ، طبعة ١٩٦٨م
- ٣/ اساس البلاغة : الزمخشري ، دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م
- ٤/ أسرار البلاغة : الجرجاني (الشيخ الإمام أبو بكر محمد عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني) قرأه وعلق عليه أبوفهر محمود محمد شاکر ، الناشر مطبعة المدني - القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م
- ٥/ الأسس الجمالية في النقد الأدبي : عزالدين إسماعيل ، مصر ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٥م
- ٦/ أسس النقد الأدبي عند العرب : أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر ، د. ت .
- ٧/ الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد علي البجاوي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الفجالة - القاهرة ، د. ت .
- ٨/ أصول النقد الأدبي : أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ، ١٩٦٤م
- ٩/ الأعلام : خيرالدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، الطبعة العاشرة ، ١٩٩٢م
- ١٠/ الأغاني : لأبي الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين) تحقيق عبد السلام محمد هارون، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، د. ت .

- ١١/ أيام صلاح الدين : عبد العزيز سيد الأهل ، المجلس العلمي للشئون الإسلامية بالقاهرة ، الكتاب العاشر ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- ١٢/ الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني (جلال الدين أبو عبد الله عبد الرحمن الغزويني) شرح وتبويب علي أبو ملجم ، الطبعة الثانية ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٩١ م .
- ١٣/ ابن سناء الملك حياته وشعره : تحقيق محمد إبراهيم نصر ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م
- ١٤/ البداية والنهاية في التاريخ : ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ، مطبعة السعادة - القاهرة ، ١٣٥١ هـ - ١٩٥٨ م ، وطبع مكتبة المعارف بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٧ م .
- ١٥/ البديع : ابن المعتز ، طبع مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة ، سنة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٠ م .
- ١٦/ البيان والتبيين : الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ) ، تحقيق محمد عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي - القاهرة ، ١٩٦٨ م .
- ١٧/ تاريخ الأدب العربي : عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٧٩ م .
- ١٨/ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان ، ١٩٩٢ م .
- ١٩/ تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني : د. حسن إبراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٨ م
- ٢٠/ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام : الذهبي ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
- ٢١/ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل : ابن الأثير الجزري ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، طبع دار الكتب بالقاهرة ، ومكتبة المثنى ببغداد ، د. ت .
- ٢٢/ تاريخ ابن الوردي : زين العابدين عمر بن الوردي ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، د. ت .
- ٢٣/ تاريخ الحروب الصليبية : ستيفن رينسمان ، ترجمة السيد الباز العريني ، نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٧ م .
- ٢٤/ تاريخ الخلفاء : السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .

- ٢٥/ التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفني : د. عبد الفتاح عثمان ، مكتبة الشباب ، ١٩٩٣م .
- ٢٦/ تفسير القرآن الكريم : ابن كثير ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م
- ٢٧/ التكملة لوفيات النقلة : المنذري ، تحقيق بشار عواد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- ٢٨/ تهذيب تاريخ دمشق الكبير : ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسين هبة الله الشافعي) ، هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران ، دار المسيرة - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- ٢٩/ التيارات الأجنبية وأثرها في الشعر العربي : عثمان موافي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٧٦م .
- ٣٠/ الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي : مسفر سالم بن عريج الغامدي ، دار المطبوعات الحديثة ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- ٣١/ الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء : د. أحمد فوزي اللهيبي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- ٣٢/ الحركة الصليبية : سعيد عاشور ، مطبعة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨م .
- ٣٣/ الحروب الصليبية من خلال كتابات جاك دي فيتري ، خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي : عبد اللطيف عبد الهادي السيد ، المكتب الجامعي الحديث ، ٢٠٠٦م .
- ٣٤/ الحروب الصليبية وأثرها في الأدب : محمد سيد كيلاني ، دار الكتاب العربي ، مصر ، ١٩٦١م
- ٣٥/ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام : أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر ومطبعتها ، الطبعة الأولى ، د. ت .
- ٣٦/ الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام : أحمد أحمد بدوي دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، د. ت .
- ٣٧/ الحيوان : الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) عبد السلام هارون ، مطبعة البابي الحلبي ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م
- ٣٨/ خريدة القصر وجريدة العصر : العماد الأصبهاني ، القسم العراقي ، تحقيق محمد بهجت الأثري وجميل سعيد ، ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .

- ٣٩/ خزانة الأدب وغاية الأرب : ابن حجة الحموي (الشيخ تقي الدين أبي بكر علي) ، شرح عصام شيخو ، دار مكتبة الهلال ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧ م .
- ٤٠/ خزانة الأدب ولب لباب العرب : الشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي ، دار صادر بيروت ، د. ت .
- ٤١/ دلائل الإعجاز في علم المعاني : الجرجاني ، تصحيح محمد رشيد رضا ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، الطبعة السادسة ، ١٩٦٠ م .
- ٤٢/ ديوان أبي تمام ، بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، د. ت .
- ٤٣/ ديوان أبي نواس (الحسن بن هاني) حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالي ، مطبعة مصر - القاهرة ، ١٩٥٣ م .
- ٤٤/ ديوان البحري ، شرح وتقديم ، حنا الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .
- ٤٥/ ديوان الخنساء ، بيروت ، دار صادر للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ م .
- ٤٦/ ديوان عماد الدين الأصبهاني ، جمعه وحققه د. ناظم رشيد ، مطبعة جامعة الموصل ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م .
- ٤٧/ الرثاء : شوقي ضيف ، الطبعة الثانية ، مصر ، د. ت .
- ٤٨/ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية : المقدسي (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ، المعروف بأبي شامة) ، نشر دار الجيل - بيروت ، د. ت .
- ٤٩/ سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي (أبو محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي) ، شرح وتعليق عبد المتعال الصعيدي ، طبع مطبعة صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .
- ٥٠/ سير أعلام النبلاء : الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن عثمان) ، تحقيق بشار عواد ومحي الدين هلال ، مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- ٥١/ السيرة النبوية : ابن هشام (أبي محمد عبد الملك بن هشام) ، تحقيق وضبط الأساتذة : مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، منشورات دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، د. ت .
- ٥٢/ شذرات الذهب في أخبار من ذهب : لأبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، د. ت .

٥٣/ شرح القصائد العشرة : الخطيب التبريزي (أبو زكريا يحيى بن علي بن الحسين) ، تحقيق محمد محي الدين ، مطبعة السعادة القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤م.

٥٤/ شرح ديوان المتنبي : عبد الرحمن البرقوقي ، الناشر دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

٥٥/ الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين : محمود عبد الله أبو الخير ، دار الإسرائ للنشر والتوزيع ، عمان ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

٥٦/ الشعروالشعراء : ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري) تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر - القاهرة ، ١٩٦٦م.

٥٧/ طبقات الشافعية الكبرى: السبكي (تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب ابن علي بن عبد الكافي ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية ، د.ت.

٥٨/ طبقات فحول الشعراء : ابن سلام الجمحي ، الناشر دار المدني بجدة ، مطبعة المدني ، المؤسسة السعودية بمصر ، د.ت.

٥٩/ العبر في خبر من غير : الذهبي ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد ابن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، د.ت.

٦٠/ العقد الفريد : ابن عبد ربه (أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي) تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، د.ت.

٦١/ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : لأبي علي حسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.

٦٢/ عيار الشعر : ابن طبا طباطبائي ، شرح وتحقيق عباس عبد الستار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، د.ت.

٦٣/ الغزو الصليبي والعالم الإسلامي : علي عبد الحليم ، مطبعة شركة مكتبات عكاظ ، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٦٤/ فن البديع : عبد القادر حسين ، دار الشرق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٦٥/ فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : مصطفى الشعكة ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨١م.

٦٦/ فن الرثاء : شوقي ضيف ، دار المعارف - القاهرة ، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.

٦٧/ فن الوصف وتطوره في الشعر العربي : إيليا حاوي ، طبع منشورات دار الشرق الجديد ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٩ م .

٦٨/ فوات الوفيات والذيل عليها : ابن شاعر الكتبي ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت، د. ت .

٦٩/ في النقد الأدبي : د. عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

٧٠/ في النقد الأدبي : شوقي ضيف ، دار المعارف - القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٧ م .

٧١/ القاموس المحيط : الفيروز أبادي ، دار الجيل - بيروت ، د. ت .

٧٢/ قصص الأنبياء : للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير ، دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

٧٣/ قصة الحضارة : ول ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، مطبعة دار الجيل - بيروت ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

٧٤م قضايا الشعر في النقد الأدبي : إبراهيم عبد الرحمن ، بيروت ، دار العودة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١ م .

٧٥/ قضايا الشعر المعاصر : نازك الملائكة ، منشورات مكتبة النهضة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٢ م .

٧٦/ الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، طبعة مكتبة دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٢ م .

٧٧/ كتاب الصناعتين الكتابة والشعر : أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله ابن سهل) ، حققه وضبط نصه د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

٧٨/ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : حاجي خليفة ، منشورات مكتبة المثنى - بغداد ، د. ت .

٧٩/ ماهية الحروب الصليبية : قاسم عبده قاسم ، عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية ، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، مايو ١٩٩٠ م - ١٤٠٤ هـ .

٨٠/ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ابن الأثير ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٩٠ م .

- ٨١/ مجمع الأمثال : للميداني (أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد ابن إبراهيم) ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، د. ت.
- ٨٢/ المجموعة النبهانية في المدائح النبوية : يوسف إسماعيل النبهاني ، طبع دار الفكر ، بيروت ، د. ت.
- ٨٣/ المختصر في أخبار البشر : عماد الدين إسماعيل إبي الفداء ، المطبعة الحسينية المصرية ، الطبعة الأولى ، د. ت.
- ٨٤/ مرآة الجنان وعبرة اليقظان : الياضي (الإمام أبو محمد عبد الله ابن سعد بن علي بن سليمان) منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
- ٨٥/ المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها : أ. د. عبد الله الطيب ، الطبعة الأولى مصر ، ١٩٥٦ م ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٧٩ م ، الطبعة الثالثة ، الكويت ، ١٩٨٩ م ، الطبعة الرابعة ، الخرطوم ، ١٩٩١ م .
- ٨٦/ مسند الإمام أحمد بن حنبل ، نشر لمكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، بيروت ، د. ت.
- ٨٧/ مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني : د. بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٢٧ م.
- ٨٨/ معجم الأدباء: ياقوت الحموي ، تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣ م .
- ٨٩/ معجم البلدان : ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت ابن عبد الله الحموي) دار صادر بيروت ، ١٩٨٤ م .
- ٩٠/ معجم الشعراء : المرزباني (أبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني) تحقيق فاروق سليم ، دار صادر بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م .
- ٩١/ معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م
- ٩٢/ مفتاح السعادة ومصباح السيادة : طاش زادة كبرى ، تحقيق كامل كامل بكري ، مطبعة الإستقلال الكبرى ، القاهرة ، د. ت.
- ٩٣/ مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام : حسين عطوان ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٧ م .
- ٩٤/ المنجد في اللغة والأعلام ، دار المشرق ، بيروت - لبنان ، الطبعة الحادية عشرة ، د. ت.
- ٩٥/ منهاج البلغاء وسراج الأدباء : أبي الحسن حازم القرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، د. ت.

- ٩٦/ موسوعة تاريخ الحروب الصليبية : مفيد الزبيدي ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، الأردن - عمان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م.
- ٩٧/ موسيقى الشعر العربي : إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٥م .
- ٩٨/ موسيقى الشعر العربي : محمد شكري عياد ، طبع دار المعرفة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٨م .
- ٩٩/ ميزان الذهب في صناعة شعر العرب : السيد أحمد الهاشمي ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- ١٠٠/ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : جمال الدين يوسف ابن تقري بردي الأتابكي ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٥٣هـ - ١٩٣٥م
- ١٠١/ النقد الأدبي : أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧م .
- ١٠٢/ نقد الشعر : قدامة بن جعفر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- ١٠٣/ نور الدين محمود : حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م .
- ١٠٤/ هدية العارفين : إسماعيل باشا البغدادي ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد ، طبعة إستانبول ، ١٩٥٥م .
- ١٠٥/ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي : د. محمد طاهر حمادة ، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٢م .
- ١٠٦/ الوافي بالوفيات : الصفدي ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركلي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .
- ١٠٧/ الوافي في العروض والقوافي : الخطيب التبريزي ، تحقيق عمر يحيى وفخر الدين قباوة ، طبع دار الفكر العربي ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- ١٠٨/ وفيات الأعيان وأنباء الزمان : ابن خلكان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، د. ت.

خامسا: فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
الآية	أ
الإهداء	ب
الشكر والتقدير	ج
المقدمة	١-٤
الباب الأول : عصر الشاعر وحياته	٥-٤٦
الفصل الأول : عصر الشاعر	٦-٢٥
المبحث الأول : الحياة السياسية	٧-١٣
المبحث الثاني : الحياة الإقتصادية والإجتماعية	١٤-١٨
المبحث الثالث : الحياة العلمية والفكرية	١٩-٢٥
الفصل الثاني : حياة الشاعر	٢٦-٤٦
المبحث الأول : اسمه ولقبه وكنيته	٢٧-٢٨
ميلاده ونسبه	٢٨
أسرته	٢٨-٣٠
تعليمه	٣٠-٣١
المبحث الثاني : مقامه في كنف الخلافة العباسية	٣٢-٣٩
مقامه في الدولة النورية	٣٣-٣٤
مقامه في الدولة الصلاحية الأيوبية	٣٥
شيوخه	٣٦-٣٧
تلاميذه	٣٧
العماد بعد وفاة مؤسس الدولة الأيوبية	٣٧-٣٩
وفاته	٣٩
المبحث الثالث:	٤٠-٤٦
صفته	٤٠
ثقافته	٤١
كتبه وآثاره	٤٢-٤٦

الموضوع	رقم الصفحة
---------	------------

٤٢	الكتب المترجمة
٤٣ — ٤٤	كتب التاريخ الثقافي الأدبي
٤٤ — ٤٥	كتب التاريخ السياسي الاجتماعي
٤٦	الشعر والنثر
٤٧ — ١٩٤	الباب الثاني : الموضوعات الشعرية في ديوان العماد
٤٩ — ١٥٥	الفصل الأول : الموضوعات التقليدية
٤٩ — ٧٣	المبحث الأول : المـدح
٥١ — ٥٢	مدح الخليفة المقتفي
٥٣ — ٥٥	مدح الخليفة المستنجد بالله
٥٥ — ٥٧	مدح الخليفة المستضيء بامر الله
٥٧ — ٥٨	مدح الخليفة الناصر لدين الله
٥٨ — ٦٣	مدح نور الدين محمود زنكي
٦٣ — ٦٨	مدح صلاح الدين الأيوبي
٦٨ — ٧٠	مدح أسد الدين شيركوه
٧٠ — ٧١	مدح تقي الدين عمر
٧١	مدح أستاذه ابن عسرون
٧١ — ٧٢	مدح الشيخ تاج الدين الكندي
٧٢ — ٧٣	مدح القاضي الفاضل
٧٤ — ٩٤	الرثاء
٧٧ — ٧٨	رثاء صديقه المعتمد إبراهيم
٧٨ — ٧٩	رثاء اخوه عثمان
٧٩ — ٨٣	رثاء البطل نور الدين محمود
٨٤ — ٨٩	رثاء البطل صلاح الدين الأيوبي
٨٩ — ٩٤	رثاء القائد أسد الدين شيركوه
٩٥ — ١٠١	الهجاء
١٠٢ — ١٠٤	الفخر
١٠٥ — ١٢٦	المبحث الثاني : الغزل
١٢٧ — ١٤٧	الوصف
١٢٥ — ١٣١	وصف المدن
١٣١ — ١٣٣	وصف الرياض
١٣٣ — ١٣٥	وصف الثمار والفواكه

١٣٧ — ١٣٥	وصف الطيور
١٣٨ — ١٣٧	وصف الإبل
١٣٨	وصف الخيل
١٣٩ — ١٣٨	وصف الحشرات
١٤١ — ١٣٩	وصف الزلزلة
١٤٢ — ١٤١	وصف الجيوش الإسلامية
١٤٣ — ١٤٢	وصف المعارك
١٤٥ — ١٤٣	وصف الخمر
١٤٦ — ١٤٥	وصف الحمى
١٤٧ — ١٤٦	وصف كتبه
١٥٢ — ١٤٨	الحكمة والنصح والارشاد
١٥١ — ١٤٨	الحكمة
١٥٢ — ١٥١	النصح والارشاد
١٥٥ — ١٥٢	الاستعطاف
١٩٤ — ١٥٦	الفصل الثاني : الموضوعات المستحدثة
١٧٦ — ١٥٧	المبحث الأول : شعر الحماسة
١٥٩ — ١٥٨	يحث البطل نور الدين على قتال الفرنج
١٦٠ — ١٥٩	يحث صلاح الدين على تحرير بيت المقدس
١٦٥ — ١٦٠	يحث صلاح الدين على فتح مدينة صور
١٦٦ — ١٦١	يطلب صلاح الدين بفتح بقية المدن بعد فتح القدس
١٦٤ — ١٦٢	الرباعيات
١٦٦ — ١٦٤	الدعوة الى الوحدة
١٦٩ — ١٦٦	وصف المعارك
١٦٩	قتلى الصليبيين
١٧٤ — ١٧٠	السبايا والاسرى
١٧٦ — ١٧٤	وصف الجيوش الغازية
١٨٧ — ١٧٧	المبحث الثاني : الاخوانيات
١٧٩ — ١٧٨	التهنئة
١٨٢ — ١٧٩	قصائد الود والمحبة
١٨٢	الشكوى
١٨٤ — ١٨٢	العتاب
١٨٦ — ١٨٤	المساجلات الاخوانية
١٨٧ — ١٨٦	الألغاز

١٨٨ — ١٩٤	المبحث الثالث : الغربية والحنين
١٩٥ — ٢٨٦	الباب الثالث : الدراسة الفنية لشعر العماد
١٩٦ — ٢٢٢	الفصل الأول : موسيقى الشعر
١٩٦ — ٢٠٧	المبحث الأول : الموسيقى الخارجية
٢٠٨ — ٢١٤	المبحث الثاني : القافية
٢١٥ — ٢٢٤	المبحث الثالث : الموسيقى الداخلية
٢١٥ — ٢١٦	التكرار اللفظي
٢١٦ — ٢١٧	التكرار الحرفي
٢١٧	السجع
٢١٧ — ٢١٨	الجناس
٢١٨ — ٢١٩	الطباق
٢١٩ — ٢٢٠	المقابلة
٢٢٠ — ٢٢١	رد العجز على الصدر
٢٢١ — ٢٢٢	التدوير
٢٢٣ — ٢٤٤	الفصل الثاني : التصوير البياني
٢٢٣ — ٢٢٩	مفهوم الصورة
٢٢٩ — ٢٣٤	المبحث الأول : التشبيه
٢٣٥ — ٢٣٨	المبحث الثاني : الاستعارة
٢٣٥ — ٢٣٧	الاستعارة المكنية
٢٣٧ — ٢٣٨	الاستعارة التصريحية
٢٣٩ — ٢٤٤	المبحث الثالث : الكناية
٢٣٩ — ٢٤٢	الكناية عن صفة
٢٤٢ — ٢٤٣	الكناية عن موصوف
٢٤٣ — ٢٤٤	الكناية عن نسبة
٢٤٥ — ٢٦٣	الفصل الثالث : اللغة والاسلوب
٢٤٥ — ٢٥٠	المبحث الأول : اللغة
٢٥١ — ٢٦٣	المبحث الثاني : الاسلوب
٢٥٦ — ٢٥٨	الاقتباس
٢٥٨ — ٢٦٣	التضمين
٢٦٤ — ٢٨٧	الفصل الرابع : بناء القصيدة
٢٦٤	المبحث الأول : مطلع القصيدة
٢٦٥ — ٢٦٧	المقدمة الطللية
٢٦٧ — ٢٧١	المقدمة الغزلية

٢٧٣ — ٢٧١	مقدمة وصف الطعن والفراق والرحيل
٢٧٤ — ٢٧٣	مقدمة وصف الطبيعة
٢٧٦ — ٢٧٤	مقدمة الشوق والحنين الى الوطن والأحباب
٢٧٩ — ٢٧٤	مقدمة القصائد الحماسية
٢٨٢ — ٢٨٠	المبحث الثاني : التخلص والخروج
٢٨٦ — ٢٨٣	المبحث الثالث : خاتمة القصيدة
٢٨٩ — ٢٨٧	الخاتمة والتوصيات
٣٠٧ — ٢٩٠	الفهارس
٢٩١	فهرس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية
٢٩٢	فهرس الأشعار
٢٩٤ — ٢٩٣	فهرس الأعلام
٣٠٢ — ٢٩٥	فهرس المصادر والمراجع
٣٠٧ — ٣٠٣	فهرس الموضوعات